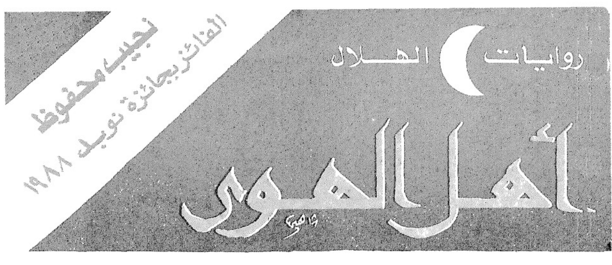

روايات الهلال
أهل الهوى
نجيب محفوظ
الفائز بجائزة نوبل ١٩٨٨

روايات الـهـلال
Rewayat Al Hilal
تصــــدر عــن مؤسســة
دار الهــــلال

العدد ٤٧٩ نوفمبر ١٩٨٨ ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ
NO . 479 NOV . 1988

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

● الاشــــتراكـــــات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

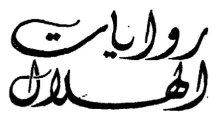
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد العادى فئة ١٠٠ قرش : ـ سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ٧٠٠ ليرة ، الأردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٤٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، أبو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، تونس ١٦٥٠ مليما ، المغرب ١٥ درهما ، غزة والضفة ٧٥ سنتا ، اليمن الشمالية ٦ ريالات ، عدن ١٥٠ سنتا ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس . 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط





مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف واللوحات الداخلية
بريشة الفنان : عادل ثابت

أهل الهوى

مجموعة قصص اختارها بنفسه
عقب فوزه بنوبل

للكاتب الكبير

نجيب محفوظ

"الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨"

●

دار الهلال

قبـــل أن تقـــرأ

● نجيب محفوظ كاتب الرواية بامتياز واقتدار ، لكن للقصة القصيرة مكانا هاما فى إبداعه خلال رحلته الطويلة : نعرف أنه بدأ كتابتها ونشرها ، وظل ينشر قصصه القصيرة طوال الفترة الممتدة من ١٩٣٢ إلى ١٩٤٦ ، ثم انتقى من حوالى السبعين قصة ثلاثين أعاد نشرها فى مجموعته الأولى « همس الجفون ـ صدرت طبعتها الأولى فى ١٩٤٧ ، على الأرجح ، لا فى ١٩٣٨ كما تذكر قوائم أعماله » ، بعدها توقف نجيب عن القصة القصيرة الفترة التى شغلتها روايات المرحلة الثانية من إنتاجه ، والتى تبدأ برواية « القاهرة الجديدة » وتنتهى بثلاثية « بين القصرين » ، ولم يعد إليها إلا فى ١٩٦٢ ، حين نشر مجموعته « دنيا الله » . من ذلك التاريخ ظل نجيب يكتب الرواية والقصة معا ، وتتابعت مجموعاته حتى بلغت اثنتى عشرة مجموعة .

والقصص التالية اختارها نجيب من مجموعاته (قصة من كل مجموعة) ، وهى فى مجملها ـ تقدم أعمالا نموذجية لابداعه فى هذا الشكل الفنى . بين يدى هذه المجموعة نسوق الملاحظات التالية ، من أجل مزيد من فهمها فى سياقها الصحيح :

● قد نلاحظ هنا أن القصة الأولى واحدة من أشهر قصص نجيب محفوظ القصيرة « زعبلاوى » . ولعل سبب ماحظيت به هذه القصة من اهتمام أنها تكاد أن تكون تلخيصا وتكثيفا لرحلتين سيقوم بهما بطلا روايتيه التاليتين : « الطريق ، ١٩٦٤ » ثم « الشحاذ ، ١٩٦٥ » ، فما أشبه الباحث عن زعبلاوى بصابر بطل « الطريق » فى بحثه عن « الحرية والكرامة والسلام » ، وبعمر الحمزاوى المتسائل عن « معنى الحياة » ، الأبطال الثلاثة يجمع بينهم أنهم فى رحلة بحث عن شخص كلى القدرة ، أو شيء يهب المعنى لحياة بلا معنى ، وتتعدد سبل البحث : من الدين الى العلم ، ومن الخمر الى التصوف ، ومن الحب الى الجنس ، وقد يجد الباحث فى آخر الطريق الموت أو الجريمة ، لكن هذه ليست النهاية ، فالأمل يبقى موجودا هناك : من عرف مالا يفيده فقد عرف مايفيده ، ومن قاع اليأس تنبثق استجابات أكثر صحة وامتلاء بالحياة .

● ثمة قصص تنتمى الى ١٩٦٧ : ما قبلها مباشرة (خمارة القط الأسود) ، وما بعدها مباشرة كذلك (تحت المظلة ـ روبابيكيا ـ شهر العسل) . فى تلك الفترة المثقلة بالذهول والحيرة والارتباك والتشتت وتشابك الخطى توقف نجيب عن كتابة الرواية (حوالى خمس سنوات : من ١٩٦٦ حين أتم « ثرثرة فوق النيل » حتى ١٩٧٢/٧١ حين أتم « المرايا ») ، وتتابعت مجموعات قصصه القصيرة . فى تلك الفترة يقول نجيب محفوظ : « صدقنى .. إننى أبدأ القصة القصيرة الآن دون أن أعرف كيف تنتهى .. لكننى لا أستطيع أن أغلق الباب على نفسى عاما كاملا كى أكتب رواية ، منصرفا عما يحدث فى الواقع وفى نفسى .. الانفعال اليومى عذابى وعزائى .. لهذا لا أستطيع تثبيت ما فى الخارج واطالة النظر اليه .. » .

انما فى هذا الضوء يجب أن نقرأ هذه القصص ، خذ « شهر العسل » مثلا : يدور صراع وحشى بين جماعة جاءت واحتلت الشقة التى تأهب الزوجان الشابان لبدء حياتهما الجديدة فيها ، ويتبدد الحلم الجميل وسط العنف والقتل والتخريب والتدمير ، وتأتى النار بعد ذلك لتلتهم كل قائم .. « رغم كل شىء فان القلب لم يخل من ارتياح خفى ، وتردد صوته فى إعياء : لم يضع شىء لايمكن تعويضه » نعم : لاشىء يضيع ولايمكن تعويضه إلا أن تستسلم لقوى القهر والتسلط ، أن تبقى فى بيتك ـ وطنك ، ولاشىء لك من الأمر كله ، يتحكم فى قدرك قاطعو الطريق ومهرجو الموالد والطبالون والغوازى . مهما بدا أنك ضعيف أعزل لابد أن تقاتل . لامفر . ولتجتاح النار كل شىء قائم ، وليعتم البهو المضىء فلا تبقى سوى شمعة واحدة ترسل ضوءها الشاحب ، فان شيئا لم يضع لايمكن تعويضه .

تلك هى الرسالة التى ينقلها الكاتب المهموم بالحياة والوطن لقارئيه بعد ١٩٦٧ ، وفى هذا الضوء يجب أن نقرأ قصص هذه المرحلة من إنتاجه .

● من بين تلك القصص أيضا « روبابيكيا » ستصبح هذه القصة عبثا إلا لو افترضنا معنى للمرأة الجميلة القادرة التى تكره العجز فى الرجال ، فتتخلص منهم واحدا بعد الآخر ، ومصيرهم الحتمى أن يلقوا مرارة التعذيب الجسدى والنفسى ، ثم يلقى بهم بين النفايات ، ويحملوا على عربات تبيع سقط المتاع ـ أليست تلك جوهرة « السلطة » المشعة دائما ببريقها الساحر ، يتحطم الرجال على أعتاب شبابها الدائم ونضارتها التى تضىء قتامة المغيب ؟

وبعد ان استعاد كاتبنا الكبير التوازن فى عالمه بين الانفعال والتعبير ، رجع يصوغ حكايات المرأة الجميلة القادرة ويكسبها مدلولات جديدة أكثر شمولا فى قصص مثل « أهل الهوى » و « فى أثر السيدة الجميلة » و « نور القمر .. » . فمن تكون « نعمة الله » المرأة الرائعة المخيفة ، التى لاحد لجمالها ولقدرتها على

أن تهب المتعة ، ثم قدرتها المفاجئة على الصد والهجر ، والتهيؤ لعشق جديد ؟ من المرأة القادرة على أن تتوج الرجل الذى تختاره « فوق عرش النشوة والسيادة » ، ثم القادرة - فى النهاية - على أن تطالع الرجل نفسه بوجه « يتجسد فيه الرفض والانكار والقسوة ، كأنما لا ماضى له ولا ذكريات ، لا وجدان ولا ضمير » ؟

ومن السيدة الجميلة التى يمضى الرجل فى أثرها ؟ أسرته بقوة قاهرة فمضى وراءها فى مطاردة محمومة مجنونة ، لاهثة عابثة ، من ميدان لشارع ، ومن مكتب لمتجر ، ومن مقهى لملهى ، حتى نال منه التعب والاعياء ، وتعرض للضرب والايذاء ، فتورم وجهه وتمزقت ثيابه ، وحين ساد الظلام - والمطاردة لاتزال - سقط فى حفرة لم ينبته اليها .. « ... وانتظرت أن يقترب منى عابر سبيل لأستنجد به ، وبلغ منى الاعياء غايته ، فأسندت رأسى الى حافة الحفرة مستسلما الى قدرى .. » . أى عابر سبيل يستطيع أن يسترد انسانا سقط فى حفرة قبره حين عجز عن مواصلة الطراد ؟

هل نحن بحاجة للتزيد فيما هو واضح ؟ .. هى الحياة يصفها الكاتب الكبير بأنها « معجزة باهرة حقا » هى أكبر من كل شىء وأعظم ، هى رحلة مليئة بالغرابة والتناقض ، رغم كل السلبيات والآلام فهى جديرة بأن نحياها ونحرص عليها . وهذا سرها الخفى .. » .

نعم هى الحياة المليئة بالتناقض ، التى لا تنى تتفاعل ملقية بحركة التاريخ الى أمام ، كلما أدى صباح إلى مساء ، وأسفر مساء عن صباح .

« روايات الهلال »

زعبــــــــــلاوى

اقتنعت اخيرا بأن على ان اجد الشيخ زعبلاوى
وكنت قد سمعت باسمه لاول مرة فى اغنية :

الدنيا مالها يازعبلاوى　　　　شقلبوا حالها وخلوها ماوى

وكانت اغنية ذائعة على عهد طفولتى فخطر لى يوما ان أسال ابى عنه كعادة الاطفال فى السؤال عن كل شىء ، سألته :

ـ من هو زعبلاوى ياابى ؟

فرمقنى بنظرة مترددة كأنما شك فى استعدادى لفهم الجواب ، لكنه قال :

ـ فلتحل بك بركته ، إنه ولى صادق من اولياء الله ، وشيال الهموم والمتاعب ، ولولاه لمت غما ..

وفى السنوات التى تلت ذلك سمعته مرات وهو يثنى أطيب الثناء على الولى الطيب وكراماته .

وجرت الايام فصادفتنى ادواء كثيرة ، وكنت اجد لكل داء دواء بلا عناء وبنفقات فى حدود الامكان ، حتى اصابنى الداء الذى لا دواء له عند احد ، وسدت فى وجهى السبل وطوقنى اليأس ، فخطر ببالى ماسمعته على عهد طفولتى ، وتساءلت لم لا ابحث عن الشيخ زعبلاوى ؟ وذكرت ان ابى قال انه عرفه فى بيت الشيخ قمر بخان جعفر ، وهو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعية ، فقصدت بيته ، واردت التأكد من انه مازال يقيم فيه سألت بياع فول اسفل البيت ، فنظر الرجل الىّ باستغراب وقال :

ـ الشيخ قمر ! ترك الحى من عهد بعيد ، ويقال انه يقيم اليوم بجاردن ستى ، وان مكتبه بميدان الازهار ..

واستدللت على عنوان مكتبه بدفتر التليفون ، وذهبت اليه من توى فى عمارة الغرفة التجارية ، واستأذنت ، ثم دخلت الحجرة على اثر خروج سيدة حسناء منها اسكرتنى برائحة زكية كالسحر المخدر ، استقبلنى باسما ، واشار الىّ بالجلوس فجلست على مقعد جلدى فاخر ، واحست قدماى رغم غلظ النعل بغزارة السجادة ونفاستها . وكان الرجل يرتدى البدلة العصرية ويدخن السيجار ، ويجلس جلسة المعتد بنفسه وماله ، وينظر الىّ بترحاب حار لم اشك معه فى انه يظننى زبونا ، فركبنى الحرج والضيق لتطفلى على وقته الثمين ، قال يستحثنى على الكلام :

ـ اهلا وسهلا !

فقلت لأضع حدا لموقفى الحرج :

ـ أنا ابن صديقك القديم الشيخ على التطاوى !

فمرت بنظرته رنوة فتور ، لا الفتور كله لانه لم يفقد الامل كله وقال :

ـ الله يرحمه ، كان رجلا طيبا ..

فتشجعت على البقاء بقوة الالم الذى ساقنى الى المجىء وقلت :

ـ كان حدثنى عن ولى طيب يدعى زعبلاوى قابله عند فضيلتكم ، انى ياسيدى اريده ان كان مايزال على قيد الحياة .

استقر الفتور فى العينين . ولم اكن لادهش لو طردنى انا وذكرى ابى معا ، وقال بلهجة من صمم على انهاء الحديث :

ـ كان ذلك فى الزمان الاول ، وما اكاد اذكره اليوم .. فقمت لاطمئنه الى اعتزامى الذهاب وانا أساله :

ـ اكان وليا حقا ؟

ـ كنا نراه معجزة ..

فسألته وأنا أتحرك لازيد من طمأنينته :

ـ واين يمكن ان اجده اليوم ؟

ـ مدى علمى انه كان يقيم بربع البرجاوى بالأزهر ..

واكب على اوراق على مكتبه بحركة قاطعة بانه لن يفتح فاه مرة اخرى فحنيت رأسى شكرا واعتذرت عن ازعاجه مرات ، وغادرت مكتبه وانا لا اسمع للدنيا صوتا من وش الخجل فى رأسى .

وذهبت الى ربع البرجاوى الذى يقوم فى حى مأهول لحد الاكتظاظ ، فوجدته قد تآكل من القدم حتى لم يبق منه الا واجهة اثرية وحوش استعمل رغم الحراسة الاسمية مزبلة وكان له مدخل مسقوف اتخذه رجل محلا لبيع الكتب القديمة من دينية وصوفية ، وكان قميئا ضئيلا كأنه مقدمة رجل ، فلما سألته عن زعبلاوى نظر الىّ بعينين ملتهبتين ضيقتين وقال باستغراب :

ـ زعبلاوى ! ياسلام ! والله زمان !، كان يقيم فى هذا الربع حقا عندما كان صالحا للاقامة ، وكان يجلس عندى كثيرا فيحدثنى عن الايام الخالية ، واتبرك بنفحاته ، ولكن اين زعبلاوى اليوم ؟

وهز كتفه فى اسى ، وبسرعان ماتركنى لزبون قادم . ورحت اسأل اصحاب الدكاكين المنتشرة فى الحى فاتضح لى ان عددا وافرا منهم لم يسمع عنه ، واخرين تحسروا على ايامه الحلوة وان جهلوا مكانه ، والبعض سخر منه بلا حيطة ونعتوه بالدجل ونصحونى ان اعرض نفسى على دكتور كاننى لم افعل . ولم اجد بدا من العودة الى بيتى يائسا .



ومضت الايام مثل عكارة الجو ، واشتد بى الالم ، فأيقنت بأننى لن اصبر على هذه الحال طويلا ، وعدت اتساءل عن زعبلاوى واتعلق بالامال التى بعثها اسمه القديم فى نفسى ، عند ذاك خطرت لى فكرة وهى ان اقصد شيخ حارة الحى ، والحق انى عجبت كيف لم افكر فى هذا من اول الامر . وكان مكتبه عبارة عن دكان صغير غير ان به مكتبا وتليفونا ، وكان يجلس الى مكتبه مرتديا جاكتة فوق جلباب مقلم ، ولم يقطع دخولى حديثه مع رجل يجلس الى جانبه ، فوقفت انتظر حتى انصرف الرجل ، ثم نظر الىّ ببرود ، فقلت افض مغاليقه بالقواعد المتبعة ، فسرعان ماجرت البشاشة فى وجهه ، ودعانى الى الجلوس وهو يسألنى عن مطلبى ، فقلت :

ـ انى فى حاجة الى الشيخ زعبلاوى ..

فرمقنى بدهشة كما رمقنى السابقون من قبل وابتسم عن اسنان مذهبة وهو يقول :

ـ على اى حال فهو حى لم يمت ، ولكن لا مسكن له وهذا هو الخازوق ، ربما صادفته وانت خارج من هنا على غير ميعاد ، وربما قضيت الايام والشهور بحثا عنه دون جدوى ..

ـ حتى انت لاتستطيع ان تجده !

ـ حتى انا ! انه رجل يحير العقول ، ولكن احمد ربنا على انه مازال حيا ..

ونظر الىّ مليا ثم تمتم :

ـ الظاهر ان حالتك شديدة ..

ـ جدا ..

ـ كان الله فى عونك ، لكن لم لا تستعين بالعقل ؟

ويبسط ورقة على المكتب ومضى يخطط عليها بسرعة ومهارة غير متوقعين حتى رسم للحى خريطة شاملة احياءه وحواريه وازقته وميادينه . نظر اليها باعجاب ثم قال :

ـ هذه مساكن ، وهنا حى العطارين ، وحى النحاسين ، خان الخليلى ، القسم والمطافىء ، الرسم خير مرشد وخد بالك من المقاهى وحلقات الذكر والمساجد والزوايا والباب الاخضر فقد يندس بين الشحاذين فلايميز منهم ، انا فى الواقع لم اره من سنوات وشغلتنى عنه شواغل الدنيا ، وقد اعادنى سؤالك عنه الى أجمل عهود الشباب ..

وجعلت انظر فى الخريطة بحيرة . ودق جرس التليفون فرفع السماعة وهو يقول لى بأريحية :

ـ خذها ، ونحن فى خدمتك ..

غادرته وانا أطوى الخريطة ، ورحت أقطع الحى ، من ميدان الى شارع الى

عطفه ، وأنا أسأل من آنس فيه الماما بالمكان حتى قال لى كواء بلدى :
- اذهب الى حسنين الخطاط بأم الغلام فانه كان صديقه ..
وذهبت الى أم الغلام ، وجدت عم حسنين يعمل فى دكان ضيق عميق الطول ، ملىء باللوحات وحقاق الالوان ، وتنبعث من اركانه رائحة غريبة هى خليط من رائحة الغراء والعطر ، وكان عم حسنين متربعا فوق فروة امام لوحة مسنودة الى الجدار قد نقش فى وسطها باللون الفضى اسم الله . وكان مكبا على زخرفة الحروف بعناية تستحق الاحترام فوقفت وراءه متحرجا من ازعاجه أو قطع فيض الالهام عن يده المنسجمة فى ملكوتها ، وطال انتظارى واشفاقى ، واذا به يتساءل فى لطف بلدى :
- نعم ..
أدركت انه كان على علم بوجودى فعرفته بنفسى وقلت :
- قيل لى ان الشيخ زعبلاوى صديقك وانا ابحث عنه .. كفت يده عن العمل وتفحصنى متعجبا ثم قال بنبرة تنهدية :
- زعبلاوى ! ياسبحان الله !
فتساءلت بلهفة :
- هو صديقك ، أليس كذلك ؟
- كان ياماكان ، الرجل اللغز !، يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ، ويختفى فكأنه ماكان ، لكن لا لوم على الاولياء .
انطفأ الامل كما ينطفىء المصباح بغتة لانقطاع التيار ، وقال الرجل :
- لازمنى عهدا حتى خلت اننى ارسمه فيما ارسم ولكن اين هو اليوم ؟
- لعله مازال حيا ...
- هو حى بلا ريب ، وكان له ذوق لا يعلى عليه ، وبفضله صنعت أجمل لوحاتى .
فقلت بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل :
- يعلم الله اننى فى مسيس الحاجة اليه وانت ادرى بالمتاعب التى يقصد من أجلها !
- نعم .. نعم ، شفاك الله ، والحق انه رجل كما يقال عنه وأكثر .
ثم وهو يبتسم مشرقا :
- وفى وجهه جمال لايمكن ان ينسى ، ولكن اين هو ؟!
واقتلعت قدمى وانا اصافحه ثم ذهبت ، ومضيت اشرق فى الحى واغرب سائلا عنه من آنس فيه طول عمر او خبرة حتى اخبرنى بياع ترمس بانه قابله فى بيت الشيخ الملحن المعروف منذ زمن وجيز . وذهبت الى بيت الموسيقار بالتمبكشية ووجدته فى حجرة بلدية ، انيقة ، تتردد فى جنباتها أنفاس التاريخ ، وكان يجلس

على كنبة وعوده الشهير منطرح الى جانبه منطويا على اجمل انغام عصرنا ، على حين ورد من الداخل صوت هاون ولغط صغار ، وحالما سلمت وقدمت نفسى أشعرنى بحلاوة استقباله وانطلاقه على سجيته باننى فى بيتى . ولم يسألنى عما جاء بى سواء بالكلام او الاشارة ولم اشعر بانه يدارى السؤال او يضمره حتى عجبت للطفه وانسانيته . وقلت مستبشرا خيرا :

- ياشيخ جاد ، انا من عشاق فنك ، طالما طربت له فى افواه المطربات والمطربين .

فقال باسما :

- نشكر ..

فقلت فى حياء :

- لا مؤخذة على ازعاجك . قيل لى ان زعبلاوى صديقك وانا فى أشد الحاجة اليه ..

فقطب فى اهتمام وقال :

- زعبلاوى ! انت فى حاجة اليه ؟ الله معك ، ترى اين انت يازعبلاوى ؟

فتساءلت فى لهفة :

- الا يزورك ؟

- زارنى منذ مدة ، قد يحضر الان ، وقد لا اراه حتى الموت !

فتنهدت بصوت مسموع وتساءلت :

- لم كان كذلك ؟

فتناول العود وهو يضحك وقال :

- هكذا الاولياء والا ماكانوا اولياء !

- ويتعذب عذابى من يريدهم ؟

- هذا العذاب من ضمن العلاج !

وامسك بالريشة وراح يعابث الاوتار فينطقها نغما عذبا فتابعته شارد اللب ثم قلت وكأنى اخاطب نفسى :

- اذن ضاعت زيارتى سدى !

فابتسم وهو يلصق خده بجنب العود ، وقال :

- الله يسامحك ، ايقال هذا عن زيارة عرفتنى بك وعرفتك بى !

فخجلت ايما خجل وقلت معتذرا :

- لاتؤاخذنى ، أخرجنى شعور الخيبة عن حدود الادب ..

- لاتستسلم للخيبة ، هذا الرجل العجيب يتعب كل من يريده ، كان أمره سهلا فى الزمان القديم عندما كان يقيم فى مكان معروف ، اليوم الدنيا تغيرت ، وبعد ان كان يتمتع بمكانة لايحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل ، فلم يعد

الوصول اليه بالشىء اليسير ، ولكن اصبر وثق بأنك ستصل ..

ورفع رأسه عن العود ، وانتظم العزف حتى صار مقدمة موسيقية واضحة ، واذا به يغنى :

أدرك ذكر من أهوى ولو بملامى   فان احاديث الحبيب مدامى

وعلى جمال اللحن والغناء تابعته بقلب غافل مكدود .. ولما فرغ من الاداء قال :

ـ لحنت هذه القصيدة فى ليلة واحدة ، واذكر انها كانت ليلة عيد الفطر . وكان ضيفى طوالها ، وهو الذى اختار لى القصيدة ، وكان يجلس حينا بمجلسك هذا ، وحينا يلاعب اولادى كأنه احدهم ، وكلما غلبنى الفتور او استعصى علىّ الالهام لكمنى مداعبا فى صدرى وضاحكنى فيجيش قلبى بالنغم واواصل العمل حتى اكتمل لى اجمل لحن صنعته ..

فتساءلت فى دهش :

ـ أله فى الطرب ؟

ـ هو الطرب نفسه ، وصوته عند الكلام جميل جدا ، ما ان تسمعه حتى ترغب فى الغناء ، وتهيج اريحية الخلق فى صدرك ..

ـ وكيف يشفى من المتاعب التى يعجز عنها البشر ؟

ـ هذا سره ، ولعلك تظفر به عند اللقاء ..

لكن متى يجىء اللقاء ؟ ولذنا بالصمت فعادت ضوضاء الصغار تملأ الحجرة . ومضى الشيخ فى الغناء مرة اخرى ، وجعل يردد « ولى ذكرها » فى الوان من طبقات النغم ومحاسنه حتى رقصت الجدران من سكرة الطرب . وأعربت عن اعجابى بكل جوارحى فشكرنى بابتسامته العذبة ، ثم قمت مستأذنا فأوصلنى الى الباب الخارجى ، وعندما صافحته قال لى :

ـ سمعت انه يتردد هذه الايام على الحاج ونس الدمنهورى ، ألا تعرفه ؟

فهززت رأسى بالنفى ، وانتفاضة أمل جديد تدب فى قلبى ، فقال :

ـ هو من الوارثين ، ويزور القاهرة من حين لاخر فينزل فى فندق ما ، ولكنه يسهر كل ليلة فى حانة النجمة بشارع الالفى .

وانتظرت الليل ثم ذهبت الى حانة النجمة . سألت نادلا عن الحاج ونس فأشار الى ركن شبه منعزل لموقعه وراء عامود مربع ضخم تقوم باضلعه المرايا فى كل جانب ، وهناك رأيت رجلا يجلس الى مائدة وحيدا ، وأمامه فوق المائدة زجاجة فارغة الى ثلثها ، وأخرى فارغة تماما ، وعدا ذلك لايوجد شىء من مزة أو طعام فأيقنت أننى حيال سكير خطير . وكان يرتدى جلبابا فضفاضا حريريا وعمامة مقلوظة ، ويمد ساقيه حتى أصل العامود ناظرا الى المرآة فى ارتياح وانسجام وقد توردت صفحة وجهه المستدير الوسيم ـ رغم دنوه من الشيخوخة ـ بحمرة

الخمر اقتربت منه فى خفة حتى توقفت على مبعدة ذراعين من مجلسه ولكنه لم يلتفت نحوى ولم يبد عليه انه شعر بوجودى ، فقلت برقة متوددة :

ـ مساء الخير ياسيد ونس ..

فالتفت نحوى بشدة كأنما أيقظه صوتى من سبات ، وحدجنى بنظرة انكار فقدمت اليه شخصى معتذرا عن ازعاجه وهممت بتوضيح السبب الذى جاء بى اليه لكنه قاطعنى قائلا بلهجة شبه آمرة وان لم تخل من لطف عجيب :

ـ تفضل بالجلوس اولا ، واسكر ثانيا !

ففتحت فمى لاعتذر لكنه وضع اصبعيه فى أذنيه وقال :

ـ ولا كلمة حتى تفعل ماقلت ..

ادركت اننى حيال سكران ذى نزوات فقلت اسايره حتى منتصف الطريق فجلست وابتسمت وقلت :

ـ ارجو ان تسمح لى بسؤال واحد ..

لم يرفع أصبعيه من أذنيه ، وأشار الى الزجاجة وقال :

ـ فى مجلس كمجلسى هذا لا أسمح بأن يتصل بينى وبين أحد كلام ان لم يكن سكران مثلى ، والا خلا المجلس من اللياقة وتعذر فيه التفاهم ..

افهمته بالاشارة اننى لا اشرب فقال بقلة اكتراث :

ـ هذا شأنك ، وهذا شرطى !

وملأ لى كوبه ، فتناولته فى رضوخ وشربته ، وما ان استقر فى جوفى حتى اشتعل ، فصبرت عليه حتى ألفت عنفه وقلت :

ـ انه لشديد ، وأظن أن لى أن أسألك عن ..

لكنه اعاد أصبعيه الى أذنيه وقال :

ـ لن أصغى لك حتى تسكر ..

وملأ الثانى فنظرت اليه مترددا ، ثم تغلبت على احتجاجى الباطنى وشربته دفعة واحدة ، وما أن استقر فى موضعه حتى فقدت ارادتى . وعلى أثر الثالث ضاعت ذاكرتى ، وعقب الرابع اختفى المستقبل ، ودار بى كل شىء ، ونسيت ماجئت من أجله أقبل على الرجل مصغيا ولكنى رأيته محض مساحات لونية لا معنى لها ، وهكذا كل شىء بدا . ومر وقت لم أدره حتى مال رأسى الى مسند الكرسى وغبت فى نوم عميق ، وفى أثناء نومى حلمت حلما جميلا لم أحلم بمثله من قبل . حلمت بأننى فى حديقة لا حدود لها ، تنتشر فى جنباتها الأشجار بوفرة سخية فلا ترى السماء الا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة ويكتنفها جو كالغروب أو كالغيم . وكنت مستلقيا فوق هضبة من الياسمين المتساقط كالرذاذ ، ورشاش نافورة صاف ينهل على رأسى وجبينى دون انقطاع . وكنت فى غاية من الارتياح والطرب والهناء ، وجوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف فى أذنى ،

وثمة توافق عجيب بينى وبين نفسى ، وبيننا وبين الدنيا فكل شىء حيث ينبغى ان يكون بلا تنافر أو اساءة أو شذوذ ، وليس فى الدنيا كلها داع واحد للكلام أو الحركة ، ونشوة طرب يضج بها الكون . ولم يدم ذلك الا فترة قصيرة فتحت بعدها عينى . أخذ الوعى يلطمنى كقبضة شرطى ، ورأيت ونس الدمنهورى ينظر الى باشفاق ، ولم يكن بقى فى الحانة الا بضعة أشخاص كالنيام وقال الرجل :

ـ نمت نوما عميقا ، لاشك أنك جائع نوم ..فأسندت رأسى الثقيل الى راحتى ولكننى رددتها فى دهشة ونظرت فيها فرأيتها تلمع ماء ، وقلت محتجا :

ـ رأسى مبتل !

فقال بهدوء :

ـ نعم ، حاول صاحبى أن ينبهك ..

ـ أرآنى أحد على هذه الحال ؟

ـ لا تغتم ، انه رجل طيب ، ألم تسمع عن الشيخ زعبلاوى ؟

فانتفضت قائما وأنا أهتف :

ـ زعبلاوى !

فقال بدهشة :

ـ نعم ، مالك ؟

ـ اين هو ؟

ـ لا ادرى اين هو الان ، كان هنا ثم ذهب ..

هممت بالجرى ولكن اعيائى كان فوق ماقدرت فما لبثت أن تهاويت فوق الكرسى ، وصحت بيأس :

ـ ماجئتك الا لالقاه ، ساعدنى على اللحاق به او ارسل احدا فى طلبه ..

فدعا الرجل بائع جنبرى وأمره بالبحث عن الشيخ واحضاره ، ثم التفت الىّ قائلا :

ـ لم اكن ادرى انك مصاب ، آسف جدا ..

فقلت بغيظ :

ـ لم تدعنى اتكلم ..

ـ ياخسارة ! كان يجلس على هذا الكرسى الى جانبك وكان يتغزل طيلة الوقت بعقد من الياسمين حول عنقه اهداه اليه احد المحبين ، ثم عطف عليك فراح يبلل رأسك بالماء لعلك تفيق ..

فسألته وعيناى لا تفارقان الباب الذى ذهب منه بائع الجنبرى :

ـ هل يقابلك هنا كل ليلة ؟

ـ كان معى الليلة ، وليلة امس ، واول امس ، ولم اكن رأيته منذ شهر ..!

فقلت وأنا أتنهد :
ـ لعله يأتى غدا ..
ـ لعله ..
ـ أنا على استعداد لأعطيه مايريد من نقود ..
فقال ونس باشفاق :
ـ العجيب انه لاتغريه المغريات ولكنه يشفيك اذا قابلته ..
ـ بلا مقابل ؟
ـ بمجرد ان يشعر بانك تحبه ..
وعاد بائع الجنبرى بالخيبة ، وكنت قد استعدت بعض نشاطى فغادرت الحانة وانا اترنح . وعند كل منعطف ناديت « يازعبلاوى » لعل وعسى ، ولكن لم يفدنى النداء ، ولفت الى غلمان السبيل فتطلعوا نحوى باعين هازئة حتى لذت بأول عربة صادفتنى ..
وساهرت ونس الدمنهورى الليلة التالية حتى الفجر ولكن الشيخ لم يحضر . واخبرني ونس بانه سيسافر الى البلد وبانه لن يعود الى القاهرة حتى يبيع القطن . وقلت علىّ ان انتظر وان اروض نفسى على الصبر ، وحسبى أنى تاكدت من وجود زعبلاوى ، بل ومن عطفه علىّ مما يبشر باستعداده لمداواتى اذا تم اللقاء . ولكننى كنت اضيق احيانا بطول الانتظار فيساورنى اليأس ، واحاول اقناع نفسى بصرف النظر نهائيا عن التفكير فيه . كم من متعبين فى هذه الحياة لايعرفونه او يعتبرونه خرافة منَ الخرافات فلم اعذب النفس به على هذا النحو ؟
ولكن ما ان تلح علىّ الالام حتى اعود الى التفكير فيه وانا اتساءل متى أفوز باللقاء . ولم يثننى عن موقفى انقطاع اخبار ونس عنى وما قيل عن سفره الى الخارج للاقامة ، فالحق أننى اقتنعت تماما بان على ان اجد زعبلاوى ..
نعم ، على ان اجد زعبلاوى ..

القهوة الخالية

قال محمد الرشيدى بنبرة ارعشها الحزن والانفعال :

ـ إلى رحمة الله الرحيم ، إلى جوار ربك الكريم يا زاهية يارفيقة عمرى . إلى رحمة الله .

وانتحب باكيا وهو ينحنى فوق الجثة المسجاة على الفراش ، معتمدا بيمناه على الوسادة من شدة الاعياء ، حتى رحمته الخادم العجوز فربتت على يده برقة ثم أخذته منها إلى حجرة الجلوس فأسلم نفسه إلى مقعد كبير وهو يتنهد بصوت مسموع .. ومد ساقيه وهو يتأوه ثم غمغم :

ـ أنا الآن وحدى بلا رفيق . لم تركتنى يا زاهية ؟

وبعد عشرة أربعين عاما : لم سبقتنى يا زاهية ؟

وعزته الخادم بعبارات محفوظة غير ان منظر شيخ فى التسعين وهو يبكى منظر محزن حقا ، وقد التمعت أخاديد خديه وحفر أنفه بالدموع فغادرت الخادم الحجرة وهى تجهش فى البكاء . وأغمض عينيه اللتين لم يبق فى اشفارهما إلا آحاد من الرموش وراح يقول :

ـ منذ أربعين عاما تزوجتك وأنت فى العشرين ، ربيتك على يدى ، وكنا سعداء جدا برغم فارق العمر ، وكنت خير رفيق ، ياطيبة يا إنسانة ، فإلى رحمة الله ..

وكان ذا صحة جيدة اذا قيس بعمره ، طويلا نحيلا ، واختفى أديم وجهه تماما تحت التجاعيد والاخاديد ، وبرزت عظامه وتحددت كأنها جمجمة . وفى عينيه غارت نظرة تحت غشاوة باهتة لا تنعكس عليها مرئيات هذا العالم . وأم الجنازة خلق كثيرون لم يكن فيهم واحد من أصحابه أو معارفه . جاءوا يعزون ابنه أو اكراما لزوج ابنته الموظف باحدى السفارات فى الخارج أما هو فلم يبق من أصحابه على قيد الحياة أحد . وجعل يستقبل الوجوه التى لايعرفها ويتساءل أين رعيل المربين الأول . أين الساسة الحقيقيون على عهد مصطفى وفريد ؟!

وعندما انفض المأتم حوالى منتصف الليل سأله ابنه صابر :

ـ ماذا نويت ان تفعل يا ابى ؟

وقالت له زوجة ابنه :

ـ ولا يجوز ان تبقى هنا وحدك ..

ادرك الشيخ ما يقصدان فتشكى قائلا :

ـ كانت زاهية كل شىء لى ، كانت عقلى ويدى ..

فقال صابر :

بيتى هو بيتك وستحل بحلولك بنا البركة ، وستجيء خادمتك مباركة لخدمتك .

أجل لا يمكن ان يقيم فى هذا المسكن وحده . ورغم ما يبدى ابنه وزوجته من شعور طيب فهو يؤمن بأنه ـ بانتقاله ـ سيفقد الكثير من حريته وسيادته ولكن ما الحيله ؟ !

وكان فى شبابه ورجولته وكهولته شخصا صلبا ، ومازال يحتفظ بوقاره ومهابته ، وكم خرج من أجيال من المربين والشخصيات الفذة ، ولكن ما الحيلة ؟ ! وبطرف واجم شهد الرجل تصفية مسكنه . رأى أركانه وهى تتقوض كما رأى احتضار زوجته من قبل فلم يبقوا الا على ملابسه وفراشه وصوان كتبه التى لم يعد يمد لها يدا وبعض التحف وصور لاعضاء الأسرة ولبعض الرجال كمصطفى كامل ومحمد فريد والمويلحى وحافظ ابراهيم وعبد الحى حلمى . وغادر بيته إلى مصر الجديدة فى سيارة ابنه ، وهنالك أعدت حجرة لنومه وتأهبت مباركة العجوز لخدمته . وقال له ابنه :

ـ نحن جميعا رهن اشارتك ..

وابتسمت منيرة زوجة صابر ابتسامة ترحاب . روح طيبة حقا ولكنه لا بيت له ، ذلك كان الشعور الذى اجتاحه . وجلس على مقعده الكبير يبادلها النظرات فيما يشبه الحياء . وقال لنفسه لعله لو كانت سميرة ابنته فى مصر لوجد فى بيتها انسا الصق بالقلب . وظهر توتو عند عتبة الباب . ردد عينيه بين ابويه ثم جرى حتى لبد بين ساقى والده . ونظر إلى جده بتأمل فابتسم الشيخ قائلا :

ـ أهلا توتو .. تعال ..

ونادرا ما كان توتو يزور جده مع والده .. وأحبه الشيخ كثيرا ولم يقتصد فى مداعبته كلما وسعه ذلك ولكن توتو كان حادا فى مداعباته ، فهو يحب الوثب على من يداعبه ويهدد عينيه وانفه بأظافره فسرعان ما تجنبه الشيخ بلطف مؤثرا ان يحبه من بعيد . وأشار توتو إلى طربوش جده الطويل وقال :

ـ راسك !

يعنى ان يخلع طربوشه ليرى صلعته البرتقالية المستطيلة المنحدرة التى جذبت انتباهه وتساؤله من اول نظرة ، ولما لم تتحقق رغبته راح يشير إلى اخاديد الوجه وحفر الأنف وتتابعت أسئلته رغم محاولات والده لاسكاته . وقال الشيخ لنفسه ان الطفل العزيز لن يعتقه من المتاعب وانه سيحتاج إلى حماية ولكن أين زاهية ؟ . وساعته ومنشته وسجائره كيف يحفظها من عبثه ؟ .. وحاول توتو ان يذهب إلى جده ليحقق رغائبه بنفسه ولكن والده أمسك به ودعا خادمته فحملته إلى الخارج وهو يصرخ محتجا . وقال صابر :

ـ إنى افرغ من عملى مساء ثم أذهب إلى النادى انا ومنيرة فهل تأتى معنا ؟

فقال الشيخ :

ـ لا تشغل نفسك بى ودع الأمور تجرى على طبيعتها ..

وذهب صابر ومنيرة فرحب بالوحدة ليستجم ، ولكن الوحدة ثقلت عليه بأسرع مما تصور .. وألقى نظرة غير مكترثة على الحجرة ثم طوقته الوحشة . متى يعتاد المكان الجديد ومتى يعتاد الحياة بلا زاهية ؟ . أربعون عاما لم تخل يوما من زاهية . منذ زفت إليه فى الحلمية ورقصت امامهما الصرافية . والبيت بفضل يدها ينعم بنظام ونظافة وعبير بخور زكى . وماقيمة رمضان والأعياد بدونها ؟ . وخلت الجنازة من أجيال وأجيال من تلاميذه فهل لم يعد يذكره أحد ؟ !

ولم يكن كذلك حال الاصدقاء الذين ذهبوا . ولكنهم ذهبوا وكأنما يراهم فردا فردا كيوم احتشدت بهم جنازة مصطفى كامل . ورغم أنه لم يعرف الأمراض الخطيرة قط فقد امتحنت المسكينة بالدنج والتيفود والانفلونزا واخيرا ماتت بالقلب ، وتركته متعلقا بالحياة كما كان دائما . وقام إلى نافذة فرأى بستانا كبيرا يتوسط مربعا من العمارات مكان الجامع الكبير الذى كان يطالعه من نافذة حجرته بالمنيرة . ولفحته نسمة هواء جافة دافئة . وعجب للصمت المريح ولكنه اكد له وحدته . ويوم احتل الانجليز القاهرة ظفر بجواد ضال ولكن والده خشى العاقبة فضربه ومضى بالجواد ليلا إلى الخليج ثم اطلقه وكانت المدينة ترتجف من الخوف والحزن . ورجع إلى مجلسه فرأى عند أسفل المقعد قطة صغيرة . بيضاء ناصعة البياض غزيرة الشعر وفى جبينها خصلة سوداء فآنس فى نظرة عينيها الرماديتين استعدادا للتفاهم . وزاهية طالما عطفت على القطط . وارتاح إلى نظرتها ثم تابعها وهى تدور حول رجل المقعد وربت على ظهرها فتمسحت بقدمه وعند ذاك ابتسم . ومسح على ظهرها فاستجابت لراحته وخفق ظهرها صعودا وهبوطا فبشر ذلك بمودة . وابتسم مرة أخرى عن أنياب بانت اصولها الطحلبية وشملت القطة حركة متموجة من المرح . وتزحزح قليلا إلى اليسار ليوسع لها مكانا ولكن صوت توتو المتهدج بالجرى ارتفع وهو يقتحم الحجرة صائحا :

ـ قطتى ..

فقال الشيخ مسلما :

ـ ها هى قطتك ..

وسأله متوددا عن اسمها فقال بحدة :

ـ نرجس .

وقبض بشدة على قفاها ثم جرى بها خارجا والشيخ يهتف به مستعطفا :

ـ حاسب .. حاسب ..

واذا به قد ذهل ! . عجب ماذا حصل ؟ . وتبين أن شيئا أصاب جبينه . وقطب

مستاء فارتفعت ضحكة توتو عند الباب وهو يلتقط الكرة الصغيرةالمرتدة . وتحسس الشيخ النظارة ليطمئن عليها ثم نادى مباركة فجاءت بسرعة وحملت الطفل مبتعدة به قبل ان يعيد رمى الكرة . وقال الشيخ :

ـ هذا الطفل العزيز مزعج وقاس ، من للقطة المسكينة !

منذ خمس سنوات فقدت سميرة ابنته طفلا فى سن توتو فعزاها باكيا وهو يقول :

ـ كان الاجدر أن أموت انا ..

وخيل إليه وهو فى المأتم ان الاعين ترمق شيخوخته بدهشة مستحضرة التناقض الصارخ بين بقائه هو وذهاب حفيده فى الثالثة ، وليلتها قال لزاهية ممتعضا :

ـ طول العمر لعنة ..

ولكن ما أرقها اذ قلت له «كلنا فداك .. انت الخير والبركة» .

وعند الأصيل عاد صابر من عمله فقال لأبيه :

ـ ما دمت لا تريد ان تذهب معنا إلى النادى فاختر مقهى فى مصر الجديدة ، مقاهى مدينتنا جميلة وقريبة من البيت ..

قد يكون هذا هو المعقول ولكنه يحب قهوة متاتيا . انها مجلسه المختار طيلة دهر طويل . ومضى إلى محطة الاوتوبيس ، وهو يسير اذا سار وئيدا ولكن بقامة مرتفعة ويستعمل العصا ولكنه لا يتوكأ عليها ، وكثيرون هم الذين يتطلعون إليه فى دهشة مقرونة باعجاب . واتخذ مجلسه بالقهوة تحت البواكى وهو يقول لنفسه فيما يشبه المداعبة «ما بال القهوة خالية» . ولم تكن القهوة خالية . ولا كان بها من الترابيزات الخالية الا عدد محدود . ولكنها خلت من الاصحاب والمعارف . ومن عاداته ان يرنو إلى الكراسى التى حملت قديما الأعزاء الراحلين فيتخيل وجوههم وحركاتهم . والمناقشات حول اخبار المقطم ، ومباريات النرد الحامية والسياسة . قضى الله ان يشيعهم واحدا بعد آخر وان يبكيهم جميعا . وجاء زمن لم يجد فيه من رفيق سوى واحد هو على باشا مهران . وهذا الكرسى كان مجلسه . يجلس عليه قصيرا نحيلا مكوما فوق عصاه وحافة طربوشه تماس حاجبيه الاشيبين النافرين ، ويرمقه بنظرة هشة شبه دامعة من نظارة كحلية ثم يتساءل :

ـ من منا يا ترى سيسبق صاحبه ؟

ثم يغرق فى الضحك ، وكانت يداه قد استوطنتهما رعشة الكبر رغم انه كان يصغره بعامين . ولما مات فى الخامسة والثمانين حزن عليه طويلا . ومن بعده خلت الدنيا وخلت القهوة . وها هى العتبة الخضراء تدور كعادتها أمام عينيه الكليلتين ولكنها ميدان جديد . ومتاتيا نفسها لم يبق من أصلها الا الموضع ولكن

أين صاحبها الرومي الودود ، وأين النادل ذو الشوارب البلقانية ؟ . والكراسى المتينة البنيان والترابيزات الرخامية الناصعة والمرايا المصقولة والبوفيه العامر بالمشروبات والنراجيل أين ؟ . وفى ليلة شم النسيم من عام ١٩٣٠ أحيل إلى المعاش . وسهر ليلتها فى مسرح الأزبكية هو ومجموعة من الأصدقاء حيث جلجل صوت الطرب . أما النهار فقد قضوه في القناطر الخيرية محتفلين بوداعه وألقى الشيخ إبراهيم زناتى قصيدة . وليلتها شرب من الكونياك حتى ثمل وهو يطرب للصوت المنشد «ياعشرة الماضى الجميل» ولما نام آخر الليل حلم بأنه يلعب فى الجنة . ودعا له إبراهيم زناتى مفتش اللغة العربية بمائة عام من العمر المديد فى قصيدته . والدعوة يبدو انها ستستجاب ، ولكن القهوة خالية . والشيخ زناتى نفسه رحل وهو ما يزال فى الخدمة . واقترب النادل منه ليأخذ الصينية ولكنه تراجع كالمعتذر فذكره بفنجال القهوة المنسى الذى لم يمسه .

وعندما رجع إلى البيت وجده راقدا فى السكون وصاحبه لم يعد لمن النادى . ووجد عشاءه من الزبادى على خوان . وغير ملابسه فى بطء وجهد ودون معاونة احد . وجلس لتناول العشاء فتذكر نرجس . لو تشاركه القطة الصغيرة عشاءه ؟ ! ما ألطف ان يوثق علاقته بها فهى ستكون انيسه الحقيقى فى هذا البيت المشغول بنفسه . لعلها فى موضع ما بالصالة . ومال نحو الباب قليلا وهتف : «بس .. بس» .. وقام فمضى إلى الخارج وصاح : «نرجس»

بس ..بس .. فجاء النواء من وراء الباب التالى لحجرته حيث ينام توتو وخادمته . وتفكر قليلا ثم اقترب من الباب ففتحه برفق فمرت منه نرجس رافعة ذيلها الدسم كالعلم .

ارتاح الشيخ فعاد نحو حجرته وهى تتبعه ولكن صرخة توتو دوت غاضبة ، وقال الشيخ لنفسه باسما ان الصغير لم يكن استغرق فى النوم . وجاء توتو جريا فانقض على القطة ثم قبض على قفاها بشدة . وربت جده على رأسه قائلا برقة :

- خفف يدك يا توتو ..

ولكن الآخر ضاعف ضغطه حتى خيل إلى الشيخ ان نرجس ستختنق فقال برجاء :

- اذهب أنت وسأحملها إلى فراشك ..

ولكن توتو لم يسمع له فمال الشيخ نحوه وخلصها من يده وهو يقول :

- سأطعمها ثم اعيدها اليك ..

اندفع توتو غاضبا ثم دفع جده فى ركبته . ترنح الشيخ ، ثم تراجع خطوة مضطربة ثم تهاوى فكاد يسقط على الأرض لولا ان تلقاه الجدار ، والقطة لم تزل فوق ساعده . ولبث فى هذا الوضع المائل . لم يستطع ان يقيم نفسه . ودار رأسه قليلا ، وضغط على الأرض بقدمه وعلى الجدار بكتفه لينهض ولكنه عجز ، وزحفت

القطة فوق ساعده حتى استقرت على كتفه المرتفع ، ورغم دوار رأسه الخفيف ادرك مدى الخطر الذى يتهدد عظامه بالكسر . وصاح بما تبقى لديه من قوة «يا مباركة» وكان توتو يصرخ وينذر توثبه بهجمة جديدة . ويئس الشيخ من انقاذ نفسه . ازداد خورا ولم يستطع تكرير النداء . وتحفز توتو للوثوب إلى ملاذ القطة فاندفع بكل قوته ولكن يد خادمته أحاطت بوسطه وقد اندفعت من الحجرة بعينين ذاهلتين من اثر النوم . ثم جاءت مباركة اخيرا بعد ان ايقظها الزياط فجرت نحو سيدها مستعيذة بالله .

واحتضنته من خلف واقامته برفق وهو يتأوه حتى وقف كالتمثال دون حراك على حين وثبت نرجس إلى الأرض وفرت إلى حجرته وبصعوبة شديدة رجع الشيخ إلى مقعده الكبير معتمدا على ذراع مباركة . ومضت فترة وهو صامت والمرأة لا تكف عن السؤال عن صحته . وأشار إليها بيده يطمئنها ثم اسند رأسه إلى ظهر الكرسى ومد ساقيه متنهدا . وأغمض عينيه ليستجم .

وفى الحال تذكر حفلة تأبين راسخة فى الروح . رجع من المنصة بعد أن ألقى كلمة طيبة ثم جلس إلى جانب صديقه ، ومال الصديق نحوه وسكب فى اذنه ثناء جميلا . لكن من كان ذلك الصديق ؟ آه .. إنه واثق من أنه سيتذكره ، وكم أنه مذهل انه نسيه . قال كلمة لا يمكن ان تنسى كذلك . سوف يتذكرها حتما . ودوى التصفيق والهتاف . وارتفع نواء القطط ، وبكت كل عين حتى ألأطفال ترامى صراخها . ومال الصديق نحوه مرة أخرى وقال . وتأكد من أنه سيظفر بالذكريات جميعا .

وسرعان ما استغرق فى النوم ..

خمارة القط الأسود

كانوا يرددون اغنية جماعية عندما ظهر فى الباب رجل غريب لم يكن بقى فى الخمارة كرسى واحد خاليا . وهى ـ الخمارة ـ عبارة عن حجرة مربعة تقوم فى اسفل عمارة عتيقة بالية . تضاء نهارا وليلا لقتامة جوها المدفون . وتطل على حارة خلفية بنافذة وحيدة من خلال قضبان حديدية . طليت جدرانها بلون أزرق فاتح يرشح رطوبة فى مواضع شتى على هيئة بقع غامقة . ويفتح بابها على ممشى ضيق طويل يمتد حتى الشارع ، وعلى جانب منه تصطف براميل النبيذ الجهنمى . زبائنها أسرة واحدة تتوزع فروعها على الموائد الخشبية العارية ، منهم من يرتبطون بأسباب الصداقة او الزمالة ، وجميعهم يتآخون بوحدة المكان والمعاشرة الروحية ليلة بعد أخرى ، ويجمعهم جامع السمر والنبيذ الجهنمى .

كانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر فى الباب رجل غريب .

ليس بالنادر ان يتلقى أحدهم هذا السؤال :

ـ لماذا تفضل خمارة القط الاسود ؟

النجمة اسمها الحقيقى ، ولكنها تسمى اصطلاحا بخمارة القط الاسود ، نسبة لقطها الاسود الضخم ، معشوق صاحبها الرومى الاعجف المدبب وصديق الزبائن وتعويذتهم .

ـ افضل خمارة القط الاسود لجوها العائلى الحميم ، ولانك بقرش أو بقرشين تستطيع ان تحلق بلا أجنحة ..

يتنقل القط الاسود من مائدة الى مائدة ، وراء الباب الخبز وفتات الطعمية والسمك ، يتلكأ عند الاقدام ويتمسح بالسيقان بدلال من بطرته النعمة ، وصاحبه الرومى يعتمد الطاولة بمرفقيه رانيا للاشىء بنظرة ميتة ، اما الجرسون العجوز فيدور بالنبيذ او يملأ الاكواب الصغيرة المضلعة من صنابير البراميل .

ـ وهى أرحم خمارة بذوى الدخول الثابتة ..

وتتبادل الملح والنوادر وتتوادد النفوس ببث الشكايات ، ويترنم صاحب الصوت السالك باغنية ، فيطفح المكان المدفون الرطب بالسعادة .

ـ لا باس من ان تنسى ساعة من الزمان كثرة العيال وقلة المال .

ـ وان ننسى الحر والذباب ..

ـ وننسى انه يوجد عالم خارج القضبان ..

ـ وان ننعم بملاطفة القط الاسود

فى ساعات اللقاء تصفو نفوسهم ، تفيض بالحب لكل شىء ، يتحررون من

التعصب والخوف ، ويتطهرون من أشباح المرض والكبر والموت ، يتصورون فى صورة منشودة ، يسبقون الزمن بقرون كاملة .

وكانوا يرددون أغنية جماعية عندما ظهر فى الباب رجل غريب .

نظر الرجل الغريب فى ارجاء المكان فلم يجد مائدة خالية ، اختفى عن الأنظار فى الممشى حتى ظنوا انه ذهب الى الابد ، ولكنه رجع حاملا كرسيا من القش المجدول ــ كرسى الخواجة الرومى نفسه ــ ثم وضعه لصق الباب الضيق وجلس .

جاء متجهما وعاد متجهما . لم ينظر نحو احد ، تجلت فى عينيه نظرة حادة صارمة ولكنها غائبة ، لائذة بعالم بعيد مجهول ، لاترى أحدا ممن يملئون المكان الصغير منظره فى جملته قاتم وقوى ومخيف كانه مصارع او ملاكم او رافع اثقال . وملابسه متوافقة تماما مع قتامته ، ومؤكدة لها بالبلوفر الاسود والبنطلون الرمادى الغامق والحذاء المطاط البنى . لم يشرق فى ذاك البناء المظلم الا صلعة مربعة توجت رأسا كبيرا صلبا .

أطلق حضوره غير المنتظر شحنة كهربائية نفذت الي اعماق الجالسين . سكت الغناء ، انقبضت الاسارير ، خمد الضحك ترددت الابصار بين التحديق فيه وبين استراق النظر اليه ، ولكن ذلك لم يدم طويلا : افاقوا من صدمة المفاجأة وهول المنظر . ابوا ان يسمحوا للغريب بافساد سهرتهم . وتداعوا باشارات فيما بينهم للاعراض عنه واستئناف لهوهم . عادوا من جديد الى السمر والمزاح والشراب ، ولكنه فى الحقيقة لم يغب عن وعيهم ، لم ينجحوا فى تجاهله تماما ، وظل يثقل على أرواحهم كالضرس الملتهب . وصفق الرجل بقوة مزعجة فجاءه الجرسون العجوز وحمل اليه النبيذ الجهنمى ، وسرعان ما افرغه فى جوفه ، والحق به اخر ، ثم امر باربعة أكواب دفعة واحدة وراح يشرب كوبا فى اثر كوب حتى اتى عليها ، ثم جدد الطلب . عاودهم الاحساس بالرهبة والخوف ، ماتت الضحكات على شفاههم ، تراجعوا الى الصمت والوجوم . اى رجل هذا ! ان ماشربه من النبيذ الجهنمى يكفى لقتل فيل ، وها هو يجلس كالحجر الصلد ، لا يتأثر ولا ينفعل ، ولا تنبسط له اسارير أى رجل هذا !

واقترب القط الاسود مستطلعا ، انتظر ان يرمى له بشىء ، ولما لم يشعر له بوجود مضى يتمسح بساقه ، ولكنه ضرب الارض بقدمه فتقهقر القط ، متعجبا ولا شك لهذه المعاملة التى لم يعامل بها من قبل . وحول الرومى رأسه نحو الحجرة بوجهه الميت ، رمق الغريب مليا ، ثم عاد ينظر الى لاشىء . وخرج الغريب عن جموده . حرك رأسه بعنف يمنة ويسرة . عض على أسنانه جعل يتحدث بصوت غير مسموع مع نفسه أو مع شخص فى مخيلته . تهدد وتوعد وهو يحرك قبضته . استقرت فى صفحة وجهه اقبح صورة للغضب . استفحل الصمت والخوف .



وسمع صوته لاول مرة ، صوت غليظ كالخوار ، تردد بقوة وهو يقول :
ـ اللعنة .. الويل ..
وكور قبضته وتابع :
ـ لبأت الجبل .. وماوراء الجبل ..
وصمت مليا ثم عاد يقول بصوت انخفض درجة :
ـ هذه هى المسألة بكل بساطة وصراحة ..
اقتنعوا بانه لم يعد للبقاء من معنى . قضى على السهرة بالفشل ولما تكد تبدأ . فليذهبوا فى سلام . تم التفاهم فيما بينهم بالنظرات ثم تفشت فيهم حركة تأهب وقيام . عند ذاك تنبه اليهم لاول مرة . خرج من غيبوبته . نقل عينيه بينهم فى تساؤل . أوقفهم باشارة وهو يسأل :
ـ من أنتم ؟
ياله من سؤال جدير بالتجاهل والاحتقار ولكن احدا لم يفكر فى تجاهله او احتقاره واجاب احدهم متشجعا بكهولته :
ـ نحن زبائن المحل من قديم ..
ـ متى جئتم ؟
ـ جئنا مع المساء ..
ـ اذن كنتم هنا قبل حضورى ؟
ـ نعم ..
اشار اليهم ان يعودوا الى مجالسهم ، ثم قال بحزم صارم :
ـ لن يغادر المكان احد ..
لم يصدقوا اذانهم . عقدت الدهشة ألسنتهم . ولكن احدا لم يجرؤ على الرد عليه بما يستحق . وقال الكهل بهدوء مناقض تماما لمشاعره :
ـ ولكننا نريد ان نذهب ..
فرماهم بنظرة وعيد كالحجر وقال :
ـ ليتقدم المفرط فى عمره !
لم يوجد بينهم من يفرط فى عمره . تبادلوا نظرات ذاهلة حائرة . وتساءل الكهل :
ـ ولكن ماوجه اعتراضك على ذهابنا ؟
هز رأسه بقسوة ساخرة وقال :
ـ لا تحاولوا خداعى ، لقد سمعتم كل شىء ..
قال الكهل بعجب :
ـ اؤكد لك اننا لم نسمع شيئا ..
فصاح بغضب :

ـ لا تحاولوا خداعى ، لقد عرفتم الحكاية !
ـ لم نسمع شيئا ولم نعرف شيئا !
ـ كذابون مخادعون !
ـ يجب ان تصدقنا ..
ـ اصدق سكيرين معربدين ؟!
ـ انك تسب اناسا ابرياء وتهدر كرامتهم !
ليتقدم منكم المفرط فى عمره .
وضح لهم ان الموقف لا يعالج الا بالقوة ، وانه لا قوة لديهم . واضطروا تحت تأثير نظرته المخيفة الى الجلوس رجعوا الى مقاعدهم بغضب مكتوم ومهانة لم يجربوها من قبل وسأله الكهل :
ـ وحتى متى نبقى هنا ؟
ـ حتى يجىء الوقت المناسب
ـ ومتى يجىء الوقت المناسب ؟
ـ اقطع لسانك وانتظر
مضى الوقت فى توتر وألم . اجتاحهم الكدر والنكد فطارت الخمر من رءوسهم . وحتى القط الاسود استشعر فى الجو رائحة معادية فوثب الى حافة النافذة الوحيدة ، ثم رقد عاقدا ذراعيه تحت رأسه وأغمض عينيه طارحا ذيله بين القضبان . والحت عليهم اسئلة واحدة ، من الرجل ، أهو سكران ؟ أهو مجنون ؟ وما الحكاية التى يتهمهم بسماعها ؟ وطيلة الوقت ظل الخمار الرومى ملازما لصمته الميت على حين قام الجرسون بخدمته كأنما هو لايرى ولا يسمع .
وجعل الرجل الغريب ينظر اليهم بسخرية وشماته ، ثم قال متوعدا .
ـ ان يقدم احدكم على غدر فسأعاقبكم جميعا بلا رحمة .. تشجعوا بمعاودته الخطاب ـ على الكلام فقال الكهل بصدق :
ـ اقسم لك ، نقسم لك جميعا ..
ولكنه قاطعه متسائلا :
ـ بم تقسم إن طالبتك بقسم ؟
دب أمل طفيف فى النفوس وقال الكهل بحرارة :
ـ بما تشاء بأولادنا ، بالله العظيم !
ـ لا قيمة لشىء عند زبائن خمارة حقيرة كهذه الخمارة
ـ لسنا كما تظن ، نحن آباء صادقون ومؤمنون مخلصون ولايمنع ذلك ، او لعله بسبب ذلك تشتد حاجتنا الى الترويح عن النفس المثقلة ..
فصاح بصوت مدو :
ـ أوغاد انذال ، تحلمون ببناء القصور بلا جهد ولكن بالاستغلال الدنىء

للحكاية !

ـ نقسم لك بالله العظيم باننا ما علمنا بالحكاية ولا فكرة لنا عنها ..

ـ من منكم بلا حكاية ياجبناء ؟

ـ انك لم تتكلم ، كانت شفتاك تتحركان ولكن لم يصدر عنهما صوت !

ـ لا تحاول خداعى يامخرف ..

ـ يجب ان تصدقنا وتتركنا لحالنا ..

ـ الويل لكم اذا تحركتم ، والويل لكم اذا غدرتم ، واذا وقعت الواقعة فسوف اهشم رءوسكم واقيم منها متاريس اسد بها الممشى .

الرجل مخيف حقا ، ولعله خائف ايضا ، وسيضاعف ذلك من سوء المصير .. وزحف اليأس الى القلوب كموجة من البرد المميت . ولم يكف عن الشراب ، رغم انه لايسكر ولا يفتر ولا يهمد . وهاهو يعترض المنفذ الوحيد للمكان ، قويا عنيفا فولاذى المبنى مثل قضبان النافذة .

راحوا يتبادلون النظرات بلا أمل ، وكلما لمحوا شبح ما وراء القضبان هفت أنفسهم اليه ولكن دون أن تند عنهم حركة ما ، وحتى القط الاسود بدا أنه هجرهم تماما ومضى ينعم بالسبات ، واشتد الحصر باحدهم فتساءل فى اشفاق :

ـ أذهب الى المبولة ؟

فهتف الغريب غاضبا :

ـ من قال لك إنى مرضبعة !

فتأوه الكهل قائلا !

ـ هل كتب علينا ان نبقى هكذا حتى الصباح !

ـ انتم سعداء اذا طلع الصباح عليكم ..

المناقشة عبث .. الرجل مجنون او مطارد او كلاهما معا . وقد تكون وراءه حكاية وقد يكون وراءه لا شىء . وهم سجناء رغم كثرتهم ، وانه لقوى شديد وهم لاقوة لهم ولاعزم ولكن الا يوجد سبيل للمقاومة ؟ المقاومة من أى نوع كان ؟

عادوا يتبادلون النظرات وقد تجسد النكد فى أعينهم وجرى الهمس تحت مستوى سمع الغريب :

ـ أى داهية ؟

ـ أى ذل ؟

ـ أى خزى ؟

واذا بنظرة عين تشى بما يشبه الابتسامة ، بل هى ابتسامة ، ابتسامة حقا ؟

ـ لم لا ، انه لموقف مضحك .

ـ مضحك ؟!

ـ تأمله بحياد مؤقت تجده مهلكا من الضحك !

ـ حقا ؟
ـ أخشى أن انفجر ضاحكا ..
وقال الكهل بصوت مسموع بعض الشىء :
ـ تذكروا اننا مازلنا بعيدين عن ميعاد انصرافنا المعتاد .
ـ ولكن لم تعد هناك سهرة ؟
ـ لاننا أوقفناها بلا سبب
ـ بلا سبب ؟!
ـ أعنى بلا سبب يمنع من مواصلتها « الآن » .
ـ وبأى روح نواصلها بعد ماكان ؟
ـ لننسى الى حين الباب ولنر مايكون
لم يرحب بالاقتراح أحد ولم يرفضه أحد . وجاءت الاكواب الجهنمية . على مرأى من الرجل الغريب ولكنه لم يعبأ بهم . وافرطوا فى الشراب . دارت الرءوس . استخفتهم النشوة . انزاحت الهموم بسحر ساحر . أخذ الضحك يتعالى رقصوا فوق مقاعدهم . تبادلوا القافية . وغنوا معا :
عيد الأنس هلت بشايره
وطيلة الوقت تجاهلوا الباب . نسوا وجوده نسيانا تاما . استيقظ القط الاسود وراح يتنقل من مائدة الى مائدة ومن ساق الى ساق . شربوا بنهم ، عربدوا بنهم ، كأنما يستمتعون باخر لياليهم فى الخمارة .
وحدثت معجزة اذ تقهقر الحاضر حتى ذاب فى مد من النسيان ، وتحللت الذاكرة فنفضت من خلاياها كل مكنوزها لم يكن الواحد يعرف صاحبه . إنه لنبيذ جهنمى حقا ، ولكن أجل ولكن ..
ـ ولكن أين نحن ؟
ـ خبرنى من تكون أخبرك أين نحن ؟
ـ كان ثمة غناء ؟
ـ او كان بكاء على ماأذكر ..
ـ وكان ثمة حكاية .. ترى أى حكاية ؟
ـ وهذا القط الاسود ، هو شىء محسوس لاشك فيه .
اجل انه الخيط الذى سيوصلنا الى الحقيقة ..
ـ هانحن نقترب من الحقيقة .
ـ كان هذا القط إلها على عهد أجدادنا ..
ـ وذات يوم جلس على باب زنزانة ثم أذاع سر الحكاية ..
ـ وهدد بالويل .
ـ ولكن ما الحكاية ؟

ـ كان فى الاصل إلها ثم انسخط قطا ..
ـ ولكن ما الحكاية ؟
ـ كيف لقط ان يتكلم ؟
ـ ألم يفض الينا بالحكاية ؟
ـ بلى ، ولكنا ضيعنا الوقت فى البكاء والغناء .
ـ ها قد اكتملت الخيوط وتمهد الطريق لاقتناص الحقيقة .. وارتفع صوت الجرسون العجوز وهو ينهر شخصا ما مهددا ومتوعدا ويصيح به :
ـ اصح ياكسلان والا هشمت رأسك .

وأقبل رجل ضخم محنى الهامة من الانكسار . راح يرفع الاقداح والصحاف ، وينظف الموائد ، ويجمع النفايات من فوق الارض ، كان يعمل دون ان ينبس بكلمة او ينظر الى احد ، وقد غشيه حزن عميق واغرورقت عيناه بالدموع تابعوه برثاء واشفاق ، وسأله أحدهم :
ـ ما الحكاية ؟

ولكنه لم يلتفت اليه وتابع عمله صامتا حزينا مغرورق العينين وتساءل الكهل :
ـ متى وأين رأيت هذا الرجل ؟

ومضى الرجل نحو الممشى بملابسه القاتمة المكونة من بلوفر إسود وبنطلون رمادى غامق وحذاء بنى من المطاط ، فعاد الكهل يتساءل :
ـ متى وأين رأيت هذا الرجل ؟

تحت المظلة

انعقد السحاب وتكاثف كليل هابط ثم تساقط الرذاذ ، اجتاح الطريق هواء بارد مفعم بشذا الرطوبة . حث المارة خطاهم غير نفر تجمعوا تحت مظلة المحطة . واوشكت الرتابة ان تجمد المنظر لولا ان اندفع رجل . اندفع راكضا كالمجنون من شارع جانبى واختفى فى شارع اخر على الجانب الاخر . تبعه على الاثر جماعة من الرجال والغلمان وهم يتصايحون « لص .. أمسكوا اللص » . وما لبثت الضجة ان خفت رويدا حتى ماتت وتتابع الرذاذ . وخلا الطريق او كاد اما المتجمعون تحت المظلة فبعضهم ينتظر الباص والبعض لاذ بها خوف البلل وبعثت ضجة المطاردة مرة اخرى وتدانت فى اشتداد وتضخم ثم ظهر المطاردون وهم يقبضون على اللص ومن حولهم الغلمان تهلل باصوات رفيعة حادة . وعند عرض الطريق فى المنتصف حاول اللص الافلات فامسكوا به وانهالوا عليه صفعا ولكما فمن شدة الضرب قاوم وضرب كيفما اتفق . وشدت أعين الواقفين تحت المظلة الى المعركة .

- يالها من ضربات قاسية عنيفة !
- ستقع جريمة أشد من السرقة !
- انظروا .. الشرطى واقف فى مدخل عمارة يتفرج ..
- بل ادار وجهه الى الناحية الاخرى ..

واشتد الرذاذ فتواصل أسلاكا فضية برهة ثم انهمر المطر . خلا الطريق الا من المتعاركين والواقفين تحت المظلة . نال الاعياء من الرجال فكفوا عن تبادل الضربات ولكنهم أحاطوا باللص . وتبادلوا كلمات غير مسموعة معه وهم يلهثون . ثم انغمسوا فى مناقشة هامة لم يميزها احد دون مبالاة بالمطر . التصقت الملابس باجسادهم ولكنهم واصلوا النقاش باصرار وبلا ادنى اكتراث بالمطر . ووشت حركات اللص بحرارة دفاعه ولكن لم يصدقه احد . ولوح بذراعيه فكأنما يخطب ولكن ضاع صوته فى البعد وانهلال المطر . انه بلاشك يخطب وها هم يصغون اليه . تطلعوا اليه خرسا تحت المطر . وظلت أعين الواقفين تحت المظلة مشدودة اليهم .

- كيف ان الشرطى لايتحرك !
- لذلك خطرت فكرة .. ان يكون الحدث منظر تصوير سينمائى !
- لكن الضرب كان حقيقيا ..
- والمناقشة والخطابة تحت المطر ؟

شيء طارىء جذب النظر . فمن ناحية الميدان انطلقت سيارتان فى سرعة جنونية . مطاردة حامية فيما بدا . المتقدمة تطير طيرا والاخرى توشك ان تدركها . واذا بالمتقدمة تفرمل بغتة حتى زحفت فوق اديم الارض فصدمتها الاخرى صدمة عنيفة مدوية . انقلبتا معا محدثتين انفجارا وسرعان ما اشتعلت فيهما النيران . وارتفع صراخ وانين تحت المطر المنهمر . ولكن لم يهرع أحد نحو الحادثة . ولم يكف اللص عن الخطابة . ولم يلتفت احد من المحدقين به الى بقايا السيارتين اللتين أدركهما الخراب على بعد امتار منهم . لم يبالوا بهما كما لايبالون بالمطر . ولمح الواقفون تحت المظلة أدميا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من تحت سيارة ملطخا بالدم . حاول النهوض على اربع ولكنه سقط على وجهه سقطة نهائية .

ـ كارثة حقيقية بلا أدنى شك .

ـ الشرطى لايريد ان يتحرك !

ـ لابد من وجود تليفون قريب

ولكن احدا لم يبرح مكانه خشية المطر . وقد انهل انهلالا مخيفا وقعقع الرعد . وانتهى اللص من خطابه فوقف ينظر الى مستمعيه بثقة واطمئنان . وفجأة راح يخلع ملابسه حتى تجرد عاريا . رمى بملابسه فوق حطام السيارتين اللتين اطفأ نيرانهما المطر . دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العارى . تقدم خطوتين وتأخر خطوتين وبدأ يرقص فى رشاقة احترافيه . واذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات ايقاعية على حين تشابكت اذرع الغلمان وراحوا يدورون من حولهم فى دائرة متماسكة . وذهل الواقفون تحت المظلة ولكنهم رغم ذلك استردوا انفاسهم .

ـ ان لم يكن منظرا تصويريا فهو الجنون !

ـ منظر سينمائى بلا ريب وما الشرطى الا أحدهم ينتظر دوره .

ـ وحادث السيارتين ؟

ـ براعة فنية وسوف نكتشف المخرج فى النهاية وراء إحدى النوافذ .

فتحت نافذة فى عمارة مواجهة للمحطة محدثة صوتا لافتا للنظر . لفتت الانظار رغم التصفيق وانهمار المطر . ظهر بها رجل كامل الزى فصفر صفيرا متقطعا . وفى الحال فتحت نافذة اخرى فى نفس العمارة فظهرت بها امراة متأهبة الزينة والملابس فاستجابت لصفيره باشارة من رأسها . اختفيا معا عن انظار الواقفين تحت المظلة . بعد قليل غادرا العمارة معا . سارا متشابكى الذراعين بلا مبالاة تحت المطر . وقفا عند السيارتين المهشمتين . تبادلا كلمة . اخذا يخلعان ملابسهما حتى تعريا تماما تحت المطر . استلقت المرأة على الأرض طارحة رأسها فوق جثة القتيل المنكفىء على وجهه . ركع الرجل الى جانبها . بدأ غزل



رقيق الايدى والشفاه . ثم غطاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحب . وتواصل الرقص والتصفيق ودوران الغلمان وانهمار المطر .

- فضيحة !
- ان يكن تصويرا فهو فضيحة وان يكن حقيقة فهو جنون .
- الشرطى يشعل سيجارة ..

واستقبل الطريق شبه الخالى حياة جديدة . جاءت من الجنوب قافلة من الجمال . يتقدمها حادى ويقودها رجال ونساء من البدو . عسكرت على مبعدة قصيرة من حلقة اللص الراقص . شدت الجمال الى اسوار البيوت ونصبت الخيام ، وتفرقوا فمنهم من تناول طعامه او راح يحتسى الشاى او يدخن وبعضهم غرق فى السمر . ومن الشمال جاءت مجموعة من سيارات السياحة محملة بالخواجات ، توقفت فيما وراء حلقة اللص ثم غادرها راكبوها من الرجال والنساء فتفرقوا جماعات تستطلع المكان فى نهم دون مبالاة بالرقص او الحب او الموت او المطر .

ثم أقبل عمال بناء كثيرون تتبعهم لوريات مثقلة بالاحجار والاسمنت وادوات البناء . وبسرعة مذهلة شيدوا قبرا رائعا . وعلى مقربة منه أقاموا من الاحجار سريرا كبيرا ، فغطوه بالملاءات وزينوا قوائمه بالورود ، كل ذلك تحت المطر ، ومضوا الى حطام السيارتين فاستخرجوا منه الجثث ، مهشمة الرءوس محترقة الاطراف ، وضموا اليها جثة المنكفىء على وجهه من تحت العاشقين اللذين لم يكفا عن ممارسة الحب ، ثم رصوا الجثث فوق السرير جنبا الى جنب ، وتحولوا الى العاشقين فحملوهما معا وهما لا ينفصلان فاودعوهما القبر ثم سدوا فوهته واهالوا عليهما التراب حتى سووها بالارض . استقلوا بعد ذلك اللوريات فانطلقت بهم فى سرعة عاصفة وهم يهتفون بكلام لم يميزه احد .

- كأننا فى حلم !
- حلم مخيف . ويحسن بنا ان نذهب ..
- بل علينا ان ننتظر .
- ماذا ننتظر ؟
- النهاية السعيدة
- السعيدة ؟
- والا فبشر المنتج بكارثة !

فى اثناء الحديث تربع فوق القبر رجل يرتدى روب القضاء . لم ير أحد من أين أتى . من عند الخواجات او من عند البدو او من حلقة الرقص لم يعرف أحد . بسط صحيفة بين يديه وراح يتلو نصا كأنما ينطق بحكم . لم يميز كلامه احد اذ غطى عليه التصفيق وضوضاء الاصوات بشتى اللغات والمطر . ولكن كلماته غير

المسموعة لم تضع فانتشرت فى الطريق حركات كالأمواج الصاخبة فى عنف وتضارب نشبت معارك فى محيط البدو واخرى فى مواقع الخواجات . واشتعلت معارك بين بدو وخواجات . وجعل اخرون يرقصون ويغنون . واقبل كثيرون حول القبر وراحوا يمارسون الحب عرايا . واخذت النشوة اللص فتفنن فى رقصه وأبدع . واشتد كل شىء وبلغ غايته . القتل والرقص والحب والموت والرعد والمطر .

واندس بين الواقفين رجل ضخم . عارى الرأس يرتدى بنطلونا وبلوفر أسود وبيده منظار مكبر . شق مكانه بينهم بعنف واستهتار . وجعل يراقب الطريق بمنظاره متجولا به بين الاركان وتمتم :

ـ لا بأس .. لا بأس ..

تعلقت به أعين المجتمعين تحت المظلة باهتمام :

ـ هو ؟

ـ نعم .. هو المخرج ..

وعاد الرجل يخاطب الطريق مغمغما :

ـ استمروا بلا خطأ والا اضطررنا لاعادة كل شىء من البدء ..

عند ذاك سأله احدهم :

ـ هل سيادتكم ..

ولكنه قاطعه باشارة عدائية وحاسمة فازدرد الرجل بقية سؤاله وسكت . ولكن آخر استمد من توتر أعصابه شجاعة فسأله :

ـ حضرتك المخرج ؟

لم يلتفت اليه وواصل مراقبته . واذا برأس ادمى يتدحرج نحو المحطة فيستقر على بعد أذرع منها والدماء تتفجر من مقطع العنق بغزارة . صرخ الرجال فزعا اما الرجل فحدق بالرأس مليا ثم غمغم .

ـ برافو .. برافو ..

وصاح به رجل :

ـ ولكنه رأس حقيقى ودم حقيقى ..

فوجه الرجل منظاره نحو رجل وامرأة يمارسان الحب ثم هتف نافد الصبر :

ـ غيرا الوضع .. حذار من الملل ..

ولكن الاخر صاح به :

ـ ولكنه رأس حقيقى . فمن فضلك فهمنا .

وآخر قال :

ـ كلمة واحدة منك تكفى لنعرف من أنت ومن هؤلاء

وثالث قال بتوسل :

ـ لاشيء يمنعك من الكلام !
ورابع تضرع قائلا :
ـ يا أستاذ لاتضن علينا براحة البال .
ولكن الاستاذ تراجع فى قفزة مباغتة . كأنما يدارى نفسه خلفهم . ذاب الصلف فى نظرة مترقبة . وتوارت نفخته . كأنما طعن به السن او تردى فى مرض . رأى المتجمعون تحت المظلة نفرا من الرجال ذوى هيئة رسمية يتجولون غير بعيد من المحطة كأنهم كلاب تتشمم . واندفع الرجل راكضا مجنونا تحت المطر انتبه اليه رجل من المتجولين فاندفع أيضا صوبه يتبعه الاخرون كعاصفة . وسرعان مااختفوا جميعا عن الانظار . مخلفين الطريق للقتل والحب والرقص والمطر .
ـ يا ألطاف الله ! لم يكن المخرج كما توهمنا ..
ـ فمن يكون ؟
ـ لعله لص ..
ـ او مجنون هارب !
ـ او لعله ومطارديه ضمن المنظر السينمائى ..
ـ هذه أحداث حقيقية لا علاقة لها بالتمثيل .
ـ ولكن التمثيل هو الفرض الوحيد الذى يجعلها معقولة على نحو ما . لا داعى لاختلاق الفروض .
ـ فما تفسيرك لها ؟
ـ هى حقيقة بصرف النظر ..
ـ كيف أمكن ان تقع ؟
ـ هى واقعة .
ـ يجب ان نذهب بأى ثمن
ـ سندعى للشهادة عند التحقيق .
ـ ثمة أمل باق ..
قال ذلك واتجه ناحية الشرطى وصاح :
ـ ياشاويش ..
كرر النداء أربعا حتى انتبه اليه الرجل . قطب متنحنحا فاشار اليه يستدعيه قائلا :
ـ من فضلك ياشاويش ..
نظر الشرطى الى المطر متسخطا ثم حبك المعطف حول جسمه ومضى نحوهم مسرعا حتى وقف تحت المظلة . تفحصهم بقسوة متسائلا :
ـ ماشأنكم ؟

ـ ألم تر مايحدث فى الطريق ؟

لم يحول عينيه عنهم وقال :

ـ كل من كان فى المحطة استقل سيارته الا انتم فما شأنكم ؟

ـ انظر الى هذا الرأس الأدمى !

ـ أين بطاقاتكم ؟

ومضى يتحقق من شخصياتهم وهو يتبسم ابتسامة ساخرة قاسية ثم سألهم :

ـ ماذا وراء اجتماعكم هنا ؟

تبادلوا نظرات إنكار وقال أحدهم :

ـ لا يعرف أحدنا الاخر !

ـ كذبة لم تعد تجدى ..

تراجع خطوتين . سدد نحوهم البندقية . أطلق النار بسرعة وإحكام . تساقطوا واحداً فى إثر الاخر جثثا هامدة . انطرحت أجسادهم تحت المظلة أما الرءوس فتوسدت الطوار تحت المطر .

روبابيكيا

«١»

كالعادة كل صباح كان أول طارىء على الطريق . مع أول شعاع للشمس تنفرج عنه السحب . أورقت الأشجار فترامت خضرتها على المدى فوق كورنيش النيل . مشى على مهل مفعما بأنفاس الربيع وعيناه تنظران إلى بعيد . تنظران فى لهفة . وكالعادة أيضا ، وقريبا من منتصف الطريق لاحت لعينيه قادمة . تلاقيا تحت شجرة الأكاسيا فتصافحا باسمين . تساءل :

ـ نجلس فوق السور ؟

ـ لا بأس .

وجلسا ظهراهما للنيل ووجهاهما للطريق الخالى .

ـ صباح سعيد أن أصبح على وجهك .

ـ شكرا .

ـ ورغم أننا لم نتعارف إلا أمس فإننى أشعر بأننى أعرفك منذ زمن بعيد ..

ـ طالما جمعنا الطريق كل صباح .

ـ كل صباح سعيد .

ـ مشوار ضرورى لى لتجنب الترهل .

ـ الفتك ، كالنسمة الرقيقة والسحابة البيضاء ، ونفذت إلى أعماقى بقوة مدعمة بالزمن .

ـ لعلك تساءلت كثيرا عن سر مسيرتى الصباحية ؟

ـ كثيرا جدا ، خاصة وأن مظهرك لا يوحى بأنك موظفة ، قلت لعلها تتمشى فى منطقتها السكنية لأسباب جمالية ..

ـ ولكن ماذا عن خواطرك الأخرى ؟

ـ الأخرى ؟

ـ أى نوع من النساء ظننتنى ؟

ـ سيدة جميلة بقدر ما هى قوية ، نظرتها جريئة ورزينة ومليئة بالثقة ، وتسلل بصرى ..

ـ وتسلل بصرك ؟

ـ إلى أصابعك فلم أر خاتما !
ـ وليست فى الوقت نفسه بنتا من البنات ، أليس كذلك ؟ .
ماذا قلت ؟
ـ مطلقة .
ـ وفيم فكرت ؟
ـ لم يخطر ببالى عبث ..
ـ توكد لدى ذلك عند تعارفنا أمس .
فتفكر قليلا ثم قال :
ـ ولكن علىّ أن أصارحك بأنى أحبك .
ـ تعنى أنك معجب بى ؟
ـ أكثر من ذلك ، أنا أحبك بكل معنى الكلمة ..
ـ ولكنك لم تعرفنى بعد .
ـ ثمة حب يجىء بعد المعرفة ، وحب يسبق كل شىء .
ـ الآخر كثير الأعباء .
ـ الحق أنى أحب المغامرة .
فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :
ـ أتحب الصراحة ؟ .. تخيلت حديثنا هذا من قبل !
فقال بفرحة :
ـ هذا يعنى أنى خطرت ببالك ..
ـ ألا يشهد هذا الطريق على قديم زمالتنا ؟
ـ وشهد أيضا مصيرى وهو يتقرر حتى من قبل أن أدرى ..
ـ ولكن ألم تنقض مدة طويلة قبل أن ينطق الحب الذى تزعم أنه سبق كل شىء ؟
ـ كان اللقاء يمر فى سرعة الضوء .
ـ جواب غير مقنع تماما .
ـ وأول الأمر كنت فى غفلة ، واعتقدت فترة أخرى أنك سيدة متزوجة !
ـ وربما كنت مرتبطا بعلاقة ما !
ـ ربما ..
ـ أى نوع من العلاقة من فضلك ؟
ـ عابرة ..
ـ عظيم !
ولاذا بصمت قصير حتى خرقه الرجل قائلا بنبرة جديدة بعض الشىء :
ـ يحسن بى أن أقدم ما خفى من شخصى ، مهنتى صائغ ، فى الثلاثين من

عمرى ، مركزى المالى على مايرام .
ـ وأنا مطلقة ، قدر عمرى كما تشاء ، ويحسن بى أن أصارحك بأنى جربت الزواج أكثر من مرة !
ـ ما أجمل الصدق ..
ـ ألم يخفك ذلك ؟
ـ كلا !
ـ من حقك أن تقلق ولكن صدقنى أنى كنت ومازلت بريئة !
ـ وأنا أحبك ..
ـ إذن فأنا سعيدة أكثر مما استحق ..
ـ أأفهم من ذلك أنك .. ؟
ـ إنى أشاركك عواطفك !
ـ ما أسعدنى من عاشق ..
وحدجته بنظرة ثاقبة وهى تسأله :
ـ ألم تتحر عنى ؟
ـ كلا ..
ـ أما أنا ففعلت .
فضحك طويلا ثم تساءل :
ـ وهل نجحت فى الامتحان ؟
ـ أعتقد ذلك ..
ـ بأى مقياس تحكمين ؟
ـ العجز هو ما أكرهه فى الرد .
ـ العجز ؟!
ـ أحبه قويا قادراً ، رذائل القوة أحب عندى من فضائل الضعف ..
ـ أنك واضحة وقوية ..
ـ ماذا تكره أنت فى المرأة ؟
فتفكر قليلا ثم قال :
ـ القبح والانحلال .
ـ الانحلال ؟
ـ أظنه لا يحتاج إلى تفسير .
ـ أأنت ممن يهتمون بالماضى ؟
ـ كلا ..
ـ ماذا تقصد بالانحلال ؟
ـ الاستهتار ، مثل إنشاء أكثر من علاقة فى وقت واحد ، أو التسليم بلا حب !

ـ ولكن ذلك مرض ؟
ـ ربما .
ـ لاتوجد إمرأة خائنة أبدا .
ـ هذا صحيح بصفة عامة .
ـ يخيل اليّ أننا متفاهمان ؟
ـ وعلينا أن نعد أنفسنا للزواج بأسرع مايمكن ..

* * *

« ٢ »

مضت فى الطريق ووقف يتبعها بناظريه . بقلب كله هيام . ثم انتبه إلى حركة ما . التفت نحو السور . وهو يقترب منه ظهر رأس رجل . لعله كان جالسا أو نائما . ها هو يقف الآن أمامه فى الناحية الأخرى من السور الذى تلى شاطىء النيل . ترى هل سمع حديثه مع المرأة ؟ وطالعه الغريب بوجه شاحب ، بارز العظام ، غائر العينين ، وذقن غير حليق . سوى جلبابه المتسخ فوق جسده الهزيل ثم عبر السور فصار على كثب منه . لص ؟ متشرد ؟ ليكن مايكون . هم بالذهاب ولكن استوقفه صوته وهو يقول :

ـ الحب ! .. ما أجمل الحب ..

رمقه باشمئزاز وهم بالسير مرة أخرى ولكن الرجل خاطبه قائلا :

ـ لدينا حديث مشترك فيما أعتقد .

فسأله بتقزز :

ـ أتخاطبنى ؟
ـ لم يعد يوجد سوانا فى الطريق .
ـ ولكنى لا أعرفك ؟
ـ ولا أنا أعرفك !
ـ إذن لا تخاطبنى .
ـ ولكن لدينا حديث مشترك .
ـ من أنت ؟
ـ تاجر روبابيكيا .
ـ وأى حديث تعنى ؟

فأشار بيد معروقة شبه سوداء من القذارة نحو الناحية التى سارت فيها المرأة وقال :

ـ بخصوص السيدة ..
ـ وما شأنك بها ؟
ـ كنت آخر زوج لها .
ـ هه ؟!
ـ تكلمت بوضوح فلاداعى للتكرار .
فتفحصه بذهول وتمتم :
ـ أنت مجنون بلاشك ..
فضحك قائلا :
ـ لم ينعم الله علىّ بالجنون بعد .
ـ لعلك تهذى .
ـ لعلك تتساءل كيف آل أمرى إلى ماترى ؟
فلم يجب الرجل . فقال تاجر الروبابيكيا :
ـ كنت تاجر غلال ناجح ..
ثم بنبرة ساخرة :
ـ ثم أفلست !
وضحك قائلا :
ـ ولكنى مازلت تاجرا على أى حال ، وهاك عربتى .. و أشار إلى عربة منزوية وراء جذع شجرة فوق الطوار .
هز الرجل منكبيه استهانة ، أو تظاهر بالاستهانة وهم للمرة الثالثة بالسير ولكن التاجر سأله :
ـ والحديث المشترك ؟
فسأله بحدة :
ـ أى حديث مشترك ؟
ـ حديثنا عنها ، أى حديث عنها فهو هام بالنسبة لى ، الحق انى مازلت أحبها .
ـ مازلت تحبها ؟
ـ بكل جوارحى .
ـ ولم طلقتها ؟
ـ نتيجة حتمية للإفلاس .
ـ ولكن الزوجة المخلصة ..
فقاطعه :
ـ لايمكن أن تكون زوجة لتاجر روبابيكيا .
ـ ألم تكن .. ألم تكن تحبك ؟

ـ أجل فيما أعتقد .
ـ كيف تغير قلبها فجأة ؟
ـ لا لوم عليها فى ذلك .
ـ لعل إفلاسك جاء نتيجة لأخطاء لاتغتفر ؟
ـ أعتقد أنا أن افلاسى وقع بسببها واعتقدت هى أنه جاء نتيجة لعجزى .
ـ عجزك ؟
ـ وهى تكره العجز كما قالت لك من دقائق !
ـ زدنى إيضاحا .
ـ لا أهمية لذلك .
ـ ولكنه مهم فى رأيى ..
ـ أنك تحبها ومن حقك أن تجرب حظك ..
ـ ولكنك أثرت موضوعا وتركته مفتوحا ..
ـ لاتقلق فهى إمرأة ممتازة بكل معنى الكلمة ..
ـ لاتحاول خداعى ..
ـ لاسمح الله .
ـ إنك تعنى إتهامها ..
ـ أؤكد لك أنها على خلق عظيم ..
ـ لعلها لم تكن تحبك ؟
ـ ها أنت تتهمها بأنها تزوجت من رجل من غير أن تحبه .
ـ أعنى أنها لم تحبك الحب الكافى .
ـ جعلتنى أؤمن بخلاف ذلك .
ـ المرأة المحبة الفاضلة لا تتخلى عن زوجها .
ـ أنا الذى تخليت عنها !
ـ بسبب إفلاسك ؟
ـ أليس ذلك كافياً ؟
ـ ألم تختبر استعدادها للوفاء ؟
ـ كلا ، لدى تسليمى بعجزى عن إسعادها هربت بالطلاق .
ـ بذلك يصبح الأمر واضحا .
ـ لاشىء واضح فى هذه الدنيا المعقدة .
ـ ولكن ماقلته واضح جدا .
ـ جرب حظك ، جرب أن تبلغ الوضوح بنفسك .
ـ يخيل إلىّ أنك تداور وتحاور لتلقى بذور الشك فى نفسى ..
ـ أنت تقول ذلك .

فهتف بغضب :
ـ إذا كان لديك مايستحق القول فقله وإلا فاذهب بغير سلام ..
ـ المتاجرة بالأشياء القديمة علمتنى السماح .
ـ الحديث المشترك ؟
ـ لاشىء بعد .
ـ أتهزأ منى ياصعلوك ؟
ـ أبدا ، ولكنى أحب الحب كما أحب المحبين .
ـ كنت تتجسس علينا ؟
ـ أبدا ، ولكنى أنام على شاطىء النيل فى الربيع .
ـ كذاب .
ـ الربيع الذى يجدد الشجر ويعجز عن تجديد حياة البشر !
ـ لا ألوم إلا نفسى على الاستماع إليك .
ـ لن تندم على ذلك أبدا .
ـ عد إلى القبر الذى خرجت منه .
ـ سمعا وطاعة ، أما مجلسى المختار فهو قهوة سوق الكانتو ، وشهرتى هناك « الملعون » .
ـ عليك اللعنة !
ـ إلى اللقاء .

« ٣ »

أمام المرآة وقفت ترنو باعجاب إلى العقد المطوق لجيدها . ترنو بصفة خاصة إلى اللؤلؤة المدلاة من واسطته . ونظرت من خلال المرآة أيضا إلى صورة الرجل المتربع فوق الديوان وراءها يتسلى بمشاهدة النيل من النافذة . وقالت وهى تتجه نحو الديوان :
ـ فى أصابعك معجزة .
نزع بصره من النيل كمن يصحو من غفوة وتساءل :
ـ ماذا قلت يا عزيزتى ؟
ـ من يبدع هذه اللؤلؤة فهو معجزة !
ـ المعجزة حقا من تصنع اللؤلؤة من أجله .
فجلست إلى جانبه فوق الديوان وهى تقول :
ـ جميل أن أسمع منك غزلا رقيقا حتى اليوم .
ـ حقا ؟ .. ما وجه العجب فى ذلك ؟
ـ المألوف أن الغزل يوارى كلما أوغل المرء فى الزواج .

ـ ولكنك نبع للحب لاينضب أبدا .
فمسحت علي شعر رأسه بنعومة وقالت :
ـ حقاً ؟!
ـ أيداخلك شك فى ذلك ؟
ـ كلا ولكنك لم تعد كما كنت .
فتردد قليلا ثم قال :
ـ لا علاقة لذلك بحبنا .
ـ لا تخف عنى شيئا فإنى أشعر بكل شىء .
ـ أردت دائما ألا أجرك إلى متاعبى .
ـ ستجدنى دائما فى صميم متاعبك ، لاتخف عنى شيئا ..
فتنهد قائلا :
ـ الحق أنى محاصر بالقلق ..
ـ أرأيت ؟!
ـ أقاومه بكل ما أوتيت من قوة الانحدار إلى الهاوية !
ـ وأخفيت عنى كل شىء .
ـ لم أكف دقيقة واحدة عن الكفاح .
ـ والجميع يضربون المثل بسعادتنا .
ـ الحق أنى أندفع نحو الخراب .
ـ الخراب ؟!
ـ إختل ميزان العمل فى يدى ولا سبيل إلى ضبطه .
فقالت بحزن حقيقى :
ـ أى لعنة ، أى لعنة ، أى صحوة مباغتة من سعادة وهمية ؟
ـ بل كانت ومازالت سعادة حقيقية .
ـ أى لعنة تطاردنى ! ، لم أضن بعطاء ، هيأت لك عشا ذهبيا ، مارأيك فى عشنا ؟
ـ جنة .
ـ وأصدقائنا ؟
ـ جذابون كالسحرة .
ـ ورحلاتنا وليالينا ؟
ـ جمال فى جمال ..
ـ أينقصنا شىء ؟
ـ أبدا ولكنى أنفق المال بجنون !
ـ إنك صائغ عبقرى ولاحدود لقدرتك .

ـ لو كان مال قارون لنفد .
ـ لاتقل ذلك ياحبيبى .
ـ ولكنها الحقيقة .
ـ وأى طعم للحياة بغير مباهجها الحقيقية ؟
ـ أنا مهدد بالخراب العاجل .
ـ لا تخيِّب أملى فيك .
ـ ولكنها الحقيقة .
ـ لاتعلن عن عجزك .
فقال بجزع :
ـ كل شىء له حد لايجوز أن يتجاوزه .
ـ إنما تهمنى النتائج ، أنا أحب الحياة الحلوة بقدر ما أحبك .
ـ أنت جميلة ، أنت فاتنة ، أنت عطر الحب وروحه ، ولكنك تتعلقين بمسرات يمكن الاستغناء عنها .
ـ لاتقل ذلك ابدا .
ـ الحب أغلى من أى شىء سواه .
ـ ولكن أزهاره لاتنور إلا فى خمائل المسرات .
ـ ظننته غنيا بنفسه عما عداه .
ـ لعل حبك فتر ..
ـ ياله من حكم جائر !
ـ عندما يفتر الحب ينشط التفكير والتدبير .
ـ أبدا ، ليس الأمر كذلك .
ـ عندما يفتر الحب يبدأ الندم على السرور البرىء .
ـ أنت تعلمين أن حبى لك لايفتر أبدا .
ـ بل وليتنى ظهرك أمس واستغرقت فى النوم !
ـ بسبب انشغال البال لافتور الحب .
فهزت رأسها فى ارتياب فقال :
ـ ما أنا إلا إنسان ذو طاقة محدودة .
ـ لم تكن كذلك فى أيامنا الحلوة .
ـ أنت سيدة ناضجة وتدركين من حقائق الأمور مايقصر عن إدراكه غيرك ..
فقالت بحدة :
ـ لم أحب هذا القول .
ـ ما قصدت سوءا قط .
ـ ولكنى كرهته ..

- إنى أعتذر ، وإنى أحبك ، وأقر بأننى إنسان ذو طاقة محدودة !
- إنك ترعبنى .
- حتى الحب تلزمه استراحات قصيرة ..
- إنك تحملنى ذنوب الآخرين .
- لا يعنينى الماضى قط .
- إنى إمرأة بريئة ، لاعيب فيها إلا أنها تحب الحياة حبا لايعرف الحدود .
- ولكنه حب لا يتأتى لرجل اشباعه .
- الحق ما أنا إلا ضحية لعجز الرجال .
- ياحبيبتى علينا أن نحرص على حياتنا المشتركة .
فقالت بكبرياء :
- لم استطع ذلك فى الماضى ولا استطيعه الآن .
- أليس ذلك أيضا نوعا من العجز ؟
- كلا ، لاتسم الأشياء بأضدادها .
- أنت اليوم فى عز نضجك ..
فهتفت غاضبة :
- لست عجوزا بعد ..
- معاذ الله أن يخطر لى ذلك المعنى .
- ولكنه خطر ، ورميتنى بما هو فيك .
فتنهد يائسا وقال :
- لافائدة ، أفلست فى كل شىء .
- ها هى اللعنة تطاردنى من جديد .
- ليبعد الله عنا اللعنات !
- ها هى تطاردنى من جديد !
ونهضت غاضبة فغادرت الحجرة ..

* * *

« ٤ »

تذكر فجأة تاجر الروبابيكيا . حاجة ملحة دفعته إلى البحث عنه لمناقشته . ولم يجد صعوبة تذكر فى العثور على القهوة القابعة تحت البواكى بسوق الكانتو . وقف يجيل البصر فى الجالسين ولكنه لم يظفر بطلبه على حين تطلعت إلى منظره الأبصار فى دهشة . ورأى وراء النصبة رجلا يقوم بكل شىء فقدر أنه صاحب

القهوة فاقترب منه ، حياه ، وسأله :
- أين تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون ؟
فحدجه الرجل بنظرة أشعلها إنتباه طارىء وقال :
- لا أدرى .
- ألا يجلس عادة فى هذه القهوة ؟
- ولكنى لم أره من مدة .
- وأين يمكن أن أجده من فضلك ؟
- لا أدرى .
- هل يوجد أمل فى رؤيته إذا انتظرت بعض الوقت ؟
- من يدرينى ؟!
وقف الرجل فى وسط القهوة متردداً . وإذا برجل يدنو منه حتى يقف أمامه ثم سأله :
- أتريد مقابلة الملعون ؟
- أتعرف مكانه ؟
- اتبعنى .
قال ذلك ومضى إلى الخارج . تبعه بأمل جديد فى مقابلة الرجل . كان المغيب يضفى على الدنيا ظلاله . ولفحات هواء رطب تتردد بأنفاس الخريف . سار وراء الرجل فى زقاق ضيق .
- أنحن ذاهبان إلى بيته ؟
فلم يجب الرجل وواصل المسير . ولدى أول منعطف يصادفهما هوت ضربة على راسه فشهق ثم سقط مغمى عليه .
ولما أفاق وجد نفسه ملقى فوق مقعد خشبى كأنه أريكة فى ظلام دامس لايرى فيه شيئا . جلس فى حذر وهو يتساءل :
- أين أنا ؟!
وأجال يده فى الظلام وهم بالوقوف وإذا بصوت غليظ يقول بنبرة آمرة ومهددة معا :
- لا تتحرك .
فصدع بالأمر وهو يرتعد وسأل برجاء :
- ما معنى هذا من فضلك ؟
- لا تسأل ولكن عليك أن تجيب ..
- سل عما شئت ولكنى لم أسىء إلى أحد .
- إخرس .
فخرس وقلبه يدق فعاد الصوت يسأل :

- ما مهنتك ؟
- صائغ .
- وعمرك بالسنة الهجرية ؟
- لا أعرف .
- انصحك بأن تتجنب الكذب .
- ممكن معرفته إذا أعطيت ورقة وقلما ونورا !
- أيختلف عمرك الهجرى عن عمرك الميلادى ؟
- طبعا .
- هل أفهم من ذلك أنك مصاب بانقسام الشخصية ؟
- أنا سليم والحمد لله .
- إذن لِمَ ذهبت إلى قهوة الكانتو ؟
- لمقابلة تاجر الروبابيكيا الشهير بالملعون .
- ما علاقتك به ؟
- لا علاقة لى به .
- تجنب الكذب حرصا على سلامتك .
- أنا لا أكذب وليس ثمة ما يدعونى إلى الكذب .
- ما علاقتك به ؟
- تقابلنا مرة فى الطريق ..
- أكرر تحذيرك من الكذب .
- بالحق نطقت .
- أى طريق ؟
- طريق النيل .
- متى ؟
- منذ عام وبضعة أشهر .
- لأى مناسبة ؟
- صادفنى فى الطريق فتبادلنا حديثا عابرا .

إنهالت عليه السياط فى الظلام كالنيران . إجتاحه ألم حاد فصرخ من الأعماق . توقف الضرب ولكن صراخه لم يتوقف . ترك يصرخ ويتوجع بلا مصادرة لحريته فى ذلك . حتى همد وسكت . عاد الصوت يقول :

- حذرتك من الكذب .

فقال بصوت ممزق :

- أنا لا أكذب .
- ماذا كانت مناسبة المقابلة ؟

ـ كنت أجالس خطيبتى على سور الكورنيش فلما ذهبت ظهر لى الرجل من وراء السور وقال لى أنه كان آخر زوج لخطيبتى ..
ـ السوط أخف أدوات التأديب !
فقال بجزع :
ـ ولكنى أقول الصدق .
ـ ومن كان أول زوج لها ؟
ـ لم أسأله عن ذلك .
ـ وماذا دار بينكما أيضا ؟
ـ حدثنى عن حياته حديثا غامضا وفى النهاية أخبرنى عن مجلسه المختار بقهوة سوق الكانتو ..
ـ لم ؟
ـ لا أدرى .
ـ ولم ذهبت تسأل عنه اليوم ؟
ـ شعرت برغبة فى محادثته .
ـ فى أى موضوع ؟
ـ فشل زواجه .
ـ لم ؟
ـ ربما لأن زواجى أنذر أيضا بالفشل ..
ـ ماذا توقعت أن تجد عنده ؟
ـ لا أدرى ولكن اليأس جعلنى أتخبط ..
ـ حذرتك من الكذب ..
فهتف فى رعب :
ـ ما قلت إلا الصدق .
ـ أمهلك دقيقة واحدة .
ـ أقسم على ذلك بكل غال .
ـ دقيقة واحدة .
ـ أى شىء يدعونى للكذب ؟
ـ أى شىء يدعوك إلى الكذب ؟
ـ لا شىء البتة .. صدقونى ..
ـ لم يبق إلا ثوان ..
ـ الرحمة ..
ـ إنتهت الدقيقة ..
وإنهال عليه العذاب فى الظلام . لم ينج منه رأس ولا قدم .

« ٥ »

تراءى الملعون فى الجانب الأيسر من قهوة سوق الكانتو وهو يدخن البورى . تلاقت عيناهما مرة ولكن الملعون بدا مستغرقا فى البورى . تقدم منه حاملا كرسيا وضعه أمامه وجلس . ورمقه الملعون بنظرة غير مرحبة وسأله :

- ماذا تريد ؟
- ألا تذكرنى ؟
- من أنت ؟
- ألا تذكر الصائغ ؟

فانقلبت سحنة الملعون من السخط إلى الذهول وهتف :

- الصائغ !
- بلحمه ودمه !
- ولكن لا لحم هناك ولا دم .
- أجل !
- غير معقول .
- هى الحقيقة كما ترى .
- أعوام انقضت ولكنها لا تكفى لتبرير هذا التغير الشامل !
- أجل ..
- كأنك خارج من قبر .
- كأنى خارج من قبر .
- ماذا حدث لك ؟
- ذاك تاريخ طويل .
- ولكن زواجك فشل ؟
- أجل .
- ووقع الطلاق ؟
- لا أدرى .
- وكيف تلاشى شكلك الآدمى ؟

فتردد قليلا ثم سأله :

- ألك أعداء ؟
- ليس لى أصدقاء .
- سأقص عليك قصتى ، فمنذ ..

وتوقف حائرا ثم تمتم :

- الحق أنه لم يعد لى علم بالزمن ..
- أهمله كما يهملنا ..

ـ جئت يوما أسأل عنك فى هذه القهوة ، خطفت ، جرى معى تحقيق غريب ، عذبت ، سجنت فى الظلام زمنا لا أدريه ، ثم وجدتنى ملقى فى الخلاء !

ضحك الملعون وقال :

ـ مررت بمحنة مماثلة فى زمن ماض ..

ـ أنت أيضا ؟!

ـ أنا أيضا ..

ـ نفس الظروف والأسباب ؟

ـ تقريبا ..

ـ ومن أولئك الشياطين ؟

ـ علمى علمك !

ـ كيف يمكن أن تقع تلك الأحداث ؟!

ـ كما يقع غيرها ..

ـ أمور تجنن ..

ـ لا تشغل بالك بما لا حل له .

ـ لا حل له ؟

ـ أجل بما لا حل له وحدثنى عن زواجك .

ـ لم أجد اثرا لدكانى الذى ضاع فى التنظيم .

ـ حدثنى عن زواجك .

ـ ذهبت إلى بيتى ، بيت الزوجية ، فوجدته مأهولا بأغراب !

ـ ضاع كل شىء ؟

ـ كل شىء .

فقال الملعون باسما :

ـ ولكن زوجتنا مازالت ترفل فى حلل السعادة .

ـ ألديك معلومات عنها ؟

ـ هل فى وسع عاشق أن ينزع عينيه من معشوقه ؟

ـ جاء دورى لأسألك .

ـ ما أكثر أخبارها وما أقلها ، حدث واحد يتكرر إلى مالا نهاية ، زواج طلاق ، زواج طلاق ، زواج طلاق ، زواج ..

ـ ما أعجب ذلك !

ـ ما أعجب ذلك !

ـ يالها من إمرأة !

ـ يالها من إمرأة !

ـ لكنها طعنت فى السن ؟

– جمالها فى عينى غير قابل للزوال !
– سيجىء يوم فيجرى عليها ما جرى علينا .
– أشك فى ذلك .
– لكل شىء نهاية .
– ليس كل شىء له نهاية .
– أنت تمزح ولاشك .
– لم قصدتنى فى ذلك اليوم المشئوم ؟
– أردت أن أناقش معك أسباب الفشل .
– أكنت بدأت تعانيه ؟
– أجل ..
– هى أسباب واحدة .
– حقا ؟
– ما العجب فى ذلك ؟
– إذن فهى إمرأة مريضة !
– الأصح أن تقول أننا نحن المرضى !
– لن يوفق معها رجل .
– لعله لم يخلق بعد .
– ولن يخلق أبدا .
– لاتحكم على المجهول .
– إنه شىء يفوق الخيال .
– كما أمكن أن توجد هى فمن الممكن أن يوجد هو .
فتنهد فى قنوط وقال :
– دلنى على عنوانها .
– لماذا ؟
– أرغب فى مقابلتها .
– لكنها لن تعرفك .
– أذكرها بنفسى فتعرفنى كما عرفتنى أنت .
– وما فائدة ذلك ؟
– أجل وما فائدة ذلك ؟
– خير من ذلك أن تفكر فى عمل تحصل به على رزقك .
– كنت أبرع صائغ .
– دعنا من كان وكنا ..
– ماذا أعمل ؟

ـ ممكن أجد لك عملا فى الروبابيكيا ولكنى من زمن أفكر فى مغامرة تعود علينا بالرزق الوفير ..

ـ ما هى ؟

ـ مشروع لم أجد الشريك الثقة له ..

ـ وهل أصلح له ؟

ـ سأجد لك غرفة للإقامة فوق سطح عمارة فى حى راق .

ـ وبعد ؟

ـ ومن خلال علاقاتى الكثيرة بالبيوت والناس سأشيع أنك من رجال الأمن السريين الدهاة ..

ـ رجال الأمن ؟

ـ وينتشر الرعب فى المساكن التى لا يخلو واحد منها من نقطة ضعف يخاف عليها من القانون ..

ـ وماذا نجنى من وراء ذلك ؟

ـ أمثل دور السمسار الخاص وأتلقى الهبات والهدايا !

ـ ياله من مشروع خيالى !

ـ هو أكثر من واقعى ، ستنهال علينا الأموال ، لن نسترد قوانا الضائعة ولكنا سنعيش فى رفاهية كالأحلام ..

ـ أتمنى أن تتحقق الأحلام .

ـ وإذا تحققت أمكن بفضل الرفاهية أن نجد الوسائل الكفيلة بالعزاء والنسيان ..

ـ نسيان المرأة وعشقها .. ؟

ـ أجل ولدينا فرص لا حصر لها لتكرار التجربة فى أحياء كثيرة .

ـ لو تحقق ذلك فهو المعجزة !

ـ أجل .. المعجزة !

* * *

« ٦ »

فى بهو فاخر جلس الشريكان . بينهما مائدة حفلت بما لذ وطاب من طعام وشراب . بهو كأنه متحف . وكانت أعينهما تلمع بالنشوة حين قال الصائغ وهو يرفع كأسه :

ـ صحة الضعف البشرى .

ـ وليدم إلى الأبد !
ـ أصبح الآن من الممكن أن ننسى .
ـ صدقت ولكننا لم ننس بعد تماما .
ـ كلما رجعنا إلى الافاقة رجعت الذكريات كالزنابير ..
ـ ياويلنا من الافاقة .
ـ ولكن لدينا مايشغلنا ، لدينا الطعام والشراب والتحف النادرة وأدوات الترف والحدائق والملاهى الليلية ..
ـ لدينا حقا مايشغلنا ولكنها تخطر على القلب فى الافاقة .
ـ مادامت وسائل النسيان متوفرة فلا خوف علينا ..
ـ فلنغرق فيها حتى الاعماق .
ـ إنها تطاردنا ولكنها لن تقبض علينا .
ـ نجونا من الجنون .
ـ ياله من جنون !
ـ عليها اللعنة .
ـ صحتك .
ـ صحتك .
ـ عليك أن تحصل لنا على عملة صعبة من السوق السوداء لنغزو السوق الحرة ..
ـ سيتم ذلك على خير وجه .. وأظن آن لى أن أذهب ..
ـ مصحوبا بالسلامة ..
ودعه حتى الباب . وجعل يذرع البهو وهو ينظر فى الساعة . حتى دخل الخادم وهو يقول :
ـ جاءت السيدة .
فقال بلهفة :
ـ أدخلها .
دخلت المرأة تخطف الأبصار بجمالها وبريق اللؤلؤة فوق صدرها . دعاها للجلوس وهو ينحنى لها تحية ، ثم قال :
ـ شرفت الدار .
ـ شكرا .
ـ كنت فى انتظارك لتسليمك القرض كما تم الاتفاق عليه مع زوجك .
ـ ولولا المرض لجاء بنفسه .
ـ أعرف ذلك ، شفاه الله ، ولكن اسمحى لى أن أقدم لك كأسا .
ـ شكرا ..

وتنهد الرجل وقال بأسى :
- إذن لم تعرفينى بعد ؟
فحدجته بنظرة غريبة فقال :
- أكثر من مرة تقابلنا بحضور زوجك ولكنك لم تعرفينى للأسف .
لم تحول عنه عينيها فقال :
- لم تتغيرى ، أما أنا ..
هتفت :
- أنت !
- أجل !
- أى مفاجأة ! ..
- لا تعجبى فأنت العجب .
ولاذت بالصمت دقائق ثم سألته :
- أين كنت طيلة ذلك الدهر؟
- الحق انى لا أدرى .
- غير معقول .
- هو غير معقول حقا ولكنه واقع .
- كنت فى مكان ما ولم تعن بالاتصال بى .
- كنت فى مكان ما واستحال على الاتصال بأحد .
- أين كنت ؟
- فى الظلام .
- لا أفهم .
- وليس عندى ما اقوله أكثر من ذلك . دعينا مما مضى وانقضى ..
- إنك لا تدرى مدى تلهفى على معرفة ذلك .
- وأنا عاجز عن إشباعه ! .
وتبادلا نظرة كئيبة حتى قال :
- وطلبت أنت الطلاق .
- إضطررت إلى ذلك .
- وتزوجت مرة بعد مرة ..
فلاذت بالصمت ، فقال :
- لك كمال مروع لايحتمل ..
فقالت بتبرم :
- دعنا من سيرته .
فتنهد قائلا :

ـ لذلك لا أجد فائدة فى منح القرض !
ـ ولكنك وعدته !
ـ لن يغير من المصير المقرر .
فسكتت متجهمة فقال :
ـ لا أشك لحظة واحدة فى أنك تؤمنين بقولى كل الأيمان .
فقالت بحزن :
ـ لن أنعم بالاستقرار فيما يبدو !
ـ لذلك أقترح عليك أن تعودى إلىَّ فعلى الأقل ستجدين عندى ثروة لا تنفد !
ـ غير ممكن ، أنت تؤمن بذلك أيضا .
ـ وقد تحدث معجزة !
ـ معجزة ؟!
ـ انى انتظر طبيبا يعد فى هذه الشئون معجزة !
فلاحت فى وجهها خيبة واضحة فقال :
ـ لا توصدى باب الأمل وانتظرى ..
وطبع على يدها قبلة حارة وهو يودعها .

* * *

« ٧ »

وجاء الطبيب فى ميعاده . جاء يحمل حقيبته وعصا غليظة . رحب به بحرارة ولكن شيئا فى منظره جذب إنتباهه فجعل ينظر إليه بدهشة حتى سأله :
ـ مالك تنظر إلىّ هكذا ؟
ـ الحق أنى أعجب للشبه العجيب بيننا !
ـ حقا ؟
تساءل الطبيب وهو ينظر فى وجهه بامعان فقال مستدركا :
ـ أعنى أيام شبابى ..
فابتسم للطبيب فقال الرجل :
ـ نفس الصورة والقوة !
ـ كل شىء محتمل .
ـ أكاد أرى فيك نفسى الذاهبة .
ـ سييسر ذلك من مهمة العلاج .
ـ يسعدنى ذلك .
وجال الطبيب بعينيه فى أنحاء البهو الفخم الجميل ثم قال ؛
ـ حدثنى عن دائك .

ـ لحظة واحدة حتى أفيق من الدهشة .
وتريث قليلا ثم قال :
ـ سمعت عن براعتك الكثير فهل حقا تستطيع أن تعيد الشباب ؟
ـ ذاك أيسر علىّ من التنفس .
ـ ياللسعادة .
ـ ولكن لم ترغب فى استرداد شبابك ؟
ـ ياله من سؤال يادكتور !
ـ يهمنى أن أعرف جوابك .
ـ ولكن الرغبة فى الشباب لاتحتاج إلى تبرير .
ـ أليس لحكمة الكهولة عشاقها ؟
ـ لا أظن .
ـ خبرنى على الأقل ماذا فعلت بشبابك ؟
ـ ولكن ألا يعد ذلك خروجا عن الموضوع ؟
ـ بل هو فى صميمه .
ـ حسن ، استثمرته فى كافة وجوهه .
ـ أبدا ، بددت شطره الأكبر فى الظلام .
ـ أعرفت ذلك ؟
ـ أجل .
ـ كيف عرفته ؟
ـ هو بعض عملى .
ـ طبيب انت أم قارىء غيب ؟
ـ هما شىء واحد .
ـ على أى حال لم أكن مخيرا .
ـ ومن قال أنه غير مخير فقد أهدر شبابه .
ـ كانت قوة مجهولة لم أعرف كنهها حتى اليوم .
ـ أى جهد بذلت لتعرفها ؟
ـ قلت أن البعد عنها غنيمة وسلام .
ـ وهكذا أهدرت شبابك للمرة الثانية .
وتبادلا نظرة طويلة ثم قال الطبيب :
ـ أصابك ما أصابك نتيجة لعجز محقق .
ـ عجز ؟!
ـ أجل ، فى العمل والحب .
ـ أعرفت ذلك أيضا ؟! أنك مذهل حقا .

- قلت أنه بعض عملى .
- أشهد بأنك عرفت حبى وعملى وضياعى .
- وأكثر من ذلك .
- أكثر من ذلك ؟
- أعرف أنك دجال لص ! .
تراجع الرجل متذعرا فقال الطبيب ضاحكا :
- تاجرت بالخطايا ، وحولت ثروتك الهائلة إلى تحف نادرة كما أرى .
إصفر وجه الرجل وارتعشت أطرافه فقال الطبيب :
- لا تخف ، أنا طبيب لا شرطى .
- سيدى .
- أفندم ؟
- ماذا تروم من وراء معرفتك اللانهائية ؟
- أروم الشفاء لمرضاى .
- أمازلت تنوى العلاج ؟
- بل بدأته منذ رأيتك .
- أترد إلىَّ شبابى ؟
- بلا أدنى شك .
- وتصون الأسرار التى عرفتها ؟
- إنه واجب الطبيب الأول .
فقال بإبتهاج :
- لست مرعبا كما يتبادر إلى الذهن .
- سيعود إليك شبابك الحق .
- متى .. متى يادكتور ؟
- قبل أن أغادر بيتك .
- إنك لساحر .
- ولكنك ساحر أيضا !
- أنا ؟!
- استعضت عن الحب بالثروة ثم حولت الثروة إلى طعام ، وشراب وتحف .
- هى الرغبة فى النسيان .
- ولكنك كنت تخاف النسيان بقدر ماتتمناه .
- ربما !
- حسن ، سيعود إليك الشباب .
وقبض على عصاه بشدة وهو يقول :

ـ آخر خطوات العلاج هى أصعبها .
وبسرعة جنونية راح يهوى بعصاه على كل ثمين فى البهو . لم يبق على شىء من التحف والصور والمصابيح والثريات والحلى . ولم تكف يده عن توجيه الضربات حتى أصبحت الجواهر أكواما من الشظايا . وإنزوى الرجل فى أثناء ذلك فى أحد الأركان وهو يرتعد رعبا ويصرخ بصوت مبحوح . وتنهد الطبيب فى ارتياح وقال بهدوء :
ـ عملية من أشق ما صادفنى فى حياتى الطبية .
فصاح الرجل :
ـ أنت مجنون .
ـ أصدق التهانى .
فصاح الرجل :
ـ خربتنى الله يخرب بيتك .
ـ أكرر التهنئة .
ـ أنت مجنون .
ـ يسعدنى أن أسمع أسلوب الشباب يجرى على لسانك . وتناول حقيبته ومضى نحو الباب وهو يقول :
ـ عليك الآن أن تصون شبابك بعد أن رجع إليك بمعجزة وأن تنفقه فيما يليق بروعته ، وإذا حدثت مضاعفات غير متوقعة فتلفن إلىَّ من فورك .

* * *

« ٨ »

رقد ذاهلا بين الخرائب . ضاعت الحبيبة وهلك مايمكن أن يتسلى به عنها . لم يبق إلا الفقر والتشرد والهيمان المحروم . كان يفكر فى ذلك عندما تناهى إليه صوت أجش وهو ينادى « روبابيكيا » . نهض متثاقلا فناداه من النافذة . جاء الرجل فنظر فى أنحاء البهو بدهشة ثم نظر إلى صاحبها متسائلا ولكن هذا قال له متجاهلا تساؤله الصامت :
ـ افحص هذه البقايا واختر مايصلح لك منها .
ـ أوقع زلزال فى مسكنك ؟
فقال واجما :
ـ اختر مايصلح لك .
ـ الشظايا لن تنفعنى بطبيعة الحال ولكنى آخذ ما يمكن إصلاحه أو تهيئته

بطريقة ما .

- ليكن .

وانكب التاجر على بقايا التحف المتناثرة يأخذ واحدة من بين كل عشرين وسرعان ما كف وهو يقول :

- لم يبق شيء ذو قيمة .

- منذ لحظات كان كل شيء محتفظا بقيمته .

فنظر إليه التاجر في ارتياب وسأله :

- هل زارك الطبيب ؟

فسأله بدوره داهشاً :

- من أدراك بذلك ؟

- قصته أصبحت مشهورة .

- وأنا الذى دعوته بنفسى !

- هو على أى حال لايزور إلا من يدعوه بنفسه .

- ولا فائدة من الندم ! .

- ولا فائدة من الندم .

- لعلك دعيت إلى بيوت أخرى خربها وذهب ؟

- يكاد عملى هذه الأيام يقتصر على شراء مخلفاته .

- الحق أني في مسيس الحاجة إلى نقود .

- لن تحصل على شيء يذكر .

- افحص من جديد .

- لا فائدة ، ولكن هناك فكرة لا بأس بها .

فتساءل الرجل بلهفة :

- ما هى ؟

- توجد تحفة قديمة لم يصبها التدمير .

- أين هى ؟

فأشار إليه قائلا :

- هى أنت !

- أنا ؟ .. أجننت ؟

- هى التحفة القديمة الوحيدة التى لم تمس .

- أتريد أن تشترينى كالأشياء القديمة ؟

- خير من الموت جوعا .

- يالك من مهذار !

- لا أعرف الهذار فى العمل .

- اغرب عن وجهى .
- خير من أن تموت جوعا .
- سأبدأ من جديد .
- لعلك تأمل فى مساعدة شريكك الغنى ؟
- أتعرفه أيضا ؟
- حكايتكما ذائعة فى سوق الكانتو !
- هلكنا !
- كلا فإن أهل المهنة الواحدة لا يخون بعضهم بعضا .
- إذن فلأنتظره .
- ولكنه قبض عليه فى السوق السوداء .
- ياللكارثة !
- لم يبق لك إلا أن توافق على رأيى .
- إنى أحتقر رأيك .
- سأنفذه أردت أم لم ترد .
- أتركن إلى القوة اطمئنانا إلى ضعفى وشيخوختى ؟
- إنى أتعامل عادة مع الأشياء القديمة .
- سأقاومك والويل لك .
- افعل إن استطعت .

وتقدم منه بثبات فرفعه إلى كتفه كطفل ، ومضى به إلى الخارج غير مبال بحركات ساقيه ولا بقبضاته الواهنة المنهالة فوق ظهره .

* * *

« ٩ »

دفع التاجر العربة والرجل راقد فيها بين الأشياء القديمة وكان يصيح بصوته الأجش بين أونة وأخرى « روبابيكيا » . وبلغ طريق النيل لدى هبوط المغيب . وبدا الرجل مستسلما ولكن عينيه تحولتا تلقائيا نحو كورنيش النيل . وخطف بصره شىء يلمع . أحد بصره فرأى اللؤلؤة تتراقص فوق صدر المرأة الفاتنة . كانت تسير على مهل كأنما تبحث عن رجل جديد ودبت فيه حيوية من لاشىء فأنتظر اقترابها على لهف . ولكنها حاذته ومرت به دون أن تلتفت نحو العربة . مضت فى الاتجاه المضاد تضىء لؤلؤتها قتامة المغيب .

شهر العسل

تهلل وجهاهما بالرضا وهما يدخلان . وقفا تحت النجفة الصغيرة يلقيان نظرة شاملة على الحجرة . وقاسا بعين دقيقة المسافة بين الكنبة الرئيسية والصوان الجامع للراديو والتليفزيون . ونظرا إلى الفريجيدير القائم فى الركن بشىء من الفتور إذ كانا يتمنيان لو اتسعت له حجرة السفرة . قال باسما وهو يختال فى بدلته الجديدة :

ـ مباركة عليك الشقة الجديدة ياحبيبتى .

ـ مباركة عليك ياحبيبى .

ـ يتجلى ذوق والدتك فى تنسيقها البديع .

ـ ولا تنس دور ذوقى فى ذلك .

فلثم خدها وهو يضحك ثم قال :

ـ شقة لقطة !

ـ حقيقة ..

ـ ترى أين أم عبد الله ؟

ـ لعلها فى المطبخ أو الحمام ..

ـ ترينها ياعزيزتى أهلا للثقة ؟

ـ كل الثقة ، لم تفارق ماما منذ كانت فى العاشرة .

ـ ستقيم فى شقتنا أكثر منا ، وستدير جميع شئونها ، أما نحن فلن نهنأ بها إلا حين الراحة والنوم ..

ـ ندر بين أمثالنا من الأزواج العاملين من ظفر بمديرة بيت مثلها .

ـ أى بهجة لشقة جميلة كهذه بدون مديرة ؟

ـ هذه هى الحقيقة ، وهى فى ذات الوقت مشكلة ، ولكن ..

وجعلت تتشمم الهواء فى قلق وتتساءل :

ـ ألا تشم رائحة غريبة ؟

ـ رائحة غريبة ؟ .

وراح يتشمم بدوره ثم قال :

ـ أجل .. ثمة رائحة غريبة ..

ـ رائحة طبيخ ..

وقاما بجولة تفتيش في الأركان ، تحت المقاعد ، تحت الكنبة ، وصاح الشاب باستنكار :

ـ توجد حلة تحت الكنبة ..

ـ حلة ؟!

أخرجها الشاب بوجه متقزز وهو يتمتم :

ـ حلة طبيخ فى حجرة الجلوس !

ـ وهو طبيخ حامض ، ما معنى ذلك ؟!

ـ شىء لا يتصوره العقل ..

وصفق بيده بشدة ونرفزة . وصاحت الفتاة :

ـ أم عبد الله !

ـ ترامى إليهما وقع أقدام ثقيلة . دخل رجل قصير بدين مصبوب فى كتلة قوية كأنه برميل . غليظ الرأس والوجه والعنق كأنه مصارع محترف ، ومن عينيه الغائرتين تنبعث نظرة جامدة بليدة . وقف فى بنطلونه الترابى وقميصه الأسود وحذائه المطاط ، ينظر إليهما ببلادة وعدم اكتراث . صرخت فى عينيهما نظرة ذاهلة غير مصدقة . تبادلا نظرة سريعة ثم عادا للحملقة فى وجهه البليد . وسألته الفتاة :

ـ من أنت ؟

لم يجب . كأنه لم يسمع . سأله الشاب بصوت رنان :

ـ من أنت ؟

فنظر إلى الشاب مليا ثم تمتم بهدوء بارد :

ـ أنا ابن أم عبد الله ..

ـ ومن أذن لك بدخول الشقة ؟

ـ استدعتنى لأحل محلها فى أثناء غيابها ..

ـ أليست فى الداخل ؟

ـ سافرت إلى طنطا لحضور مولد السيد .

ـ متى سافرت ؟

ـ صباح اليوم ..

فقالت الفتاة باستياء :

ـ لكنها لم تستأذن منا ، بل ولم تخطرنا ..

فجعل ينظر ببلادة وعدم اكتراث حتى سأله الشاب :

ـ ومتى ترجع ؟

ـ لا أدرى .

ـ وماذا كنت تفعل ؟

ـ لا شىء ..

ـ ماذا تعرف من شئون المنزل ؟

ـ لا شيء .
ـ ألك حرفة تتعيش منها ؟
ـ كلا .
ـ وكيف تعيش ؟
ـ آكل وأشرب وأنام .
فنفخ الشاب فى يأس ، ثم سأله :
ـ ولم استدعتك أمك إذا كنت لا تحسن شيئا ؟
ـ لأحل محلها فى أثناء غيابها .
ـ ولكنها تقوم هنا بكل شيء .
ـ قالت لى ابق هنا حتى أرجع .
لوى الشاب شفتيه امتعاضا . أشار بحدة إلى الحلة ، وسأله :
ـ ألم تر هذه الحلة من قبل ؟
فنظر الرجل إليه فى بلاهة وقال :
ـ لا أتذكر .
ـ ألم تأكل من الكرنب ؟
ـ أكلت ..
ـ فى هذه الحجرة ، أليس كذلك ..؟
ـ لا أتذكر !
ـ ثم دفعت بها تحت الكنبة ؟
فقال فى ابتهاج طارئ :
ـ بحثنا عنها طويلا ..
فنفخ الشاب فى غيظ وقال :
ـ لا جدوى من الكلام ، على أى حال تفضل غير مطرود !
فاستدار ليرجع من حيث أتى ولكن الشاب استوقفه ثم أشار إلى ردهة مفضية الى الباب الخارجى . فمضى الرجل نحوها بشكل آلى ، غاب قليلا ثم رجع وهو يقول :
ـ ذاك الباب يؤدى إلى الخارج !
ـ أعرف ذلك .
ـ أتطردنى ؟
ـ لا حاجة بنا إليك .
ـ قالت لى ابق حتى أرجع .
ـ ولكنى صاحب الشقة !
ـ أنا لا أعرف إلا أمى !

فصاحت الفتاة :
ـ أتريد أن تبقى بالقوة ؟
فقال بثقة :
ـ سأبقى حتى ترجع .
ـ ولكننا لا نريدك .
ـ سأبقى حتى ترجع .
فذهلت الفتاة ونظرت صوب زوجها . شعر الفتى بأنه مطالب بأداء واجب فوق احتماله . وبدا أمام الرجل كغصن طرى حيال جذع شجرة بلخ . واحتدم غضبا فصاح بالرجل :
ـ اذهب فى الحال .
ـ قالت لى ابق حتى أرجع !
ـ اغرب عن وجهى بلا مناقشة .
ـ لن أذهب . اذهب أنت إذا شئت !
أعماه الغضب فانقض على الرجل ودفعه بكل قوته . لم يتأثر الرجل أقل تأثر ودفعه بكتفه دفعة بسيطة فانقذف الشاب إلى أقصى الحجرة متعثرا فى طريقه بخوان فسقطا سويا . نهض بسرعة لاعنا ولكنه كف عن تجربة قوته . واندفعت الفتاة نحو النافذة المطلة على الطريق ففتحتها على مصراعيها وراحت تصوت بأعلى صوتها مستغيثة . وإذا بأصوات ترتفع لاعنة فى غضب ، وإذا بالطوب ينهال على النافذة ويمرق بعضه إلى داخل الحجرة حتى تنحت الفتاة والفتى فى ركن آمن وهما مذهولان .
تساءلت وهى ترتجف :
ـ ماذا جرى للناس ؟
ـ يقذفوننا بالطوب بدلا من إغاثتنا !
والرجل الغليظ لم يسكت . تقدم خطوات فتناول الخوان المقلوب وجرى نحو النافذة فرمى به منها بأقصى قوته ، ثم أغلق النافذة !. فصاح الشاب :
ـ ماذا فعلت ؟
فعاد الى موقفه وهو يقول :
ـ طيلة الوقت تبادلنا الضرب .
ـ الضرب ؟
ـ وانتصرت عليهم دائما ! .
فسألته الفتاة بحنق :
ـ كيف جعلت من شقتى ميدان قتال ؟
ـ الحق عليهم ، كلما ظهرت فى نافذة بادرونى بمعاكساتهم ، اضطررت الى

قذفتهم بالأطباق فقذفونى بالطوب ..

ـ لقد جعلت من أهل الطريق أعداء لنا !

ـ لا يهمك .

ـ ألا ترى أنك تتصرف فى الشقة كما لو كانت ملكك الخاص ؟

ـ الحق عليهم كما قلت لك .

ـ إنك تبدد الأشياء الثمينة وتعرضنا للخراب .

ـ أهذا جزاء من يدافع عن شقتك ؟

ـ ياسيدى تشكر ، ما نريد منك إلا أن تذهب بسلام !

هز منكبيه العريضين ثم ذهب إلى الردهة المفضية إلى الباب الخارجى . لكنه لم يلبث أن عاد فرفع الحلة فى هدوء ومضى بها إلى الداخل . همست الفتاة :

ـ النجدة !

انتقل الشاب إلى التليفون فرفع السماعة ، جعل ينقر عليه ، ثم أعادها غاضبا وهو يقول :

ـ حرارته مفقودة !

ـ رباه !

ـ لعله عبث به ، ومن يدرى فلعله عبث بالراديو والتليفزيون أيضا .

ـ كارثة حلت بشقتنا الجديدة ، ولكن لابد من عمل شىء ..

ـ فلنذهب سويا إلى نقطة الشرطة ..

ـ قد ينتقم من الشقة فى غيابنا ..

ـ لابد مما ليس منه بد ..

مضيا معا نحو الباب الخارجى ولكنهما رجعا وهو يقول :

ـ أغلق الباب بالمفتاح !

ومضى يفتش عن المفتاح حيث وضعه على ترابيزة صغيرة فلم يجده .. تمتم :

ـ ليس الوحش غبيا كما تصورت ..

ـ لقد سجننا .

ـ حتام نمضى فى السجن تحت رحمته ؟

ـ ذلك لا يمكن أن يقع ولا فى الخيال !

وإذا بدفقة مروعة من أصوات خشنة مختلفة المصادر تنقذف من ناحية المطبخ . وقع أقدام ، ارتطام بجدران ، سقوط أوعية ، تحطيم آنية ، صيحات وعيد . وقبل أن يفيق الزوجان من الصدمة الجديدة اندفع الرجل الغليظ مشتبكا مع آخر فى مثل حجمه إلى الحجرة وهما يتصارعان . تصارعا بعنف ووحشية وكل منهما يحاول قهر الآخر . فمرة يقع هذا تحت الآخر ومرة العكس . حتى تمكن الرجل الغليظ من غرس الآخر تحته دون أن يدع له فرصة للإفلات أو الحركة ، ثم

هتف بصوت جذلان :

- فيفا فلا !

ونهض فنهض الآخر . تصافح الاثنان كما يتصافح متباريان عقب مباراة عادلة . وانتبها إلى الزوجين فجعلا ينظران إليهما ببلادة وبرود . وحل صمت ثقيل كالاختناق . ثم خرج الشاب من ذهوله فأشار إلى الرجل الجديد وسأل ابن المديرة :

- من هذا ؟
- صديق !
- أكان موجودا معك من قبل ؟
- نعم ..
- هل علمت أمك بوجوده ؟
- كلا .
- وكيف تدعوه إلى شقة آخرين ؟
- دعوته لأنى لا أحب الوحدة . ولنواصل تدريبنا ..
- أأنت رجل عاقل ؟
- نحن نتصارع فى الموالد ولا غنى لنا عن التدريب المستمر ..
- لعلك توهمت أنك صاحب الشقة !
- أنا لا أحب الإقامة فى البيوت !

فقالت الفتاة :

- إذن غادر بيتنا مصحوبا بالسلامة !
- قالت لى ابق حتى أرجع ..

فقال الشاب :

- نحن على استعداد للذهاب فلم أغلقت الباب بالمفتاح ؟
- حتى ترجع أمى من المولد ..
- ولكننا نريد أن نذهب ..
- إلى أين ؟
- ياله من سؤال ، ألسنا أحرارا ؟!
- ومن أدرانى أنكما صاحبا الشقة الحقيقيان ؟
- أيداخلك شك فى ذلك ؟
- يجب أن تبقيا معنا حتى ترجع أمى من مولد السيد .

فعض الشاب على أسنانه من الغيظ وقال :

- على الأقل يجب أن تلتزم بالنظام !

فأشار الرجل الغليظ إلى زميله قائلا :

- أراد أن يجرب قوته معى وقد رأيت النتيجة بنفسك !

ـ حسبكما ما كان من ضجيج وتخريب .
ـ لن يأتيك من ناحيتنا بعد ذلك الا الطرب !
ـ أريد الهدوء الشامل الكامل ..
ـ ألا تحب الغناء والرقص ؟
ـ الغناء والرقص !
ـ معنا فى المطبخ راقصة وبعض أفراد الجوقة !
فصاح الزوجان معا :
ـ ماذا تقول :
ـ إنهم من الزملاء الموثوق بهم ..
ـ لقد جعلت من الشقة ساحة مولد !
ـ لم تعقدان الأمور بلا سبب ؟
ـ كل ذلك وتقول بلا سبب ؟!
ـ ما كنت أتصور وجود ناس يكرهون الناس والطرب بهذه القوة !
ورفع منكبيه العريضين استهانة ، ثم تأبط ذراع صاحبه ، ومضى به إلى الداخل . وجعلا يتبادلان النظر فى غضب ويأس حتى ترامى إليهما دق دف وعزف مزمار وإيقاع رقص ، وما لبثت الحناجر الخشنة أن غنت بغرابة :
يا زرمباحه يا زرمباحه خواتمك سته وقداحه
هتفت الفتاة :
ـ سأجن إن لم أكن جننت بالفعل .
ومضى الشاب نحو النافذة بتصميم فقالت له محذرة :
ـ الطوب !
ـ لعلهم ذهبوا ..
ثم وهو يمسك بمقبض الضلفة :
ـ علينا أن نوصل صوتنا إلى الناس !
ولكن ما كادت الضلفة تتحرك حتى انهال الطوب عليها كالرصاص . أغلقها مرة أخرى وهو يسب ويلعن . وتساءل فيما يشبه التنهد :
ـ غلبنا على أمرنا ؟
فتمتمت :
ـ إنه كابوس قاتل ..
ـ ولكن لابد أن يوجد مخرج .
ـ أجل ، يجب أن يوجد مخرج..
ـ ولكن ماهو ؟
ـ أجل ، ماهو ؟

وتفكر قليلا ثم تساءل :
ـ لنسأل أنفسنا ماذا نريد ؟
ـ أظننا جئنا ونحن نحلم بقضاء شهر عسل سعيد !
ـ ولكن عاقنا عن ذلك وجود أولئك الشياطين .
ـ فعلينا أن نتخلص منهم .
ـ طيب ، فلنفكر كيف يمكن التخلص منهم .
ـ الباب مغلق ، التليفون معطل ، النافذة ينهال عليها الطوب .
ـ إذن فلا مفر من الاعتماد على أنفسنا !
ـ ولكننا دونهم فى القوة بما لا يقاس !
ـ ولكن هنالك الحيلة .
ـ أجل .. الحيلة .
ـ هل يسعنا حبسهم فى المطبخ ؟
ـ يلزمنا معاينة المكان هنالك .
ـ سأذهب لصنع فنجان قهوة ..
ودون تردد غادر الحجرة .. ثم رجع بالقهوة فسألته بلهفة :
ـ ماذا وجدت ؟
فقال بضيق :
ـ باب المطبخ مفتوح والزمار جالس على الأرض مسند الظهر إليه ، ولكن لم يمت الأمل .
ـ حقا ؟
ـ اختلست مفتاح المطبخ من فوق الرف .
ـ ألم تعثر على مفتاح الشقة ؟
ـ ليس الرجل بالغباء الذى تتصوره ولكنهم ..
ـ ولكنهم ؟..
ـ يتجرعون النبيذ بإفراط !
ـ ننتظر حتى يفقدوا الوعى ؟
ـ أجل ..
ـ لكنه سلاح ذو حدين !
ـ أجل ، قد يزدادون جنونا ، ولكن إذا غلبهم النوم فسوف يتساوون بالأموات .
ـ علينا أن ننتظر الليل .
ـ وليس الليل ببعيد !
تنهدت فى ضيق شديد متسائلة :
ـ متى ترجع أم عبد الله ؟

ـ ذاك يتوقف على انتهاء المولد .
ـ ألديك فكرة عن تاريخ الليلة الكبيرة ؟
ـ لا فكرة عندى عن الموالد .
راحت الفتاة تذرع الحجرة محنية الرأس تحت هم ثقيل . حانت منها التفاتة إلى ما وراء الفريجيرير فشد بصرها شيء ما . اقتربت منه ممعنة النظر ، ثم قالت باستغراب :
ـ أرفف الفريجيرير مخلوعة ومطروحة أرضا وراءه !
وانتقلت إلى باب الفريچيدير فجذبته . وإذ بكتلة بشرية تندلق من داخله منكفئة على وجهها فوق الأرض .
صرخت الفتاة بجنون وهى تترنح . وثب الشاب إليها فتلقاها بين ذراعيه . تفحص الكتلة المطروحة بذهول ، انحنى فوقها حتى رأى الوجه ، ثم هتف :
ـ أم عبد الله !
أجلس الفتاة على مقعد ورجع يفحص المرأة ويجسها ثم تمتم بذهول :
ـ جثة هامدة !
واقتحم الحجرة الرجل الغليظ وجوقته وهو يقول بنبرة انتقاد :
ـ ألا تكفان عن الضوضاء ؟
وتابع عينيهما ببصره حتى استقر على الجثة المنكفئة فتساءل :
ـ ما هذا ؟..
ولما لم يسمع جوابا صاح بغضب مخاطبا الشاب :
ـ أجب !
فقال الشاب بغضب كظيم :
ـ إنها جثة ..
ـ جثة ؟؟
ـ نعم .
ـ أهى شقة أم مقبرة ؟
ـ كانت شقة فأصبحت مقبرة ..
ـ أين وجدتها ؟
ـ فى الفريچيدير .
فقال المصارع الآخر ببلاهة :
ـ إنهما يتغذيان على لحوم البشر .
فقال الشاب بحدة :
ـ لقد قتلت ثم دفنت فى الفريچيدير .
فسأله الرجل الغليظ وعيناه تلتمعان بالسكر .

ـ وماذا حملك على قتلها ؟.
ـ لقد قتلت من قبل وصولنا إلى شقتنا .
ـ فمن الذى قتلها فى رأيك ؟
ـ دعنى أسألك أنت فقد كنت قابعا هنا من قبل أن نحضر .
فالتفت الرجل إلى أفراد جوقته وسألهم :
ـ ما رأيكم فى مكابرة هذا الرجل ؟
فقال الزمار :
ـ يقتل القتيل ويسأل عن قاتله ..
وقال الطبال :
ـ إنه مجنون ، لابد أن يكون مجنونا من يرتكب جريمة كهذه .
وقالت الراقصة :
ـ ودفنها فى الفريجيدير على أمل أن تتحول إلى ديك رومى !
فقال الشاب مخاطبا الرجل الغليظ :
ـ انظر الى وجه الجثة .
ـ لا تهمنى معرفته ..
ـ إنها جثة أمك !
فضجت الجوقة بالضحك فصاح الشاب :
ـ إنها جثة أم عبد الله ..
فقال الرجل الغليظ بصوت ملتو :
ـ أمى ذهبت إلى مولد السيد !
ـ فأشار الشاب إلى الجثة وسأله فى هياج :
ـ أليست هذه بأمك ؟
قالت الراقصة :
ـ كانت أمه يامجرم ..
وقال الزمار :
ـ امه ذهبت الى مولد السيد .
وقال الطبال :
ـ انه يدعى الجنون ليفلت من العقاب .
وصاح الرجل الغليظ :
ـ كيف تنبش القبر لتعبث بالجثث ؟
فهتف الشاب :
ـ لن تفلتوا من يد العدالة .
فقال الزمار :

ـ تقتل مديرة بيتك ، ياللك من وغد خسيس ..
وقالت الراقصة :
ـ قتلها كيلا يدفع لها اجرها .
وقال له الرجل الغليظ :
ـ الويل لك ايها المجرم ..
فصاح الشاب متحديا :
ـ اهذا ظنكم حقا ؟ .. اذن فاستدعوا الشرطة !
فضجوا بالضحك ، وقال الرجل الغليظ :
ـ نحن الشرطة ونحن القضاة ..
فقالت الراقصة :
ـ فلنقدمه الى المحاكمة ..
فقال الرجل الغليظ :
ـ بعد ان نفرغ مما كنا فيه ..
وتعالى هتافهم فى حبور ، ثم غادروا الحجرة وراء الرجل . اغمض الشاب عينيه اعياء . تجنب النظر نحو عروسه المنطرحة فوق المقعد . رفع الجثة من الأرض فارقدها فوق الكنبة وغطى وجهها بخمار كان معقودا حول رقبتها . انتقل الى فتاته متمتما :
ـ كيف حالك ؟
فقالت بصوت ضعيف :
ـ سيقضون علينا قبل ان نقضى عليهم .
ـ من العسير ان يتخيل انسان ماذا تكون خطوتهم التالية فهم لايخضعون لمنطق ..
ـ علينا ان نجد حلا سريعا ..
ـ وان نتوقع ما يخطر بالبال ومالا يخطر .
ـ لن يتركونا احياء ..
فقال محتدما بالغضب :
ـ اذا لم يكن من الموت بد !
فهمست :
ـ هذا جميل ، ولكننا نفضل الا نموت .
ـ ولا احد يريد ان يموت ، من رأيى ان تستريحى قليلا فى حجرة النوم .
ـ وانت ؟
ـ لا اكف عن التفكير ، واردد فى نفسى بلا انقطاع : اذا لم يكن من الموت بد !

- هل يحاكمونك حقا ؟
- لن يتورعوا عن شيء .
- انه الكابوس .
- وربما قتلونى كما قتلوا المرأة الطيبة .
- ترى اهى امه حقا ؟
- لن يغير من الامر شيئا .
فقالت باصرار :
- يجب الا نموت كالأغنام .
- حتى الموت ، يجب ان ندافع عن انفسنا حتى الموت ، وان ندخر لهم ضربة مذهلة ان امكن .
- اريد ان افعل شيئا ذا بال اكثر من مجرد انتظار نتيجة معركة .
- فكرى ، فكرى لحسابك ، نحن فى موقف لايجوز لاحدنا فيه ان يدعى وصاية على اخر .
- اعترف لك باننى اتغلب على الخوف بقوة لم تكن متوقعة .
- الموقف اكبر من الخوف .
- هذا حق .
- والحرص على الحياة خليق بان يضيع الحياة
- قول جميل
- يجب ان تكون لنا القوة لتنفيذه ، هذه هى مشكلة الاقوال الجميلة .
- ألديك خطة جديدة ؟
- لا اكف عن التفكير .
- وانا ايضا
- المهم قوة العزيمة اذا وفقنا الى خطة
- مهما يكن من عواقبها ؟
- مهما يكن من عواقبها ..
وهى تتنهد :
- كنت احلم بشهر عسل بديع .
- انبذى الاحلام التى تضعف الهمم .
- طيب .
- استريحى قليلا فى حجرة النوم .
- اخشى ان يلاحظوا اختفائى اذا قدموا
- انهم سكارى وهم يقصدوننى اولا .
قامت . قبلته . مضت الى حجرة النوم .
ومضت فترة قصيرة ثم دخل الرجل وجوقته . لمعت اعينهم بوهج الخمر وشعت

اساريرهم شرا .

وقفوا حيال الشاب على هيئة نصف دائرة مركزها الرجل الغليظ . اشار الرجل الى الجثة وسأل :

ـ من قتل هذه المرأة ؟

فاجابت الجوقة فى نفس واحد :

ـ انت يامعلم !

ضحك وضحكوا . ثم سأل :

ـ بم تحكمون علىّ ؟

فأجابوا :

ـ بالسلامة .

فضحك وضحكوا . ثم سأل :

ـ من الذى انتهك حرمة الجثة ؟

فاشاروا الى الشاب وقالوا :

ـ هذا المجرم .

ـ بم تحكمون عليه ؟

ـ بالاعدام .

فرمى الشاب بنظره وسأله :

ـ هل لديك ماتدافع به عن نفسك ؟

فلم يجب . نقل بصره بين الجمع بسرعة وتحفز وانتباه ، وتوثبت الجوقة للانقضاض لدى اول اشارة .

عند ذاك دوت صرخة فظيعة فى حجرة النوم ، اندفعت الفتاة الى الحجرة وهى تصيح :

ـ رجل فى صوان الملابس !

وهتف كثيرون فى دهشة :

ـ رجل !

وظهر الرجل فى مدخل الحجرة . عملاق ينطق وجهه البرنزى بالقوة والتحدى والاستهتار . تبادلوا نظرات ذاهلة وغاضبة ، وتأهبوا للعواقب .. لم يبد فى وجه القادم الجديد اى ارتباك ولاخوف ،بل تساءل بصوت اجش :

ـ من انتم ؟ .. وماذا جاء بكم الى هنا ؟

فسأله الشاب بدوره :

ـ من انت ؟ وماذا جاء بك الى هنا ؟

اجاب العملاق ببساطه :

ـ انى فى بيتى !

ـ بيتك ! .. لكنه بيتى ، وتحت يدى مايثبت ذلك

ـ لا احب الهذر ، انه بيتى وكفى .
فقال الرجل الغليظ بحقد :
ـ دجال ، انت لص منازل حقير ، سأتذكر فورا متى رأيتك اول مرة ..
ـ صه ايها البهلوان والا حطمت اضلعك !
ـ انت تقول ذلك يالص المنازل ؟
ـ مصارع موالد زائف ، المصارعة الحقيقية شىء اخر ، انى أعرفكم ايها المهرجون ..
فقال له الشاب :
ـ هذا بيتى ، وانت لص كالاخرين ..
ـ انت تهذى .
ـ سيحكم بيننا القانون ..
ـ سأقذف بك من النافذة ، هذا هو القانون الذى اعترف به ..
فسألته الفتاة :
ـ اذا كنت صاحب البيت كما تزعم فلم اخفيت نفسك فى صوان الملابس ؟
ـ انا حر فى بيتى ، ارقد حيث يطيب لى .
ـ لا احد يرقد فى صوان ملابس .
ـ انه خلوتى المفضلة ولست مسئولا امام احد .
فقال الرجل الغليظ :
ـ انت لص ، لض منازل حقير ، انى اعرفك .
ـ اخرس ايها المهرج الحقير .
فقال الشاب :
ـ لندع الشرطة ولنترك لها الفصل فى الامر .
فقال العملاق بوضوح :
ـ لا احب الشرطة .
فقال الشاب غاضبا :
ـ فانت لص كما قال هذا القاتل .
ـ القاتل ؟... هل قتل احدا هذا المهرج ؟
ـ ها هى جثة ضحيته !
فمد العملاق بصره الى الجثة وقال بدهشة :
ـ اى تقدم احرزته يامهرج الموالد !..
ـ وهى امه ايضا !
ـ قاتل امه !.. هذا شرف لا تستحقه ايها المهرج ، من أين جاءك هذا الشرف ؟
فقال الرجل الغليظ بحنق :

ـ يا لص المنازل ، احذر اثارة الزلازل !
فقال العملاق ساخرا :
ـ اهلا بالزلازل ، هى دواء موصوف لصحتى !
فى اثناء ذلك مضت الفتاة تتسلل ناحية المطبخ . خطوة فخطوة وعين الفتى تلحظها بقلق . وغطى على تحركاتها بتوجيه الخطاب الى الجميع قائلا :
ـ ما احوجنا الى تحكيم نزيه ، فهذا رجل يتوهم انه قاض وهو فى الحقيقة قاتل ، وذاك رجل اخر يزعم انه صاحب البيت وتؤكدون انه لص منازل حقير ، وانا اقول اننى صاحب البيت على حين يتهمنى هؤلاء باننى قاتل المرأة الطيبة . فما المخرج من هذه الفوضى ؟ لا مفر من ان نستدعى الشرطة ! فقال العملاق باستهانة :
ـ سيقذف بنا اقتراحك الى قعر بئر عميق .
ـ بل ليس اسهل من استدعاء الشرطة ..
ـ ولكن المشاكل تبدأ بمجيئها ، ستحرر لنا محضرا طويلا عريضا لا بداية له ولا نهاية ، ثم تأمر بتحويلنا الى النيابة ويستمر التحقيق اياما واسابيع ، من القاتل .. من اللص .. من صاحب الشقة ، ثم تامر بتحويلنا الى المحكمة ، ويتقاذفنا الاتهام والدفاع حتى ننفق ، ونؤجل من جلسة الى اخرى ، ولن ينطق بالحكم حتى يكون اول انسان قد هبط فوق سطح القمر ، وفى اثناء ذلك تغلق الشقة وتختم بالشمع الاحمر فتصير نهبا للحشرات والاشباح ، لاتنس هذه السلسلة المعقدة التى لا نهاية لها ..
ـ ولكنها حاسمة وعادلة !
ـ أيسر من ذلك ان تنقض على خصمك فتحطم جدران بطنه بلكمة صادقة فيعترف لك بحقك ، ثم تتصافحان ويذهب كلاكما الى حال سبيله ..
وتقدمت الراقصة خطوة وقالت :
ـ فيم تتناقشون والعقدة محلولة بنفسها لا تحتاج الى حلال ؟
فقال العملاق ساخرا :
ـ لنستمع الى الغازية !
ولكنها قالت بهدوء دون تأثر أو غضب :
ـ لا حاجة بنا الى البحث عن القاتل فقد حوكم وقضى عليه بالاعدام !
فقال الزمار بحماس :
ـ وباعدامه يبطل ادعاؤه ملكية الشقة ..
وعادت الراقصة تواصل حديثها قائلة :
ـ وتصبح الشقة ملكا لنا جميعا على قدم المساواة !
فابتسم العملاق لاول مرة ولكنه قال بعجرفة :

ـ لا اقبل المساواة !
فقال الرجل الغليظ بعجرفة مماثلة
ـ وانا ارفضها !
فقال العملاق :
ـ ليكن نصيب كل بحسب قوته .
فقال الرجل الغليظ :
ـ ليكن ..
فقالت الراقصة :
ـ الخير بين ايدينا اكثر من ان يحصى !

احاطت الجوقة بالرجل الغليظ تحاول اقناعه . وتنحت الراقصة بالعملاق جانبا لتلطف من صلابته . اما الزوجة فقد رجعت خفية الى موقف زوجها ، وقفت لصقة وهى تدس شيئا فى جيبه ، وراحا يراقبان الحشد الذى يتآمر على قتلهما ونهب بيتهما بغرابة . غير ان طارئا سرى فى الجو بخفة كالهمس ، رائحة ما ، وشىء كالزفير او الهسيس ، وتفشى فى دفقات كالفحيح مفجرا رائحة مميزة كالدخان ، وانتشرت طقطقة مجنونة بسرعة غير متوقعة فاقتحمت على المتآمرين خلوتهم . جذبت منهم بعنف أعينا محملقة نحو ردهة المطبخ . وما لبثت ان غابت فى سحابات من دخان تسبح فيها عناقيد من الشرر ، وتلاطمت صرخاتهم فى غضب :

ـ النار !
ـ حريقة فى المطبخ !
ـ الشقة فى خطر .
ـ نحن فى خطر .
ـ كل شىء فى خطر .
ـ فلنطفئها بأى ثمن .

ودبت حركة وحشية . ولكنها لم تكن الا صدى خفيفا لحركة رعدية اطبقت على الطريق فى الخارج . ارتفع الصياح

دق جرس الباب بلا انقطاع . انهال دق عنيف على الباب الخارجى . وهرع المتآمرون الى ردهة المطبخ ، غير ان العملاق مال نحو الشاب فجأة وهو يصيح :

ـ لن اتركك حرا ..

انقض على الشاب . واذا بالشاب يفاجئه بضربة من سكينة استلها من جيبه فاستقرت فى القلب ، وتهاوى على اثرها العملاق دون ان ينبس . لم تغب الواقعة عن الرجل الغليظ فوثب على الشاب وهو يصيح :

ـ خيانة !

وفى الحال صرعه وبرك فوقه ، ولكن الزوجة استلت بدورها سكينة مدسوسة فى جيب معطفها وبكل قوتها غرزتها فى عنق الرجل .

وتتاعبت الاحداث فى سرعة البرق . تحطم الباب الخارجى اندفع منه رجال متهورون . ورن جرس المطافىء . وصفارة النجدة وارتطمت فى الشقة الجديدة قوى المقاومة بقوى الغدر فانخرطت فى معركة شاملة تحت ألسنة اللهب المندفع والماء المتدفق وقطع الاثاث المتناثرة ..

* * *

وفى المساء نشر الهدوء ألويته فوق الحى جميعه . خلت الشقة من الغرباء . ولم يبق بها قائم ، أن هى الا اشلاء مقاعد وحطام اجهزة ونفايات مفارش . جلس الزوجان على الهيكل أريكة تحت نجفة صغيرة لم ينج من مصابحها الا شمعة واحدة شعت ضوءا شاحبا . لم يخل وجهاهما ورأساهما من كدمات وتسلخات واورام خفيفة اما ملابسهما فقد تمزقت فى اكثر من موضع وتلوثت بالسناج . فجعلا ينظران فيما حولهما بوجوم ويتبادلان النظر . وفجأة اغرقا فى ضحك هستيرى ركبهما طويلا حتى رجعا الى الصمت والوجوم . ورغم كل شىء فان القلب لم يخل من ارتياح خفى ، وامتنان . وتردد صوته فى اعياء :

ـ ضاع كل شىء ..

فربتت على كتفه بحنان وقالت :

ـ نجونا باعجوبة !

فهز رأسه موافقا فى تسليم وتمتم :

ـ اجل نجونا باعجوبة ..

ثم بنبرة وشت بنشوة طارئة :

ـ لم يضع شىء لايمكن تعويضه ..

الطـــــــــــول

دق جرس المنبه فى رنين متصل فدبت فى الأسرة حركة شاملة . ثمة تثاؤب هنا وهناك يند وسط همهمات كطنين النحل وضحكات طافحة بالبشر وتأهاوت مرحة . وفتحت النوافذ فتدفق الفجر الغامض متسربلاً بنسيم ندى مفعم بشتى الطيوب وانفاس الطبيعة النقية . وارتفع صوت القائد دسما واضح النبرات يقطع بأنه سبقنا الى الاستيقاظ منذ أمد وتأهب لاستقبال اليوم الخطير ، قال :

ـ السرعة والنظام والجد ، لديكم ثلث ساعة حتى تجتمعوا حول مائدة الافطار .

وانتشرت الحركة فى نشاط بهيج . اقيدت الأنوار فى المغاسل ، طرقعت الشباشب فوق البلاط ، سالت المياه من الصنابير ، وهدرت السيفونات ، وأزت الجلاقات الكهربائية .

ـ الفجر يبشر بجو طيب .

ـ يجب ان نقطع شوطا ملحوظا قبل ان ترتفع الشمس .

ـ لكن الظهيرة آتية والصيف لا قلب له .

سرعان ما امتلأت الكراسى الخشبية حول المائدة المستطيلة ببهو الطعام . استقرت الجاكتات الكاكية والبنطلونات القصيرة فوق الأجساد الرشيقة . عقد كل حمالة صفارته حول عنقه وأرسى عصاه الى طرف المائدة جنب زمزميته وحقيبته . وصب الشاى فى الأقداح وتخاطفت الأيدى الفطائر والجبن والعسل الأسود . وتتابع التمطق فى سرعة تنذر بتوقعات متربصة . والحق ان القائد لم يمهلنا طويلا ، كأنما أراد ان يمتحن مرونتنا أو أن يذكرنا بسلطاته منذ البدء ، فنفخ فى صفارته مقدرا ربع دقيقة . نهضنا عجلين . ركبنا الحقائب فوق الظهور ، وعقدنا الزمزميات بالأكتاف ، وتناولنا العصى ، وهرعنا الى الفناء . انتظمنا طابورا طويلا فى ظلام شامل عدا شفافية لاتكاد ترى فى الأفق الشرقى . ومثل شبحه امامنا بقامته الطويلة ومضى يقول :

ـ لتكن كل رحلة جديدة خيرا من سابقاتها .

فقلنا فى نفس واحد :

ـ آمين .

فعاد يقول :
ـ لنكن مثالا طيبا للآخرين .
فكررنا فى صوت واحد :
ـ آمين .
ـ ولنستفد من كل خطوة وكل تجربة .
ـ آمين .
سيروا على بركة الله .
ـ آمين .

ونفخ فى الصفارة والديكة تصيح فتكونا فى اربعات . واتخذنا خطوات « محلك سر » حتى احتل مكانه على رأس الطابور ، ثم بدأ السير فسرنا وراءه على دقات الطبول . وتبعتنا على الأثر عربة يجرها جواد تحمل المطبخ والمستشفى . سلمنا الفناء الى ممر طويل ضيق محصور بين جدارين مرتفعين تفوح منه رائحة الكلس وعطن البول وتظلل نهايته سعف نخلات مغروسة فى الجانبين . شاب مشيتنا الرياضية حذر شديد لما توقعناه من وجود روث دواب أو قاذورات آدمية اذ أنه رغم الحيطة والتفتيش يتسلل الى الممر فى هدأة الليل اناس لممارسة حرياتهم بلا حياء . سرنا فى حذر حتى خرجنا الى الخلاء فلفحتنا نسمات نقية مطلولة . ولم نكد نقطع خطوات حتى ترامى الينا صوت السواق وهو يحث الجواد على السير ويفرقع بسوطه فى الهواء . وتنبه قائدنا الى ذلك فصاح بصوته الدسم :
ـ قف ..
فضربنا الأرض متوقفين فقال بنبرة آمرة :
١ ، ٢ يذهبان للاستطلاع وتقديم ما يلزم .
انفصل الزميلان من الطابور فرجعا الى موقف العربة . أدركنا من حوارهما ان حجرا اعترض العجلة اليمنى وانهما يتعاونان على زحزحته . وتساءل قائدنا محنقا :
ـ متى يبلغ معسكرنا كماله المنشود ؟!
وعاد الزميلان الى الطابور فنفخ القائد فى صفارته واستأنف الطابور سيره . سرنا اشباحا ذائبة فى ظلام . وفى السماء نجم واحد . وكنا نحب ظلمة الفجر ، لأنها سريعة الزوال ، ولأننا نطمئن الى الاختفاء فى غلالتها فنخرق تقاليد الطابور الصارمة بالمداعبات والملاعبات الخفية . سعداء بشقاوتنا وعبثنا كاتمين ضحكاتنا فترتعش فوق الشفاه بلا صوت . وفى ظلمة الفجر يتلقى سيىء الحظ ضربة عصا فى ساقه او قرصة فى ذراعه أو نواة نبقة فى قفاه ، ولما كان الفاعل مجهولا فانه ينتقم من أى كان وبأى وسيلة تتفق له . لم تكن تلك الشقاوة مريحة ولكنها كانت متعة محبوبة ، ولاتتم الرحلة الا بها ، ولذلك كنا حريصين على

احترام سريتها لنضمن استمرارها . ونهنأ ـ رغم انزعاجنا ـ بها ، فالجدية المثالية الواجبة شعار نردده ونلتزم به ولكن يبدو ألا مفر من التمرد عليه بين الحين والحين . وما يدرى تكوين من تكوينات الطابور الرباعية الا ورشاش سائل يبلله فى مواضع متفرقة من أجسام أصحابه . وتبين لهم من رائحته أنه بول ! كاد النظام يختل . وضاعت الضحكات المكتومة فى هدير غاضب لم يتوقعه أحد . تجاوزت الدعابة حدود الاحتمال وانفجر صوت خشن بلا مبالاة :

ـ عليكم اللعنة ..

فصاح القائد غاضبا :

ـ قف .

توقفنا عن السير انقلبت الدعابة علينا هذه المرة وانذرت بالنكد . وتساءل القائد :

ـ من الوقح ؟!

فصاح الآخر متحديا :

ـ كلب بال علينا .

فصرخ القائد :

ـ الويل لكم .

ولكن سبقته الاحداث فندت صرخات واختلطت اشباح ونشبت معركة عمياء . تبودلت اللكمات والركلات واللعنات ومضى القائد يهدد وينذر فى الهواء . اشترك كل واحد منا فى المعركة ، هاجما أو مدافعا . بلا حساب ولا حذر وكأننا نقاتل المجهول فى الأركان الاربعة .. اندثر لحظتئذ الود الجامع بيننا وتلاشت روح الزمالة العتيدة ، وحلت محلها وحشية كاسرة تنفث حقدا وشهوة طاغية للأذى ، كانها قوة مدمرة تفجرت فى قلب الظلام . تواصل الضرب بلا رحمة وصمت قائدنا كأنما قد ترك لأيدينا وارجلنا مهمة انزال العقاب الشامل بنا . وما ندرى الا والظلمة تخف وتتهافت . ومعالم الدنيا تطل علينا من حولنا ، ورقعة الأفق الشرقى تبتسم ببهجة الضياء . عند ذاك تراءى المتعاركون ، رأى كل وجه زميل أو صديق فعقد الحياء ايدينا وتطايرت انفعالاتنا السوداء وتراجعنا بوجوه أسيفة وقلوب منكسرة ، وجعلنا نجفف عرقنا ونضمد جراحنا ونتبادل نظرات حسيرة ، متجنبين النظر نحو قائدنا الواقف كتمثال للغضب والازدراء . وساد صمت ثقيل مشحون بالندم . وتلقينا اول شعاع للشمس بوجوه كالحة .

وراح القائد ينقل عينيه من شخص لآخر ، ثم قال :

ـ بداية على اى حال جديرة بكم .

لم ينبس احد بكلمة . ولا انبرى احد للدفاع يستوى فى ذلك الظالم والمظلوم . وعاد القائد يقول :

ـ ان زيكم الرفيع ليخجل منكم .
وهز رأسه فى أسى ثم تساءل :
ـ هل لدى المذنب منكم الشجاعة للاعتراف ؟
ولما لم يسمع صوتا قال :
ـ ليس من مبادئنا الغاء رحلة بدأناها ولكن لم يمر ذنب بلا عقوبة تناسبه .
مضى الى موقفه . نفخ فى الصفارة . هوت المطارق على الطبول ، تحرك الطابور فى ضوء الصباح الباكر . انتقلنا من الصحراء الى المدينة فقابلتنا طلائع العمال والباعة . وتبعا لتقاليدنا رحنا ننشد الأناشيد متناسين المعركة وآلامها . ولم يكن شيء يؤثر فينا مثل أناشيدنا الجميلة المتغنية ابدا بالبطولة والمجد والأخوة ، فسحرها يخاطب منا القلوب والسرائر . ومر بنا السابلة بلا اهتمام ، وقليلون من تابعونا بنظرات محايدة ، أما الغلمان الذين يهرعون وراءنا فلم يكن قد استيقظ منهم أحد بعد . وزالت آثار المرارة تماما . وانتصر الشباب بقوته الخارقة . وأنعشتنا الأناشيد . فعدنا أهلا للرحلة الطويلة الشاقة امامنا . وسيطر علينا الايمان بما نفعل وبما نقول ، بالمثل التى نستظل بها ، والمجد الذى نمضى اليه . والقوة التى سنحقق بها المعجزات . وكنا سعداء . رغم الجهد المتوقع والنظام الصارم والعقوبة المتربصة كنا سعداء ، وسرنا وسرنا وسرنا . وانشدنا وأنشدنا ، على دقات طبول لاتتوقف . حتى نفخ القائد فى الصفارة فتوقفنا وسط الضحى . وهتف القائد بوجه لم يزايله الغضب :
ـ إستراحة .
غسلنا وجوهنا فى مقهى قريب ثم قصدنا العربة فتناولنا شراب الليمون وبعضا من البسكوت . وكان الطريق غاصا بالمارة والسيارات والعربات . وحرارة الشمس تحرق الرءوس وتستدر العرق . وتبادلنا الأحاديث فى صفاء كأن لم تكن بيننا معركة . وتذكرنا ملابساتها بقلوب ضاحكة ، ولكننا لم نخل من قلق من ناحية عواقبها .
ـ هل تمر بسلام ؟
ـ بعيد ذلك كل البعد .
ـ حبس انفرادى أو صيام نهار كامل .
وطوينا الموضوع بقرفه لنواجه ما هو أهم فى حاضرنا ، فهدف الرحلة يظل مجهولا لاينبىء عنه قائدنا حتى نستدل عليه من خط السير . وكنا معسكرين عند مشارف الميدان . ولكن الميدان مفترق طرق ملىء بالاحتمالات .
ـ أنتجه جنوبا أم نمضى شمالا ؟
ـ الجنوب يعنى الأهرام .
ـ أهرام الجيزة أم سقارة أم دهشور ؟

ـ ولاتنس الفيوم .
ـ والشمال يعنى هليوبوليس أو عين شمس .
ـ وهناك الصحراء فى الجنوب والشمال معا .
ـ وهى أسوأ الاحتمالات .

ونفخ القائد فى الصفارة فتوالت دقات الطبول كالنداء الملح فهرعنا الى الطابور . وما كدنا نتوسط الميدان حتى ادركنا اننا نتجه نحو الجنوب ، فعرفنا الهدف بلا تحديد . ولن يتحدد حتى نبلغ هضبة الأهرام . مضينا بأقدام نشيطة وحيوية رائعة ، تستغرقنا الأناشيد فلم نشعر بمرور الوقت . لذلك دهشنا عندما دعينا للتوقف لتناول وجبة الغذاء وتبين لنا ان الساعة تمت الثانية بعد الظهر . عسكرنا على حافة حقل مزروع بالجرجير . نزعنا الأحذية وغسلنا اقدامنا فى جدول ماء . فرشنا الحصر وجلسنا لتناول الغذاء بعد أن جاء كل منا بتموينه من العربة وهو عبارة عن طبق يحوى بامية وقطعة من الضأن ومغرفة من الأرز وموزة . وأنسانا تناول الطعام همومنا الصغيرة كما أنسانا الوقت فأثملتنا لذته الموشاة بأطايب الأحاديث والنوادر . ولما فرغنا من الطعام استلقينا على ظهورنا لنستمتع بالراحة فى الفترة القصيرة المخصصة للقيلولة . وداعبنا النعاس ونحن مستسلمون لأحلام اليقظة . وكدنا نستسلم للنوم لولا ان همس هامس .

ـ انظروا ..

تحولت الأنظار الى الحقل الذى يغوص تحت مستوى الطريق بمتر فرأينا زميلا يكاد يتوارى وراء عربة مقلوبة وهو يحتضن كائنا لم نره ولكنا رأينا جانبا من فستانه هفا به الهواء فتحرك كالعلم .

ـ اى جرأة !
ـ سيجلب لنا متاعب جديدة .

وتطوع زميل للذهاب اليه لتحذيره . وسرت شهامة التطوع الى آخرين فمضوا فى أثره . وتطلعت الرءوس الى العربة المقلوبة باهتمام واشفاق وتوتر . وبحثت اعين عن القائد حتى عثرت عليه نائما على سريره السفرى وراء عربة التموين . رأينا الزملاء وهم يتحاورون عند العربة المقلوبة ولكننا لم نسمع كلمة مما يدور فقال احدنا :

ـ انهم يقنعونه بالعودة .

فقال اخر ضاحكا :

ـ او بالاشتراك معه !

وجرت الفتاة الى مبنى من البوص غير بعيد فاختفت داخله دقيقة ثم ظهرت مرة اخرى فى مدخله وهى تتوسط عددا من الفتيات ! وهرع الزملاء الى مبنى البوص فدب نشاط محموم فينا جميعا . وثبنا قائمين . وزحفنا نحو المبنى كجيش

من المجانين . وكانت الشمس تصب على المبنى دفقات حامية من اشعتها فيكاد ان يشتعل ولم يبال أحد بالحر ولا بالجو الخانق . وفاح المكان برائحة عرق آدمى حريف . واضطربت اركانه بالصحة والعافية وانفاس الشباب الملتهبة . وشحنت بالعربدة المكتومة والزفرات الضاحكة والأطوار المستهترة . وفى حمأة الطرب المشبوب تردد صوت ماجن بغناء ، رقص مستهتر متهتك ، واشتبك اثنان فى معركة مازحة . وعدنا واحدا فى اثر واحد ، وارتمينا فوق الحصر مستسلمين لراحة عميقة . وما لبثت ان دوت الصفارة وتتابعت دقات الطبول . قمنا ننفض عن أنفسنا الكسل . انتظمنا فى الطابور . ولمحنا القائد متجهم الوجه فلم ندر ان كان تجهمه بسبب ذنبنا الأول أو انه فطن ايضا لذنبنا الثانى ولكنا كنا ابعد ما يكون عن الندم . وهمس صوت :

ـ نجونا بمعجزة .

فقال آخر :

ـ أو علينا ان نتوقع عقوبة مضاعفة ..

وأخذنا فى السير . بعزائم قوية مضينا . اسعفتنا روح التحدى والصبر ، وقلنا لانفسنا انه مهما يكن ومهما سيكون فليس اخلد من البهجة والمسرة والمرح . ولبثنا على تلك الحال ساعة ونصفا أو ساعتين . ورغما عن ارادتنا سلمنا بأن الشمس عنيفة . بل اعنف مما تصورنا بل هى فى الواقع لاتحتمل . وتصبب العرق حتى بلل ملابسنا . وضاعف من تذمرنا احساسنا بعدم طهارته . الحق ان التعب بدأ يزحف على عضلاتنا واعصابنا مبكرا بالقياس الى الرحلات السابقة . وكلما تقدمنا اشتدت وطأته وعنفت ضرباته اما الحر فأصبح خانقا قاتلا . كلا لم نذق هذا الجحيم من قبل . ولم تخر قوانا كما خارت اليوم . وتراخت اوتار اصواتنا وهى تنشد الاناشيد . ولأول مرة نشعر بوزن الوقت وهو يتمطى فوق مناكبنا . تغير كل شىء حال لونه وفسد طعمه . ففتر حماسه ثم خمد . حتى الاناشيد تبدت لنا رتيبة مكررة فاقدة المعنى والروح فخجلنا من ترديدها . وخيل لنا اننا موضع سخرية المارة والمنتظرين تحت مظلات الباص . ولم تقف مشاعرنا المدمرة عند حد فأوشكت ان تلتهم الرحلة نفسها التى بدت طويلة بلا نهاية . معذبة بلا رحمة . خالية من اى معنى او عزاء . غير جديرة بالطقوس التى تحكمها والنظام الذى يضبطها والامال المعقودة عليها . وقائدنا نفسه لاح قائدا بلا قيادة ولاجيش . مضحكا فى غضبه . هزيلا فى عنفه . ألحت علينا تلك الأفكار ، وكلما اشتد ارهاقنا اشتدت الحاحا وعنفا . ونفد صبر البعض فتوقف عن الانشاد أو جعل يحرك شفتيه بلا صوت . وجن البعض الآخر فجازف بالخروج من الطابور مع علمه بما يعنيه ذلك من فصله من الفريق مجللا بالعار منبوذا من الروح الرياضية . وهى فضيحة لم تغب عنا عواقبها . وآثارها البعيدة فى نفس القائد

والمشرفين هناك فى المدرسة . ولكنها فى الوقت نفسه ميزتنا بشيمة الصبر واملتنا فى تخفيف العقوبة ، وان لم تغير شيئا من فتورنا وارهاقنا وحال الخذلان التى ركبتنا . وتتابع السير والغناء ، ولم يعد شىء يحتفظ بعنفوانه الا دقات الطبول وصلابة قائدنا غير المبالية ، وأقران يعدون على اصابع اليد مضوا بهامات مرفوعة وعضلات مشدودة يرددون الاناشيد بحماس وايمان حتى اثاروا الحنق والازدراء . وعندما لاحت لاعيننا الأهرام الشامخة كانت الشمس قد مالت نحو الغرب ، فوهنت حدتها . ودبت فى الجو نسمة جعلت تلاطفنا فى استحياء واخذ الطريق فى الارتفاع فتضاعف ارهاقنا واشتدت الامنا وتداعت اصواتنا . وبلغنا سطح الهضبة وقد اختفت الشمس وتدثر الكون بغلالة داكنة هادئة رددت انفاسا ضعيفة كأنها انفاس شيخوخة فانية . ودوى صوت الصفارة فتساقطنا من الاعياء ونحن نتأوه بأصوات غير مبالية . خمَّنا أننا سنمكث تحت الهرم ساعة أو اكثر قبل ان نستأنف السير الى معسكرنا الموغل فى الصحراء ولكن قائدنا المنتقم قال بصوت سمعه الجميع :

ـ لديكم ربع ساعة كاملة !

ذهلنا ! تبادلنا النظر فى صمت ونحن نعلم ان الأوامر لاتناقش . ولم نضيع الوقت فى التحسر العظيم . ولم يكن بد من التضحية بالراحة فقمنا لابتياع مايلزمنا فى مقامنا الأخير فى حدود ماتسمح به اللوائح . ومدة الاقامة مجهولة لايعلم بها الا القائد ولكننا اثرنا الاخذ بالاحوط . اشترينا ما نحتاجه من سجائر وصابون وفاكهة وقوارير المياه الغازية . ضاع وقت الراحة فى الشراء والمساومة وتنظيم السلع . ومافرغنا من ذلك حتى عادت الصفارة تدوى ودقات الطبول تدق بلا نهاية فانتظمنا فى الطابور الرهيب . يحمل كل منا سلة موز على يد وبطيخة على اليد الأخرى حاشيا جيوبه بالعلب والقوارير فضلا عن ادواته الاصلية كالعصا والزمزمية والحقيبة .. وواصلنا الرحلة من غير ان ننال قسطا من الراحة . بعضلات منهكة واعصاب متوترة وانفس غاضبة . وضاعف من متاعبنا مقاومة الرمال الغزيرة لأقدامنا واختفاء معالم الدنيا فى جوف الظلام الهابط . استحالت اصواتنا عواء محشرجا ، وتقلصت عضلاتنا من حدة الآلام ، فنسينا نسيانا تاما مسرات الرحلة كأنها لم تكن وتمنينا الموت . وداعبنا أمل ان يعدل القائد عن خطته وان يقنع بما أنزل بنا من عقاب صارم ، فتسترد الرحلة بهجتها المأمولة واحلامها الضائعة ولكنه واصل سيره بلا مبالاة ، ولم يكتف بذلك فصاح بصوت كالرعد :

ـ حركة سريعة ، ابتدىء !

لم نصدق بادىء الأمر آذاننا . ثم بهتنا من شدة المباغتة . الحركة السريعة ندعى اليها عادة فى مطلع الرحلة وفى ضوء النهار . اما ان تفرض علينا قبيل

النهاية فشيء خارق وغير انسانى يراد به القضاء علينا . والى ذلك فهى نوع من الوثبات المتلاحقة فى صورة جرى متقارب الخطو يقتضى استخراج البطاريات من جيوبنا الخلفية لتنير لنا الطريق خشية ان نتعثر فى نقرة او نرتطم بحجر . فكيف يتاح لنا ذلك مع حملنا الثقيل . وتعبنا الأليم ؟! ولا فرصة للتمرد فليس امام الهارب من الطابور فى ذلك المكان الا الضياع فى الصحراء والظلام . فلا مفر من الانصياع والاذعان . ومضى القائد يثب . فاندفعت دقات الطبول فى تلاحق سريع وشرعنا فى الحركة السريعة . جربنا ان نمارسها مع الاحتفاظ بأحمالنا ومع استغناء عن البطاريات ولكن بدا ذلك ضربا من المحال . لامفر من التخلص من احمالنا العزيزة . لامفر . حتى لو تعرضنا للكآبة والقرف والحرمان . لامفر ، وتخلصنا من البطيخ والسلال . تركناها لقى فى الصحراء للحشرات والهوام . واخذنا نثب بسيقان متهافتة وعزائم خائرة وقلوب باكية . مضينا يلفنا الظلام على ضوء البطاريات المتحركة فى ايدينا كأننا نجوم متداعية تبعث باشعاعها الأخير قبل اندثارها النهائى . وتذكرنا بحسرة ساخرة فرحة الاستيقاظ وبهجة الاناشيد ودعابة الطريق ونشوة الحقل ومتعة الشراء . تذكرنا ذلك كله بذهول . ونحن نتقدم شبه عرايا منهوكى القوى الى معسكرنا الرابض فى اعماق الخلاء . وتقدمنا كما قدر علينا وحتى الأسف لم يعد يجدى . ولم نهتم كذلك بما اذا كان ينتظرنا عقاب جديد ام سيكتفى بما حل بنا . وتاقت انفسنا للنوم باعتباره الشفاء الأخير لجميع الآلام . واخذت دقات الطبول تبطىء رويدا رويدا ايذانا بتغيير الحركة وتقارب المعسكر . وعدنا تدريجيا الى سيرنا العادى . ومن شدة الجهد لم نجد حاجة لتبادل همسة واحدة فغاص كلٌ فى وحدته . وما ندرى الا ونحن ندخل فى الممر الطويل الضيق فتقعم انوفنا روائح الكلس وعطن البول . وفى الفناء امتدت تكويناتنا الرباعية لتصنع طابورا واحدا . فوقفنا متصبرين لنتقى التقوض والانهيار . وصمت قائدنا مليا ريما ليكمل تعذيبه لنا ثم قال بصوت هادىء ملىء بالنذر :

ـ انتهت رحلتنا . وغدا يجمعنا الحساب . اما الآن فتناولوا عشاءكم ثم اخلدوا للنوم ..

ولم يهمنا الا النوم ..

اجل . ليكن الآن نوم .. وليكن فى الغد حساب .

نور القمر

- ١ -

تجربة جنونية ، انتشر نبضها فى زمان الوداع ،وانغرست جذورها فى طمى النيل ، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا ، مهومة فى الحى الرنان ذى الايحاءات اللانهائية ، روض الفرج . اهتدائى إليه مصير حتمى ، فهو مصيف من يبهظه الرحيل إلى الاسكندرية أو رأس البر ، وهناك وجدت مقلدا لكشكش بيه ، وآخر لبربرى مصر الوحيد ، ثم قادتنى قدماى - من باب العلم بالشىء - إلى كازينو « الواق واق » فقضيت سهرة سماع لصوت « نور القمر » .

لعله أصغر المسارح ، يقع فى نهاية الخط ، مرسوم على هيئة سفينة ، تطوق جانبيه أشجار الياسمين والحناء واللبلاب ، ومقاصير أهل الخطوة ، وتشغل وسطه صفوف الكراسى الخيزران . يقدم أول مايقدم تواشيح عريقة ، فرقصة شرقية ، ثم يرفع الستار عن « نور القمر » وتختها المكون من القانون والعود والكمان والرق وأربعة من السنيدة العجائز .

رفعت الىّ المطربة عينين فاترتين ، شىء أرعشنى كجرس تنبيه ، انحصر وعيى كله فى النظر ، لم أسمع من الغناء الا أصداء متلاشية ، انسحب معى الماضى وذاب ، واتجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة ، منذ تلك اللحظة أمسى « الواق واق » مقصدى كله ليلة طوال فصل الصيف ، لم أهجره ولكنه هجرنى بانتهاء المصيف واغلاق المسارح والكازينوهات ، وتحول روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال .

- ٢ -

من هى « نور القمر » ؟ ..

امرأة ناضجة . تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة . لعلها فى الثلاثين . تختلف الآراء فى تقدير سنها بحسب الأهواء . لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها . قوى مجهولة تعزلها عن الناس فى موسم العمل ثم سرعان ماتختفى بقية العام . جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها ولكننى - فيما بدا لى - خصصت بالهيام بها لحد الجنون . ماذا جرى ؟ أنهم منهمكون فى الأكل والشرب والضحك والطرب ، واعجابهم بها عابر ، على حين سلبت منى - بشراهة - الروح والجسد . ويقول من يدعون الخبرة :

- صوتها رقيق محبوب ..

فأقول :

- ولكنها لاتغنى الا الأغانى القديمة ، وفى اعتقادى أن أى ملحن معاصر يسره أن يلحن لها ..

ـ ولم تدفن نفسها فى روض الفرج ؟

ـ من يدرى ؟

من يدرى حقا ؟ . انها سر مغلق . علمى بها ـ كالآخرين ـ محدود جدا أما هيامى فلا حدود له ، على أى حال لم أعرف فى حياتى الانطواء أو السلبية .

ولكن من أنا ؟

ـ ٣ ـ

من ذوى المعاشات ، فى الخمسين من العمر ، أعزب ليس بينى وبين المرآة التى تعكس صورتى أى ضيق أو اعتراض . أحب الطعام الجيد ، أكول أحسن طهى ألوان من الطعام كأمهر الطهاة ، ضحوك صافى السريرة ، غير أن عزوبتى ركزت اهتمامى فى ذاتى فعلقت بى أنانية طفولية . كنت ضابطا بالجيش ، أدركنى المعاش وأنا صاغ فى الخامسة والأربعيّن من عمرى . خدمت فى السودان والصعيد والسلوم . وكنت طوال عمرى جامح الأهواء ، مغرما بالنساء سيىء السمعة ، فى صباى وشبابى خيبت أمل والدىّ ، رغم أنى كنت وحيدهما ، بذلا جهدا طموحا ليجعلا منى طبيبا أو وكيل نيابة ولكننى لم أظفر بالابتدائية الا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة . لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كى تجعل منى شيئا ما . وكنت بدينا مفرطا فى البدانة . رمقنى ناظر المدرسة الانجليزى بدهشة ، كأنه يتساءل عما جاء بى ، ولكنى أظهرت من البراعة فى السباحة والعدو ماسره وفتح قلبه لى فقبلنى أو أصر على قبولى وهو الأصح . كان الفشل هو مايدفعنا الى المدرسة الحربية ، لا الوطنية ولا الروح العسكرية . غير أن الروح تتولد بطريقة ما ، اما الوطنية فقد تكفلت بها ثورة ١٩١٩ . وقد اشتركت فى مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة وأصابنى جندى انجليزى بالسونكى فى وركى ، ولولا العفو العام لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء فى وظيفة محترمة نوعا ما . وتخرجت ملازما ثانيا فى نهاية أربعة أعوام دراسية ، منها عام عقوبة لاشتراكى فى المظاهرة وفى الترام سمعت أحدهم يهمس :

ـ كل هذا البدن وملازم ثان فقط ؟! ..

فهمس آخر :

ـ أنه فى وزن لواء !

وكان اللواءات فى تلك الأيام ذوى كروش وبدانة ، تحسبهم قصابين لا عسكريين . ومات والداى ، وامتدت خدمتى خمسة وعشرين عاما ، ثم أدركنى المعاش فوجدت نفسى ضخما وحيدا ضائعا يعيش فى زنزانة انفرادية فى صورة شقة . رسمت خطة لانقاص وزنى فصرت مقبولا ، وفترت بهجة الطعام والنساء ، وكان الشعر يستهوينى فقررت أن أتخذ من حافظ ابراهيم مثالا على نحو ما ،

وشغلت وقت وحدتى بالقراءة فى شتى المعارف الدنيوية والدينية ، وبت من رواد القهوة المالية ـ قهوة أصحاب المعاشات ـ ألعب النرد والدومينو وأتكلم فى السياسة ، وأعلق على الأحداث ، أفلسفها مستعينا بثقافتى المتنامية ، ثم انضم لكثيرين لأداء صلاة الجمعة . ورحم كثيرون وحدتى فاقترحوا على أن أتزوج .

ـ الخمسون مقبولة ، صحتك جيدة ، لم تشب شعرة واحدة فى رأسك بعد ، والجنس يعيش فى مثل هذه الظروف حتى آخر العمر ..

فكرت فى ذلك باهتمام فاق تصورى ، ولكن ثبط همتى أن ظروفى لن ترشحنى الا لامرأة بائسة وقد أبيت ذلك . الحق أنى اعتدلت فى شهواتى ، ربما كرد لما سبق ، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعى فى القهوة . ونادرا ماوجدت الدافع القوى لمطاردة احداهن . أصبح لهن فى قلبى أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيين ، حتى اقتادنى مصيرى المحتوم الى الواق واق .

ـ ٤ ـ

عرفت الحب لأول مرة فى حياتى . انه كالموت تسمع عنه كل حين خبرا ولكنك لاتعرفه الا اذا حضر . وهو قوة طاغية ، يلتهم فريسته ، يسلبه أى قوة دفاع ، يطمس عقله وادراكه ، يصب الجنون فى جوفه حتى يطفح به ، انه العذاب والسرور واللانهائى . تلاشى شخصى القديم تماما وحل محله آخر بلا تراث ولا مبادىء ، ينقض على مصيره بعينين معصوبتين .

وجعلت أتساءل : « كيف الوصول الى نور القمر ؟ » .

أنها تغنى وصلتين ثم تختفى حتى مساء اليوم التالى . لا ترى ألا فوق المسرح . لم تذهب الى مقصورة قط . الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك . ويسعين إليه ، أما هى فما أن تفرغ من الغناء حتى تتلاشى فى الكون . وانى رجل فى الخمسين ، محدود الدخل ، لا جاه ولا مركز . لا قدرة لى على حيازتها ، ولا ادرى ان كانت تقبل علاقة عابرة ، أما ابتغاء الرضا والحب فما أبعده عن قصور من كان فى مثل سنى وحالى ، وأما الزواج فماذا يعنى لها إن لم يعن الأبهة والرفاهية »!

أشار علىّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسى المعذبة ، ولكن ليس للعقل صوت يسمع فى ضجة أهازيج الهوى ، وصخب أمواجه العاتية ، وأزيز أعاصيره الهوج .

وأعجب من ذلك كله أن يتحول خبير الأطعمة المتقنة ، زير النساء ، الى مجنون ملهم ، يهيم فى دنيا الحب المترعة بالأسرار ، يخاطب بأنينه المجهول ، ويجد فى البحث عن لاشىء فى كل شىء ، فى ضياء الشمس ، بهاء القمر ، وهج النجوم ، ثراء السحب ، أريج الأزهار ، سلاسة الماء ، فقد غطت « نور القمر » على حياتى وحياة الكون من حولى ..

- ٥ -

وفى بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهر ولو كان فى الأصل غليظا مشبعا بالاثم . وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لى أن أعرف الشجى ، وأترنم بألحان الأسى .

مضيت أنسحب برفق من جو أصحاب المعاش ، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت . ملأت « نور القمر » وجدانى واستأثرت بوعيى . أبيت الاستسلام والهزيمة جعلت أشجع نفسى وأضرب لها الأمثال من ماضى . استهتارى الفائق ، ومغامراتى الجريئة ، واقتحاماتى المذهلة . عبدت دائما ما أهوى وأريد واستهنت دائما بالتقاليد والسمعة والقيل والقال . وموقفى يوم المظاهرة المشهورة هل ينسى ؟ . لقد أضربنا وذهبنا الى مدرسة الشرطة ، هتفنا بالاضراب ، ولما وجدنا ترددا أطلقت رصاصة فى الهواء ! .. وتحديت بدانتى فكنت أعدو بسرعة الريح كأنى برميل بخارى . محال أن أتقاعس يانور القمر ..

- ٦ -

وصممت ذات ليلة ، سمعت الوصلة الأولى وكانت :

كادنى الهوى وصبحت عليل

ثم غادرت مجلسى ماضيا الى الباب الخلفى للكازينو اعترضنى البواب فقلت بكبرياء :

- أعرف طريقى !

سرعان ماجاءنى الجرسون حمودة مبتسما متسائلا :

- أى خدمة يابيه ؟

- حمودة ، أرغب فى مقابلة نور القمر لأهديها اعجابى .

- الجميع يعلنون الاعجاب بالتصفيق .

- ولكنى أريد أن أقدمه بنفسى .

- ممنوع .

فتساءلت بحدة :

- من صاحب هذا الأمر السخيف ؟

- أصحاب الشأن فى الكازينو ، ما أنا الا عبد مأمور ..

- ولكن لماذا ؟

- لا أدرى ياسيدى ، جميع الزبائن يعرفون ذلك ..

فقلت بعجرفة :

- ولكنى سأدخل ..

فقال بتوسل يليق بزبون دائم مثلى :

- أرجوك يابيه ..

ـ على مسئوليتى !

ـ هناك سنجة الترام !

أفقت من غضبى . سنجة الترام هو فتوة المحل وحاميه . لا قبل لى به فضلا عن أننى فى الخمسين من العمر ، تراجعت متسائلا فى استنكار :

ـ لهذا الحد ؟

ـ أنت بيه محترم ولايليق بك الشغب !

تنهدت لأروح عن غيظى ، وقلت له :

ـ اذن فعليك أن تبلغها اعجابى ..

فقال بأسف :

ـ ولا هذا !

ـ أمر غريب حقا !

ـ ما باليد حيلة ..

ـ لماذا لاتفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها ؟

فقال وهو يحنى رأسه :

ـ الراقصة وجوقتها تحت أمرك !

ـ ٧ ـ

ان هى الا جولة خاسرة ولكنها ليست كل شىء . الطريق طويل والزمن طويل . ها هو صوتك الحنون ينسرب الى أعماقى معطرا بالفتنة وليس بينى وبينك الا خطوات . لو كان لى أنف كلب لشممت أنفاسك . ولو كان لك قلب لركزت بصرك على عابدك . ولو أعيتنى السبل المادية فى الوصول اليك فثمة قوة الحب ستصنع معجزة فائقة للعقل فى الوصول اليك هازئة بأعين الحراس . فى تلك الليلة تعمدت التأخير حتى استقللت الترام الأخير ، واخترت مجلسى الى جانب الجرسون حمودة ، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعد الرجل للحديث المتوقع . ولما غاص الترام فى الظلام شاقا طريقه بين الحقول تساءلت :

ـ مامعنى هذا ياحمودة ؟

ـ تسأل عن نور القمر ؟ .. هذا هو الواقع ..

ـ أهى سيدة مصونة حقا ؟

ـ هى ذلك فيما نرى ..

ـ وما السر ؟

ـ لا علم لى به .

ـ يوجد سر ولاشك .

ـ علمى علمك .

ـ إنك تعرف السر ولكنك تمكر بى .

ـ صدقني ، ليس عندي أكثر مما قلت .
ـ هل تؤمن بالخرافات ؟
ـ أنها حقيقة لا خرافة .
ـ هل تصدقها ؟
ـ فلنسلم بأنها شاذة ، ما الفائدة ؟
ـ عندك تفسير لها ؟
ـ لا أشغل نفسى بالتفكير فى ذلك .
ـ وراءك أشياء ولاشك ؟
ـ أبدا ، صدقنى ..
ـ هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها ؟
ـ كما ترى فانى أذهب قبل ذلك حتى لا يفوتنى الترام الأخير .
ـ بأى وسيلة تذهب هى ؟
ـ ربما تاكسى ، حنطور المدير موسى القبلى ، فورد صاحب الكازينو حفنى داود ، من يدرى ؟
ـ الآن فهمت ..

ـ ماذا فهمت ياسيدى ؟
ـ انها عشيقة أحد الرجلين !
ـ الله وحده يعلم .
ـ ألا يعرف أحد شيئا عن سيرتها الخاصة ؟!
ـ نحن نتجنب الفضول حفظا على رزقنا ..
ـ أين تسكن المرأة ؟
ـ لا أدرى ..
فتنهدت وقلت بنبرة اعتراف :
ـ حمودة ، أنت تدرك ولاشك ماوراء اسئلتى الملحة ؟
ـ أجل يابيه .
ـ والعمل ؟
ـ ما باليد حيلة .. النساء كثيرات .. وكلهن فى النهاية طعام واحد ..
أهديت اليه سيجارة ، غمزته ببريزة ، ولكنه قال :
ـ انى لا أخدعك ، وليس عندى مقابل !
ـ حمودة !
ـ صدقنى ، لقد وقع فى هواها عمدة صعيدى واسع الثراء ، ولكن ماذا أفاد ؟

فهتفت بغيظ :
ـ ان ملكة مصر أيسر من ذلك ..
ـ هذا هو الواقع ..
وتفكرت مليا ثم سألته :
ـ سنجة الترام رجل قوى ، هل يمكن الاستعانة به ؟
ـ لا أدرى ، جرب إن شئت ..
حقا ان مجرد الاتصال به مهانة مابعدها مهانة ولكن ما الحيلة ؟ سألته :
ـ هل تساعدنى فى ذلك ؟
ـ انه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب ..
ازددت امتعاضا وأنا أسأل :
ـ أين ؟
ـ قارب شراعى ..
ـ ممكن تمهد لى السبيل باعتبارى من أصحاب المزاج ؟
ـ هذا ممكن ..

ـ ٨ ـ

لم أكن يوما من أصحاب المزاج . انى من أصحاب الأمزجة الفوارة التى لاتتلاءم مع المخدرات . وقد دخنت مرة البانجو فى السودان وسرعان ماغشينى النوم فتوكد نفورى من المخدرات . وفى مثل الحال التى أنا مقبل عليها بوسعى أن أمثل وأن اتجنب التدخين الحقيقى . ما العمل وجنونى يستفحل ؟ . لقد ضاعت منى نفسى . جعلت أنظر اليها ـ كغريب ـ بعين الرثاء والأسى . وهان علىّ أن أسعى لمصادقة سنجة الترام . وهو ربعة متين البنيان ضخم الرأس والوجه ، فى جبينه ثلاث ندبات وفى أنفه اعوجاج ، واسع الأشداق كأنه من أكلة الأحجار ، وسرعان ماحسبت تكاليف السهرة فوجدتها ـ مع الاكرام ـ تستهلك خمسين قرشا ، وهو قدر لايستهان به مع الاستمرار الذى يقتضيه توثيق العلاقة .

تسللت الى القارب فصافحنى على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم :
ـ أهلا ..
فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول :
ـ مساء الخير يامعلم سنجة ..
وانغرست على جانب وسط تكتل من الأوباش . وأنساب القارب فوق النيل الرزين واهبا ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعشعه أضواء النجوم كالهمسات . لعلهم من تجار الغلال والبصل ، ينكتون ويقهقهون بفظاظه . ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء ، ولاطفتنا نسائم معطرة برائحة النيل . ورغم حذرى

ثقل رأسى ، وناء قلبى بالحزن . ومن حسن الحظ أن أحدا لم يهتم بأحد فلم اضطر الى الخروج من صمتى وأفكارى وعند الوراق غادرنا البعض ، وانفض السامر عند الفجر .

- ٩ -

وثقت المساهرة بينى وبين سنجة الترام . مساء الخير يامعلم ، مساء الخير ياأنور بيه . دعوته للغداء عند الدهان فدعانى للغداء فى المذبح . وجدتنى أندمج فى أوساط البلطجية وتجار المخدرات . أرهقنى الخزى والحزن ، عجبت لتدهورى ، وكيف ساقتنى اليه أنقى وأصدق عاطفة شدا بها قلبى . أجل طالما تحديت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة ، ولكن عربدة العشاق شىء ومخالطة الأوباش شىء آخر . ولم أعد أختلف الى المقهى ألا فى النادر . وخمن الصحاب أن فى الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوروا أى امرأة تكون ، ولا أى تدهور دفعت اليه بيد حبها الناعمة ، وطبعا كتمت سرى حتى لا أكون حديث الجاد والساخر . كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة غير أن بعض الشعر الذى سبقت لى معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدى بحسن جديد وتفجر عن قوى جديدة فأدركت أن جمال الشعر لا يكمن فى ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنه يكمن قبل كل شىء فى القلب البشرى .

وفى تلك الفترة من حياتى زارتنى عمتى نظيمة ، أرملة فى الستين ، بكريها مهندس مقاول قد الدنيا ، وشقيقه موظف دبلوماسى فى سفارتنا بالحبشة . قالت :

- انقطعت عنى منذ مدة ولكنى لا أنساك ..

فلثمت خدها النحيل ممتنا ، وجعلت تتفحصنى باهتمام أثار قلقى ، ثم تساءلت :

- حتى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة ؟

أدركت أنها تعود الى موضوعها المفضل وهو « الزواج » فقلت :

- اعتدت ياعمتى العزوبة ..

فقالت بحرارة :

- عادة سيئة ، ضد مشيئة الله .

- كل شىء بمشيئة الله ياعمتى ..

احتست الشاى وهى تفكر ثم قالت بنبرات جيدة تماما :

- أنور .. حدثنى حمدى حديثا لا يصدق ..

حمدى مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة ، وقد اضطرب قلبى وتساءلت :

- ماذا ؟

- قال إنك تصاحب قوما ليسوا من أصلك ولا مستواك !

فزعت . هل تتفشى الأسرار بهذه القوة ؟ . قلت مدافعا :
ـ كلنا أولاد حواء وآدم ..
ـ ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل !
وقرأت فى وجهى ولاشك تحرجى وضيقى فقالت برقة :
ـ أردت أن أحذرك فسامحنى ..

ـ ١٠ ـ

تألمت ولكنى لم أبال . عزمت على مزيد من الخطوات المسددة . هاهو سنجة الترام يتردد على شقتى فى المنيرة رافعا الكلفة . يتناول الطعام أحيانا ، وأحيانا يضطجع نائما ، ومرات أودع عندى حشيشه بعيدا عن أى مظنة . أصبح البيت بيته ابن القديمة ، وحمت حوله متحينا الفرص . آنس الىّ فروى لى قصة حياته منذ نشأته فى سوق الزلط ، معاركه سجنه ، بلاءه فى ثورة ١٩١٩ ، حتى اختير فتوة لكازينو الواق واق .
ـ موسى القبلى هو الذى اتفق معى ..
ـ المدير ؟
ـ نعم .
فقلت بمكر :
ـ يقال انه قريب لنور القمر .
ـ كلام فارغ ..
ـ بذلك يفسرون عزلتها الغريبة ..
ـ سكارى وأغبياء ..
ـ أصل عزلتها تثير القيل والقال !
ـ أنها حرة تفعل ماتشاء ..
ـ تعنى أنها هى التى ترفض المؤانسة .. ؟
ـ علمى علمك ، مايهمنى أننى مكلف بابعاد من تحدثه نفسه . بالاقتراب منها ..
ـ بلا علم بسبب ذلك ؟
ـ ليكن مايكون ، هبها امرأة مصونة ، أو رجلا متنكرا فى صورة امرأة ، أو عشيقة للمدير أو صاحب الكازينو ، ماذا يهم ! من حسن الحظ أننى لا أرغب فيها ..
وضحكنا طويلا ، ثم سألته :
ـ ماذا كنت تفعل ؟
ـ كنت أقتحم الحارس والمحروس !
فقلت بدهاء :

ـ ظننت أن الأسرار لاتغيب عن رجل مثلك ؟
ـ الأسرار التى تهمنى فقط .
ـ ألست صديق المدير وصاحب الكازينو ؟
ـ لك أن تعتبرنى صديق الجميع ، ولك أن تعتبرنى بلا أصدقاء !
وكنت عرفت من طبعه أنه لايطيق سماع ثناء على أحد فقلت :
ـ يبدو أن المدير رجل محترم !
فقال ساخرا :
ـ ماهو الا قواد .
ـ قواد ؟!
ـ صاحب بيت دعارة !
انبهر رأسى بضوء فوسفورى مباغت . هل يستغل نور القمر بطريقة محنكة ؟ . يا لخيبة الأمل اذا لم تكن المرأة إلا مومسا ؟! ولكن حتى هذا الفرض لم يطفىء لمعة الوجد فى قلبى ، بل لعله أرثها بفتح باب يسير للوصول . وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام فى مخايله فسألته :
ـ مارأيك فى سهرة فى بيت موسى القبلى ؟
فقال بازدراء :
ـ أعوذ بالله !
ـ من باب العلم بالشىء ؟
ـ ولكنك كهل محترم وأب .
فقلت ضاحكا :
ـ لست إلا أعزب !
ـ أعوذ بالله !
ثم مستدركا :
ـ وكيف تعيش بنصف دين ؟
فقلت لنفسى بأسى « حقا ينقصنى النصف الآخر » ..

ـ ١١ ـ

قلت للجرسون حمودة وأنا اغمزه ببريزة :
ـ دلنى على بيت موسى القبلى ..
ابتسم الرجل ابتسامة عريضة ، غمز بعينيه ، قال :
ـ بريزة أخرى ..
فأثنيت فى سرى على صدق فراستى .

ـ ١٢ ـ

البيت فى أول شارع مهران السندى المتفرع من شارع دوبريه ، شقة أنيقة ،

صامتة ، الأبواب مغلقة ، كأنها خالية . قدمنى حمودة الى موسى القبلى فتلقانى بوجه ودود غير الوجه الذى يدير به الكازينو . وقلت لنفسى من بلطجى الى قواد ياقلبى لاتحزن . اما هو فقال بلا حياء :

ـ جنيهان من فضلك ..

دفعتهما بلا تردد فقال :

ـ آخر حجرة فى الدهليز ، هل تريد شرابا ؟ .. زجاجة الأوتار بجنيه واحد .. اللص ! .. أنها فى السوق بثلاثين قرشا . قلت معتذرا :

ـ ربما فى المرة القادمة .

فقال بشىء من الفتور :

ـ الهدوء هنا مهم جدا !

ـ ١٣ ـ

كم لعب الأمل بقلبى أن أجدها عقب فتح الباب ولكن المعجزة لاتقع بمثل هذه السهولة . ها هى امرأة أخرى لا رغبة لى فيها . تنضم الى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية فى العدم واللامبالاة . وقررت أن أحوز ثقة موسى القبلى ورضاه . كما فعلت مع حمودة وسنجة الترام . وسطاء سوء ولكن بيد أحدهم مفتاح الكنز . مثل العناء تكابده الشجرة حتى يتمخض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة .

واقترحت عليه ـ موسى القبلى ـ فى المرات التالية أن أشاربه فى حجرته الخاصة قبل الذهاب الى حجرتى المقسومة . انبسط واعتبر ذلك تحية فريدة . وذات ليلة قال لى :

ـ علمت أنك من زبائن الواق واق ؟

ـ ألم تقع عيناك على ؟ .. طالما رأيتك وأعجبت بادارتك ؟

ـ الأمر مختلف غير أن وجهك بدا لى غير غريب وأنت تطالعنى هنا لأول مرة ..

شجعته على الشراب ، وقلت :

ـ انى أشرب فى اعتدال لأسباب صحية !

ـ لكنها مفيدة للصحة !

فقلت ضاحكا :

ـ الأمر مختلف !

ـ موظف ؟

ـ على المعاش .

ـ لكنك مازلت فى طور الرجولة ؟

ـ الضابط يحال على المعاش فى أى سن ..

ـ كنت ضابط جيش ؟

ـ كنت !
ـ فضحك عاليا وقال :
ـ حلمت فى صغرى بأن أكون ضابط شرطة ..
ـ مصيرنا فى الحياة لاتتحكم فيه رغباتنا ..
وهو يضحك مرة أخرى :
ـ على أى حال فعملى ذو علاقة وثيقة بالشرطة !
ـ قال الله ولا قالك .
ـ متزوج ؟
ـ كلا ..
ـ يندر أن يجىء أحد فى سنك ..
فقلت ساخرا :
ـ الحياة دائمة التقدم .
ـ وكيف عرفت بيتى ؟
ـ صاحب الحاجة مستكشف ..
ـ حمودة ؟
ـ نعم .
ـ رجل غاية فى الفطنة ..
فرميت سهمى الأخير قائلا :
ـ وقف مصادفة على سر شغفى بنور القمر ..
رفع حاجبيه الخفيفين وقال :
ـ أنت من عشاقها ؟
فحنيت رأسى لبلوغى آخر الأبواب وانتظرت الفرج غير أنه قال :
ـ لولا عزلتها ما أثارت ضعف أحد ..
ـ ولكن الشغف سبق اكتشاف عزلتها ..
ـ لاتهتم بالممتنع ، عندى من هن خير منها !
يا للداهية ! .. هل خاب المسعى أيضا ؟! .. وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد .. ؟!

ـ ١٤ ـ

وسألنى سنجة الترام :
ـ كيف تطيق هذه الوحدة ؟
كان قد فرغ من قدح الشاى الرابع فاسترخت جفونه من السطول ، أجبته :
ـ العادة أقوى من الوحدة ..
ـ وهل يليق بمثلك التردد على بيت دعارة ؟

فلم أجد جوابا أما هو فقال :
ـ اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك ..
فضحكت وقلت :
ـ أنى الأعزب الابدى يامعلم سنجة ..
فقال بصراحة مخيفة :
ـ عندى بنت مطلقة ..
لطمنى قوله كنذير حريق أما هو فواصل :
ـ بنت ممتازة ، هدية ، أوقعها سوء الحظ فى رجل لاقيمة له .
ماتوقعت أن أتعرض لغضبه قط .. لعنت فى سرى الزمان والمكان . قلت :
ـ يلزمنى تفكير طويل فالتخلى عن عادة مزمنة كالعزوبة ليس بالأمر الهين ... !

ـ ١٥ ـ

بات الخطر تحتى تماما مثل ظل منتصف النهار ، أنسحب من التجربة كلها قبل أن يدهمك القضاء ، هكذا حاورنى عقلى ، ولكنى كنت أحلم بالنجاة وأنا اتدحرج نحو الهاوية ، لم تعد قوة بقادرة على صدى . الحب المستبد الذى لاقاهر له . ذلك الغول الذى تغتيه فريسته عن المطاردة . الحلم الذى يزرى بكافة الأحلام ويحولها الى نفاية . لم أنقطع عن موسى القبلى جريا وراء المزيد من الأمل والعرفان . ولما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال :
ـ بيتى محترم ، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع .
ابتسمت موافقا فتساءل :
ـ مارأيك فى فتياتنا ؟
فقلت باصرار :
ـ اعترفت لك بأننى مشغوف بالغناء !
ـ نور القمر ؟
ـ هو الحق .
ـ أنت رجل غريب ..
ـ ألم تحبها أنت ؟
ـ كلا .. والحمد لله ..
ـ الحمد لله ؟!
ـ لو بدرت منى حركة واحدة تنم عن ميل لفقدت عملى فى الحال ..
ـ اذن فهو حفنى داود صاحب الكازينو !
ـ ماذا تعنى ؟
ـ هو العاشق الغيور ..
ـ انه عجوز ذو وجه قرد ..
ـ ذلك أدعى للغيرة ..

ـ صدقني أنني أتجاهل الأمر كله ..
ـ ولكن عندك أفكار ولاشك ..
ـ ليكن عاشقها أو أباها .. من يدرى ؟!
ـ هل ..
ـ هل ؟!
ـ هل يعجز مثلك عن مساعدتى ؟
ـ ولِم أكدر صفوى ومستقبلى بسببك ؟
ـ كصديق ..
ولكنه قاطعنى بجفاء :
ـ ماأنت إلا مغرض !
ـ لاتسىء بى الظن ..
ـ لاتحاول اقحامى فى هذا الأمر ، لا تكن أنانيا ، غامر بنفسك اذا شئت والا فاصرف النظر ..
فقلت بحرارة :
ـ أقدم لك الأسف والاعتذار !
مضيت أشاربه دافنا همى فى الصمت ، ومضى يذوب فى النشوة وينفض عن نفسه الكدر ، ثم سألنى :
ـ هل أغضبتك ؟
ـ الحق لايغضب ، ولكن كيف عرفت حفنى داود ؟
ـ كان ناظر مدرسة أهلية وكنت كاتب حسابات عنده ، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف ومحاسبتها اضطر الى تصفية المشروع ، وبعد حين قدم مشروع الواق واق وضمنى اليه مديرا ..
ـ ومتى عملت نور القمر عنده ؟
ـ من أول ليلة ، لعله لم يقم بالمشروع الا من أجلها ..
ـ وهو الذى فرض عليها العزلة ؟
ـ على الأقل هو الذى أصدر الأوامر الينا ..
ـ أتصور أنها تجىء معه وتذهب معه .. ؟
ـ فى الفورد ..
ـ لاشك أنه أصبح ذا مال ؟
ـ اعتقد ذلك ..
لم أهدر الوقت سدى كما توهمت ، لقد أثريت بمعلومات مفيدة ، وتحدد سبيلى كما لم يتحدد من قبل . ولن أقطع صلتى بموسى القبلى مداراة لنواياى الحقيقية ..

- ١٦ -

واقتحمنى سنجة الترام بزيارة توقعتها وخشيتها . وكنت قد تجنبت الانفراد به لعله يدرك موقفى من اقتراحه ولكنه كان مدمن بلطجة ، معتادا للأخذ دون مقابل ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء ، وبتخلى البشاشة عن قصماته أسفرت عن دمامتها وندرها . تساءل :

- ماذا جرى ؟

انه يتساءل عن سر تباعدى رغم وضوحه فيضطرنى الى اختلاق المعاذير . قلت :

- ليس المزاج على مايرام !

فقال بقحة :

- هذه عاقبة التردد على بيت قواد !

فقلت باستياء :

- ليس الأمر كذلك ..

فسأل ببرود :

- متى تفى بوعدك ؟

- الم نقرأ الفاتحة ؟

حملقت فيه بذهول فقال :

- قرئت بالقلب ، أم وجدتنا دون المقام ؟!

- أستغفر الله ، المسألة بالنسبة لى قفزة خطيرة ..

فقال وهو ينهض :

- أم وجدتنا دون المقام !

غادرنى مضطربا . كلا . لم أعرف الجبن فى حياتى ، ولا كنت ممن تعرقلهم الخشية على حسن السمعة . لكنى شعرت بأننى مقبل على عاصفة أو أن عاصفة مقبلة علىّ ، وحتى هذه اللحظة فالنجاة ممكنة . ممكن أن أسدل بيدى ستارا على روض الفرج وبيت موسى القبلى وقارب سنجة ، ثم أرجع الى روتين حياتى السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة المالية . هذا ممكن نظريا ولكنه مستحيل فى الواقع . الواقع أننى فريسة جنون طاغ يلفظ كافة قيم الحياة ، ويتركز فى هدف واحد ، ذلك يدفع بى فى شبكة من العلاقات المذهلة ، والأخطار المحدقة ، ويفتح لى طريقا واحدا الى مصير محتوم .

- ١٧ -

تبادلنا الأنخاب ، أنا وموسى القبلى . قال وهو يتفحصنى :

- لعلك شفيت من حبك ؟

فهززت رأسى نفيا قال :
ـ أنه أمر مضحك وعجيب ..
ـ هل عندك نصيحة ؟
ـ أأنت غنى ؟
ـ كلا ..
ـ هذا يعنى ضياع ٩٠ ٪ من الأمل ..
ـ لا مؤهلات من مال أو شباب !
فقال بدهاء :
ـ ثمة وسيلة للشفاء . أن تكثر من زيارتنا !
ـ يخيل الىّ انك لم تعرف الحب ياموسى ؟
ـ هذا حق .
ثم مواصلا بقحة :
ـ الحق أننى لا أحب النساء ، لذلك أتعامل معهن بمهارة فائقة !
تفكرت مليا فى معنى قوله ، ثم سألته :
ـ اترى حالى ميئوسا منها ؟
ـ حدثنى أولا عن حبك ؟
ـ ماذا أقول ؟ ، أنها تفرض ذاتها على وجدانى وخيالى ، أقوى واعز من الحياة نفسها ، لاغنى عنها كما أنه لاغنى للحياة عن أشعة الشمس ..
فضحك على رغمه وقال :
ـ ما اعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط متقاعد خبير بالناس والحياة .. !
ـ نحن نعرف معنى الأسر أكثر من غيرنا .
فضحك مرة أخرى وقال وقد ثمل :
ـ منظرك ضخم لايثير الرثاء أبدا !
فغضبت وقلت له موبخا :
ـ سكرت عليك اللعنة .
وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجى ..
خف مسرعا مغادرا الحجرة . ترامت الىّ ضجة مريبة ، قمت الى باب الحجرة وأخرجت رأسى الى الدهليز . رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة والمخبرين !

ـ ١٨ ـ

لم أشعر ـ من قبل ـ بمثل الذعر الذى اجتاحنى ، تجسد لى وجه سنجة الترام وراء الكبسة . أنقض علىّ مخبر فقبض على أعلى الجاكتة ، صكنى بكوعه فى صدرى ، وهو يقذفنى بوابل من الشتائم . اجتيحت الحجرات ، سيق الرجال

والنساء عرايا أو شبه عرايا . من حسن الحظ أننى لم أضبط متلبسا ولكن أى حسن حظ . حاولت أن أهمس بهويتى فى أذن الضابط ولكن المخبر أرجعنى بلكمة فى عنقى . أنغمست فى العار حتى القمة . دفعنا الى السيارة كخراف تشد الى الذبح .

وصلنا الى القسم وقد استل منى الاحساس والفكر . وكان تحقيق مهين . حجزت النساء ، وموسى القبلى ، وحررت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم . غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتى غادرت القسم شخصا جديدا عاريا تماما !

- ١٩ -

ذكرت الحادثة فى صفحة الحوادث الصباحية . لم تعلن أسماء - عدا موسى القبلى - وقيل عنى « وضابط جيش متقاعد فى الخمسين من عمره ! » خيل الى أنه اعلان كاف لفضحى فى محيط الأسرة وفى قهوة المالية . انزويت فى شقتى بالمنيرة غارقا فى القرف . طالت لحيتى وأهملت نفسى تماما . على تلك الحال زارتنى عمتى ، وأكد لى قلبى بأن صهرها أخبرها بكل شىء . أقنعتنى - ما وسعها ذلك - بأن زيارتها عادية - سأصبح حديث الأسرة المحترمة . أبناء عمتى وعمى وخالى أناس محترمون حقا ، وطالما تبادلنا الازدراء الصامت . لايحبنى فى أسرتى أحد الا عمتى . ها هى تعود الى حديثها المفضل « الزواج » .

- لاتكن عنيدا ..

حدجتها بارتياب فقالت :

- أهملت نفسك أكثر مما يتصور العقل ..

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت :

- ماذا عندك من أخبار ؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت :

- تصور !

ثم اغرورقت عيناها ، وقالت :

- أنك صورة طبق الأصل من أبيك ، لك منزلة فى قلبى لانظير لها ، ليتك تعمل بنصيحتى !

- ٢٠ -

لم أفد من الدرس مايتوقعه العقلاء . قلت ان الجنون حقا هو الرجوع بعد ماكان . تخففت من البقية الباقية من الحياء فمزقت أثوابى . من الآن والى الأبد سأنتمى الى عالم غير عالم الناس . سأفتح ذراعى للجنون والسفه . وخمر النزق المعتقة . الحياة لاتتكرر والحب أغلى جوهرة فى تاجها . وفى سبيل الجنون المقدس تستحل كل حماقة . اقتلعت نفسى من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم . خف وزنى تماما وبت قادرا على الطيران والشيطنة ، وليأخذ

بزمامى نبض القلب الثمل بالبهجة والاسى .

وهدانى الصوت الخفى الى خاطرة مبتكرة وجريئة فقلت لحمودة الجرسون :

ـ سيسجن موسى القبلى فهل يمضى الكازينو بلا مدير ؟

فقال وهو يرمقنى بانتباه :

ـ هذا مايشغل حفنى بيه فى هذا الوقت ..

فقلت بهدوء :

ـ انى أرحب بهذا العمل :

ـ أنت ؟!

ـ نعم أنا ، لِمَ لا ؟

فتردد متفكرا فقلت :

ـ قدم مايسعك من معاونة وأنت مطمئن !

فقال حمودة بارتياب :

ـ انى أخمن الدافع وراء ذلك ..

ـ انى أعرف الأصول !

ـ لدى أى خطأ تتورط فيه فسأعتبر بالتبعية متورطا فيه ومسئولا عنه وأخسر رزقى !

ـ لاتخش شيئا من هذه الناحية .

ـ ألا تحاول الاستحواذ على المرأة

ـ كلا ..

ـ اذن لماذا ترغب فى هذا العمل ؟

فقلت باسماً فى ثقة واخلاص :

ـ ربما لأعمل فى رحابها ...

ـ ٢١ ـ

دعانى حمودة ذات ليلة لمقابلة حفنى داود صاحب الكازينو الواق واق . وجدته وراء مكتب صغير وأنيق فى حجرة تطل بنافذة على النيل ، استقبلنى بوجه محايد ، وراح يتفحص هيكلى الضخم بلا انفعال ، كان عجوزا فى السبعين أو فوقها ، ضئيل الجسم ، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه . شعره الفضى مفروق وممشط بعناية ، كذلك شاربه . أشار فجلست على أحد مقعدين جلديين متقابلين أمام المكتب . تبادلنا النظر فى صمت مليا ثم سألنى :

ـ أسمك ؟

ـ أنور عزمى .

ـ ألأنت ضابط جيش متقاعد حقا ؟

ـ أجل ..

ـ وترغب فى العمل مديرا للكازينو ؟
ـ نعم ..
ـ ما الذى دفعك الى ذلك ؟
قلت ضابطا مشاعرى تماما :
ـ الفراغ فتاك ، ثم اننى محدود المعاش !
ـ اتراه عملا مناسبا ؟
ـ لم لا ؟ .. وهناك سبب آخر ان احتفظ به لموسى القبلى لحين خروجه من السجن !
ـ صديقك ؟
ـ نعم ..
ـ ولكن العمل يحتاج الى خبرة خاصة ؟
ـ أكثر مدة خدمتى فى الجيش انقضت فى الفروع الادارية فأنا ذو خبرة بالادارة والحسابات ..
ـ العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكرية ؟
ـ لا تنقصنى اللباقة !
وساد الصمت مرة أخرى ثم قال :
ـ لابأس من تجربتك ، ولكن أعلم أن أهم واجباتك أن تمنع المتطفلين عن نور القمر ..
ـ علىّ الاقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم !
ـ عظيم ..
ونادى سنجة الترام فجاء وقد دهش لمرآى ، فقال له حفنى داود مشيرا الى :
ـ أنور عزمى المدير الجديد ، يتعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلى .

لى مجلس خاص بمحاذاة المسرح . والى جانب النسبة المئوية التى تشكل مكافآتى على امتياز وهو أن طلب من المشارب ما أشاء . عملى الأساسى المحافظة على النظام ، مراجعة دفتر التذاكر ، التصدى لأى خلاف ينشب بين زبون وزبون ، زبون وجرسون ،زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة ، الى المهمة المقدمة على غيرها وهى صد المتطفلين عن نور القمر .

ولكن ماذا فعلت بنفسى ؟ .

أظن يحسن بى أن أدفن هذا السؤال وامثاله . عملى أشرف من غشيان غرزة سنجة ، أو التردد على بيت موسى القبلى ، أو موقفى فى القسم . فلتدر اسئلتى حول الحب نفسه فهو السر الجدير بالبحث والفهم حقا . على أى حال فأنا لم أقع فى هوى امرأة عادية . جمالها الفائق معترف به من الجميع . وهى تتبدى فى هالة من الغموض المثير للفضول . تحدق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب

والضلال . ولكن هل اقتربت منها حقا ؟ الجواب بالايجاب بالحساب المادى . فأنا أعمل لحساب حارسها الأخير . أقابله يوميا ، أتلقى تعليماته . أقدم له الحساب . انى اتحرك على بُعد خطوات من استراحتها الخاصة . سألتقى بها ذات مرة ، فى حجرة حفنى داود أو فى الممشى وراء الكواليس . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد . لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس . كأنى بذلت مابذلت وضحيت بما ضحيت لأصل فى النهاية الى القرد العجوز . وإلى هذا كله جعلت أرقب سنجة الترام بحذر ، وأخاف جانبه . وقد أعطانى حقى وزيادة . بل سألنى مرة :

- ألم تحن من جديد الى قاربنا الشراعى ؟

فشكرته بقلب يفيض بمقته وقلت :

- ستجمعنا الأيام بأذن الله ..

لاشك أنه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجدنى - نتيجة لها - مديرا عليه ! . ولا خطر ببالى أن عملى الجديد سيبعدنى عن نور القمر خطوة بدلا من أن يقربنى منها خطوات . كنت وأنا زبون أراها من مقدمة الصفوف وفى مواجهتها ، أتملى طلعتها البهية طيلة الوصلتين ، وأسبح فى تيار أنغامها المنسرب ، اما الآن فلا أراها الا من زاوية جانبية ، ويشغلنى العمل كثيرا عن التركيز فى عذوبة الصوت ، وأسير أحيانا فى الممشى الفاصل بين جانبى الصالة كأنما لاتفقد النظام ، وفى الحقيقة لأملأ عينى منها ، وبأمل أن ألفت عينيها الى عابدها المعذب ولكنها كانت تهيم فى النعمة ولاترى السامعين . وبات عزائى الوحيد أننى أنتمى الى العالم الغامض المنور بنور القمر ...

- ٢٣ -

ثمة علاقة عجيبة بين حفنى داود ونور القمر ، ماهى ؟ . هو الذى يسيطر على ظهورها واختفائها ، ويرسم الحدود التى لا يجوز تخطيها ، وهى تجىء وتذهب ، تغنى وتسكت ، تنزوى وتصمت ، باملائه وتوجيهه ، فأى قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد ؟! والى هذا كله فهى تتبدى هادئة وسعيدة ، لم لا ؟ مادام لاتبدر منها بادرة غضب أو تمرد ، وهو ليس أباها فالقرد لاينجب ملاكا ، وليس زوجها والا لعرف ذلك على أوسع نطاق ، ولا يتصور أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه ، فما سر هذه العلاقة العجيبة ؟! وهبه ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفى ، لِمَ لم يجعل منها نجمة من نجوم عماد الدين ؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها الا يشكل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هى عليه ؟! . هذا دؤكد فيما أرى ، لا شك أنها القوة الحقيقية فى هذه العلاقة الغامضة ، وما جنيت حتى الآن من مغامرتى الا زيادة فى اضطرام عواطفى وهياج أحلامى وحومانى بجنون حول الخطوة التالية ،

انى أقبع فى مجلسى ، رفيقى قدح من البيرة مكلل بالزبد ، أناجى طيلة الوقت إحلاما طائشة ، أتصور أنها علمت بالمدير الجديد ، عرفت اسمه وهويته ، لمحته مرة أو أكثر ، راقها منظره ، لم لا ؟ . حدست السر وراء سعيه ، وحتما سيصاب حفنى داود مرة بوعكة تمنعه من المجىء ، أو سينقضى أجله ، أو أجد حيلة للتخلص منه ، عند ذاك تنسرب أضواء الأمل فى هذا الليل البهيم ، وينفسح المجال أمام الحب ليصنع معجزاته انى أتمزز البيرة ، وأحلم وأتذوق النشوة ، أغانى العذاب المقدس ، ومن ناحية تلاطفنى سمة مفعمة بأريج الياسمين ..

ـ ٢٤ ـ

الظاهر أننى شغلت بال حفنى داود كما شغل بالى ، فعقب المحاسبة والتشطيب فى ذات ليلة قال لى :

ـ لاتذهب .

فلبثت فى مقعدى الجلدى لعبة بيد الاحتمالات المتناقضة ونهض قائلا :

ـ تعال .

خرج من الباب الخلفى وأنا ظله . رأيت الفورد قابعة فى الظلام المتفشى عقب التشطيب واطفاء الأنوار . فتح الباب الخلفى قائلا :

ـ تفضل ..

واتخذ مجلسه فى المقعد الأمامى امام عجلة القيادة . سرعان ماتبينت وجودها الى جانبه فكاد قلبى يثب من صدرى . هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعى منى أو تدبر ، جاءت كضحكة الشروق مسربلة ببهجة سماوية . واندفعت تلقائيا إلى تحيتها فقلت :

ـ مساء الخير ياهانم .

فغمغمت برد غامض ، وخفت عواقب خرقى للتقاليد ، ركزت بصرى عليها لائذا بالظلمة . تمليت رسم خلفية رأسها وأعلى منكبيها ، ميزت قبعتها العريضة وشملتها المطرزة بالترتر ، وثملت بعطرها الفواح . شبران هما ما يفصلان بينى وبينها . انسابت السيارة فى الظلام ممزقة هدوء الحقول بأزيز محركها . انسبت معها فى بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره الشجى . وددت أن أسمع صوتها وهى تحادثه أو أن تمتد الرحلة الى الأبد .

وجدت السيارة تدخل حى المنيرة . الحى الذى ولدت ومازلت اقيم فيه . ودارت الى شارع أصلان فوقفت أمام فيللا صغيرة مكونة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التى أسكن فيها مباشرة ، لم اتمالك أن قلت بدهشة :

ـ أنى أسكن العمارة خلف الفيللا مباشرة !

فأجاب حفنى بصوت محايد اطفأ حماسى :

ـ عظيم ..

أدخلت الى حجرة أنيقة مؤثثة على الطراز الغربى . جلست على ديوان رانيا

الى القنديل باعجاب ، مناديا ارادتى لجمع شتات فكرى والسيطرة على هوج انفعالاتى . لبثت وحدى عشر دقائق ، استقر بقلبى خلالها احساس مطمئن بالانتماء .

وجاء حفنى داود فى روب صيفى مزركش مثل جدران الحجرة ، يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة . رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة . أتقع المعجزة وتهل نور القمر بطلعتها السنية ؟!

ذهب الى الباب فأغلقه ثم اتخذ مجلسه باديًا النشاط المعهود . خاب الأمل . صمتت بلابل السرور . ما الذى دعاه الى استصحابى معه ؟ . رغم طعونه فى السن فهو مدخن شره . جاريته رغم نفورى الطبيعى من المخدر . مهما يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت الى المقام وأمسيت جليسا لصاحبه . واذا به يقول :

ـ لاشك أنك تتساءل عن سر الدعوة ولك حق ، اعلم أنى رجل صريح وواضح ، وأنت بدورك رجل عسكرى لا يناسبه اللف والدوران .

فرنوت اليه متسائلا فقال :

ـ المسألة تتلخص فى الآتى ، سفر الى السويس ، نزول فى فندق الفردوس ، يدخل عليك صباحا خادم بالفطور ، يترك فى الحجرة لفة معينة ، يذهب تضع اللفة فى حقيبتك ، ترجع بالسلامة ، توتة توتة فرغت الحدوتة !

ازاء كل عبارة تقهقرت ميلا منغمسا فى مستنقع الخيبة . تمتمت :

ـ تهريب !

ـ سمه ماتشاء من الأسماء ، أربع مرات فى الشهر ، مائة جنيه مكافأة عن كل مرة !

ـ لكنه تهريب !

ـ الشك لايمكن أن يرتقى الى شخص محترم مثلك ..

ـ عندك ولا شك من يقوم بذلك خيرا منى ..

ـ أنت خير من يقوم به حتى يخرج صديقك من السجن .

فقلت باستياء :

ـ لن أكون مهربا !

ـ الا يغريك الثراء ؟

ـ بلى ، ولكن الوسيلة يجب أن تكون شريفة ..

ـ أنت حر طبعا ، ولكن العمل لامساس فيه للشرف !

ـ هو كذلك فى نظرى ..

ـ لعله الخوف ؟!

فقلت بحدة :

ـ لست جبانا ..

ـ أنت حر يا أنور بيه .

وخطرت لى فكرة ماكرة فسألته :
ـ أنت رجل محترم فلم لاتقوم بالمهمة بنفسك ؟
ـ وقتى لايسمح بذلك !
فقلت باصرار :
ـ لا أحب الأعمال المخالفة للقانون !
ـ انا لا أعترف الا بالقانون الالهى ..
ـ آسف جدا ياحفنى به ..
صمت . رجعنا الى التدخين المتواصل . تنهد أخيرا وقال :
ـ على أى حال لنفترق أصدقاء ..
ظننته يطالبنى بالانصراف فهممت بالقيام ولكنه قال بسرعة :
ـ لا أعنى هذا ، أعنى أنه علىّ أن أختار مديرا جديدا !
وقفت مادا يدى ، صافحنى وهو يقول :
ـ فكر ، انى منتظر جوابك النهائى غدا !

ـ ٢٥ ـ

نجح فى أن يبقينى صاحيا حتى صباح اليوم التالى . انى مفقود بحسب التعبير العسكرى . وقلت بصوت مرتفع فى حجرة الجلوس بشقتى :
ـ لا .. لا .. لا ..
أن يكون القرب نارا فالبعد موت . ومهما يكن الثمن فلن أرتضى هجر الواق واق . فيم التردد وقد انتهى أنور عزمى من زمان ؟! . لقد هجر الأقارب والأصدقاء ، تخطى العرف والتقاليد ، تمرغ فى السمعة السيئة ، حمل فى سيارة الشرطة بين المومسات ، يعمل فى وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة . فيم التردد ؟ . لم اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون ؟! . حقا أنى أتدهور الى غير ماحد ولكن ما أحوجنى الى رحمتك يا اله المعذبين ؟! .
ومضيت الى حجرة حفنى داود فرمقنى ببرود وتساءل :
ـ يبدو أنك اتخذت قرارا ؟
فحنيت رأسى فى تسليم فسألنى :
ـ ترى كيف تغير رأيك ؟
فقلت غاضا بصرى :
ـ الثراء ، أليس هو بالاغراء الكافى ؟!
ورجعت الى مجلسى بخاطرة جديدة من الشك . هل فطن الرجل الى غرامى بنور القمر ؟ . العاشق تفضحه أحواله . وهناك أيضا حمودة المطلع على سرى ،

وكان موسى القبلى كذلك قبله . ولعل أقصى حد . لو صحت ظنونى فعلى أن أتوقع البطش بى لدى أول بادرة تهديد من ناحيتى . ولكن لعلها مجرد ظنون

ووساوس لا أساس لها ..

ذهبت وجئت وقبضت . لأول مرة يمتلىء جيبى ويصير لى حساب فى البنك ، من أعماق الظلمات التى أتردى فيها صعد الىّ شعور ملىء بالثقة والنشوة ، ينتشر مثل الشذا الطيب ، أملى على بأننى أسير فى الطريق الصحيح وأننى بالغ شجرة طوبى[1] . شعور داخلى كنشوة الخمر . ذو قوة تتفتت حيالها صخور الواقع المتحدية . ولم يكن مجرد شعور باطنى فحسب فالمنطق آزره بطريقته الخاصة معتبرا ماترديت فيه من درجات السقوط مما لايمكن أن يضيع عبثا ولكنه الثمن الفادح يؤدى مقدما، وأن حسن الختام آت لاريب فيه . هكذا عللت نفسى بالأمانى لأتزود بالصبر والطف من نذالة الجو . وحسبى الآن اننى أمكث فى هالتها كل ليلة فى الفورد مقدار نصف ساعة تضاف الى رصيد الوصلتين بالواق واق . وحسبى أيضا أنى صرت عضوا خارجيا فى الأسرة وجليسا دائما فى الحجرة العربية ومغامرا يحمل اليها كل أسبوع كنز نعيمها الوفير ، ولدى بعد ذلك عزاء الانسان — احلامه المتهورة — التى تحلق به فى الفضاء بلا أجنحة .

وفى احدى سهرات الليالى الزرقاء بالحجرة العربية سألته :

— لم تقنع بفصل نشاط محدود فى ملهى ثانوى بروض الفرج ؟!

فأجاب باقتضاب :

— فيه مايكفى ..

— ولكن ثمة ملحنين معاصرين متفوقين وألحان جديدة جميلة وملاهى عامرة بعماد الدين ؟

فثقبنى بنظرة كريهة وسألنى :

— ماذا يهمك من ذلك ؟

فرجف قلبى غير أننى ضحكت قائلا :

— يبدو أننى أصبحت من رجال الأعمال !

فقال ببرود :

— كلا أنت موظف ياجنرال !

تضاعف حنقى عليه ، تمنيت تحطيم جمجمته ، تساءلت :

— الا تحب الذيوع والتوسع والشهرة ؟

فأجاب بصوت أبرد من الأول :

— كلا ..

المسألة أنك أنانى وجبان .. حريص على حبس العصفور المغرد فى القفص . تخاف عليها من الملحنين ومن الجمهور الحقيقى ، ولكن لماذا لاتحكم قبضتك المعروقة المدبوغة فتبقيها فى الفيللا مثل جوارى الحريم ؟!

- ٢٧ -

الحياة تمضى فى طريقها لا آجنى منها الا أمر الثمرات . أحترق مثل الشمعة فيترسب ذوبى فى ماء آسن . وأسرى عن نفسى فأقول لها أنى خليفته ، لا خليفة له غيرى . ولكن هل أقنع بالصبر كالعجائز ؟ . ألا يجدر بى أنا المغامر بالتهريب أن أغامر بالاقتحام ؟" ولكن كيف وهو متصد لى مثل كلب الحراسة ؟! حقا أنى لمجنون . أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد فى مركز الأرض . ويؤكد جنونى وأسرى الخفيف والنسمة والخوار والضجة والتغريد والألوان والضوء وكل شىء .

وتتوقف الحياة فجأة عندما تدق الساعة الثامنة مساء فلا يجىء الفورد كعادته كل ليلة .. انتظرت متابعا عقارب الساعة . اقترب ميعاد الغناء فاتصلت بالفيللا بالتليفون . رد على صوتها :

- آلو .
- أنور عزمى .. ماذا أخركم ؟
- لن نأتى الليلة ..
- ولكن الجمهور منتظر ..
- تصرف .. مع السلامة ..

قطعت الخط . وجدتنى فى دوامة من الابتهاج والانفعال والحيرة . انه أول حوار يدور بينى وبينها وان لم تمازجه نبرة طيبة أو كلمة مجاملة . أين حفنى داود ؟ . لِمَ لم يبلغنى بالأمر ؟ . لِمَ لم يرد بنفسه ؟

وكان على أن أواجه الجمهور معتذرا عن غياب نور القمر .

- ٢٨ -

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيللا بشارع أصلان . نائمة مغلقة ولا بصيص نور فى الداخل . انها تطرد الزائر بصرامة موحشة . مضيت الى شقتى فلم يطرق عينى نوم حتى الصباح . ترى هل جاءت المعجزة ؟ . عم ينكشف الستار الأسود ؟

ورجعت اليها حوالى التاسعة صباحا . سألت البواب :

- حفنى بيه موجود ؟

أجاب الرجل :

- البيه مريض ..

تصرفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات . وجدت فى المدخل ممرضة فقلت لها :

- انى مدير أعمال حفنى بيه .. كيف حاله ؟

ـ لعله أحسن .
ـ ماذا به ؟
ـ تعب فى القلب ..
ـ هل أستطيع رؤيته ؟
غابت دقيقة ثم رجعت وهى تشير الىّ بالدخول . رأيته راقدا لايبدو من الغطاء الا وجهه . لمحت مخايل الموت فى نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها . الحجرة خالية بخلاف ماتوقعت ! .
ـ لابأس عليك ، شد حيلك ..
أجاب بصوت خافت :
ـ شكراً .
ـ لن أرهقك بالحديث ..
ـ لا أهمية لذلك .. انها النهاية !
أشار الىّ بالجلوس على مقعد قريب من الفرش وقال :
ـ لم أتوقع حضورك !
فتساءلت فى دهشة :
ـ كيف ؟ .. لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس ولكنى وجدت البيت نائما تماما ..
قال باقتضاب :
ـ كيف !
جفل قلبى ، تساءلت :
ـ من ؟
ـ لم تضيع لحظة .. هربت !
ـ نور القمر ؟
ـ المتوحشة ..
فترت انفعالاتى كلها كشعلة ضيئة ردمت بكوم تراب ! . ففلم أدر ماذا اقول ، أما هو فقد تحطمت مغالبته وتدفق الاعتراف بلا ضابط ..
ـ انها عذراء ، انه الحب ، أنه الجنون ، أنت تفهم معنى ما أقول !
حدجته بنظرة محرجة ويائسة فقال :
ـ توهمت وقتا انه أنت ..
ـ أنا ؟!
ـ أنك برىء ، وأحمق مثلى ، أنها ابنة المرحومة زوجتى ، شبت تناديني بالأبوة ، ماتت أمها وهى عروس فى السادسة عشرة ، حاولت محاولة يائسة ثم قررت الاحتفاظ بها مهما كلفنى جنونى ، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهلية

كانت تدر عليّ رزقا لابأس به ...

وعيت كل كلمة ولكن ما الفائدة ؟ .. سألته :

ـ أين تظنها ذهبت ؟

تجاهل سؤالي وواصل اعترافه :

ـ حصلت على المال بأى ثمن كما تعلم لأوفر لها أسباب السعادة ، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع رغبتها فى الغناء والفن ، تجرعت العذاب ليلة بعد أخرى ، فعلت المستحيل ..

تساءلت بحيرة :

ـ ألم يكن بوسعها أن تتمرد عليك ؟

ـ كلا ..

ـ لم ؟ ..

وهو يتنهد :

ـ موهبة اذا شئت !

ـ أى موهبة ؟

ـ فى عينى ، لاتفسير لذلك ..

ايخرف الرجل ؟ .. أيؤمن بالسحر ؟ .. هل يتمتع بقوة تسلطية خاصة ؟ ..

ـ بمجرد أن اقتحمنى المرض طارت ..

ـ متى ؟ .. لقد ردت على مكالمة تليفونية فى منتصف التاسعة من أمس ..

ـ لم تنتظر النهار .. ربما عند منتصف الليل أو عقب ذلك :

كان من الممكن أن أصادفها فى موقف أمام الفيللا ! .. ياللحسرة المعذبة ..

وعدت اتساءل :

ـ أين تظنها ذهبت ؟

فتمتم :

ـ يا له من سؤال أحمق !

ـ ٢٩ ـ

مات حفنى داود فى نهاية الأسبوع . أغلق الواق واق أبوابه ولما ينته الموسم . توارت عن عينى الحياة الجديدة بأضوائها وأناسها فوجدتنى منبوذا خارج الأسوار . أنا وحبى الشهيد . هل خدعنى الشعور الباطنى الملهم كما خدعنى المنطق ؟! . هل أرضى من الغنيمة بالاياب سالما من قبضة الشرطة ؟ . الحياة قفر لدرجة الرعب . لاشىء ولامعنى ولا طعم ، وهذا الاحساس المتغلغل فى الاعماق بالاحباط والحزن وخيبة الأمل . هل أستطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذب ؟ . وانى لأتحرى كلما وجدت الى التحرى سبيلا . أستجوبت بوّاب الفيللا وحمودة وسنجة الترام . اغشى الملاهى ملهى بعد ملهى . أمشى فى الأسواق والشوارع كالمخبرين . فعلت اكثر من ذلك . قصدت قسم المنيرة .

ادعيت أن لى دينا فى عنق الفتاة المختفية . أعطيت أوصافها وما لدى من معلومات قليلة عنها ، طالبت بمعاونتى فى العثور عليها . اندفعت فى كل سبيل بقوة جنونى وألمى .

ولما بلغ بى الألم حده الأعلى قررت أن أقاوم مادمت أرفض فكرة الانتحار . تجنبت زنزانتى ماوسعنى ذلك ولكن قهوة المالية لم تشغل الا بعض وقتى ولم تجد كثيرا فى تسليتى . خطر لى أن أقامر ، فالقمار ينسى الانسان النوم والطعام فلعله يبرئه من الحب وجدت فيه مهربا محموما ولكنه لم يستطع أن يستغرقنى وأساء الى أعصابى اساءة حملتنى على اعادة التفكير . والتمست الشفاء فى الكتب الروحية ، ولا أنكر أنها فتحت لى باب أمل ولكنه لايؤتى ثمرته بلقاء المحبوبة الا بعد الموت ، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار . وخطوت خطوة جديدة تماما فاستشرت طبيبا نفسيا . قصصت عليه قصتى ، رأيته يصغى بعناية وحدب . ولما وجدته يرمق هيكلى الضخم قلت له مرددا قولا قديما :

- منظرى لايثير الرثاء !

فقال بجدية :

- انك انسان معذب ..

ثم واصل بعد هنيهة :

- لا أعتقد أنك مريض الا اذا اعتبرنا الحب مرضا !

فسألته بتوسل :

- ألا يوجد علاج لحالى ؟ .. اعنى عقاقير مفيدة مثلا .. ؟

- العقاقير مفيدة ولكنى لا أنصح بها الا عند اليأس ..

- أظن أن حالى ميئوس منها تماما ..

- ليس الأمر كما تصور .. أنك سجين وعلاجك فى أن تخرج منها ..

ارتبكت امام أقواله فصمت مبتهلا فقال بوضوح :

- أنصحك أولا بالزواج ، أنصحك ثانيا بالاندماج فى نشاط اجتماعى أو سياسى ، اذا لم يجد معك فلدينا آخر وسيلة وهى العقاقير ..

بقدر ما أعانى من ألم بقدر ما أصمم على المقاومة ، أزمتى تكشف لى عن جوانب ظلت خافية فى نفسى بلا استغلال . زرت عمتى نظيمة وعالنتها برغبتى فى الزواج . صادفتنا عراقيل غير يسيرة . السن مثلا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتى الماضية . ولكن ثمة نساء فضليات يعانين ظروفا سيئة ويرحبن بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتح . وجدت بينهن أرملة فى الحلقة الرابعة ، أما لفتاة متزوجة ، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة . جددت شقتى بالترميم والتجديد والطلاء ثم استقبلت بها عروسى . الأمر بالنسبة لي علاج ، فى نظر عمتى رغبة فى الاستقرار والانجاب ، ليس زواج حب ولكنه زواج للشفاء من

الحب أو تخفيف حدة جنونه ، عناصره الأساسية الطيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة . سرعان ما لمحت مخايل الأبوة ، تلقيتها بقلق وحب استطلاع ونوع من السرور ، ولكن أسير الحب لازال يرزح تحت أغلاله الصلبة . ثمة شعور بالذنب كدرنى أنى فى الحياة الأخرى سأطلق زوجتى المخلصة لأتزوج من الأخرى ! . من يدرى فلعل زوجتى ترجع وقتذاك الى زوجها المتوفى او الى من يروق لها من الأرواح الخالدة ! .

ثم خضت تجربة الانتماء السياسى . تجربة مثيرة للعب عندما يشرع فيها انسان جاوز الخمسين من عمره بلا إنتماء حقيقى . غير أننى لم أكن بلا انتماء . الم يتقرر لى ميل محدد مذ اشتركت فى المظاهرة وأطلقت الرصاصة فى فناء مدرسة الشرطة ؟ ولكن الوطن يموج بتيارات جديدة أيضا . تيار دينى عنيف ، تيار يسارى متطرف ، تيار فاشستى حاد . تحيرت طويلا بين المبادىء.. فى كل واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض . وبدافع من ميولى القديمة اتجهت نحو الوفد ، وبخاصة جناحه اليسارى . فيه يطمئن ايمانى الراسخ بالله وحماسى العقلى الجديد للعدالة الاجتماعية . وهو محطة تأمل حتى اكتسب مزيدا من الخبرة والضوء وأفيد فى الوقت نفسه من نفوذ الحزب الشعبى . سرعان ما أنضممت الى لجنة الوفد بالمنيرة . انغمست فى الزوجية والسياسة . رغم ذلك ظل الأسير الكامن فى يناضل سلاسله ، طالبت بترشيحى فى الانتخابات ولكن مطالبتى رفضت لحداثة عهدى الرسمى بالوفدية . رشحت نفسى على مبادىء الوفد ، وجدتنى انافس مرشح الوفد الرسمى ومرشحا آخر من الأخوان . وعند احتدام المعركة وزعت منشورات غريبة استهدفت نسفى تماما . فيها كلام عن محضر الشرطة أثر القبض على فى بيت موسى القبلى ، وكلام عن وظيفتى كمدير للواق واق ، وتعليقات ساخرة وجارحة .

وخسرت التأمين ، ولكنى كعادتى توثبت بكل قوتى لمواصلة المعركة السياسية ، خطبت ، حررت فى الصحف ، وثقت علاقتى بالزعماء ، تبرعت من مدخرات التهريب للجهاد ، مضى الأسير على مضى الأعوام يتخفف من آلامه ويتحول ألمه الى أسى مقدس وهادىء لايموت ولايحيا بعنف وعربدة .

وفى صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلمانى الى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت . وفى ذات ليلة ، فى رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة ، وجدتنى أمام نور القمر ! . كنت وبعض أعضاء الوفد فى جلسة سمر تضم صحفيا لبنانيا عائدا لتوه من باريس . تحدث بحماس عن مغنية من أصل مصرى . تشدو بأغانى "فرانكو اراب" وتحقق نجاحا متوصلا تنبأ له بالعالمية ، تدعى نور القمر :

زلزل قلبى لدى ذكر الأسم بعنف يقظة كاسحة . اندفعت فى مجال التذكر والاستجواب متحررا من الجاذبية . انقلبت طفلا يلهو باللعب العقيمة والاحلام المتهورة ويناجى مرة أخرى المستحيل . وعلمت من الصحفى أيضا أن مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية لها ، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى ، فبادرت – فى الفندق – الى تحرير رسالة لها ، قلت :

عزيزتى الفنانة الكبيرة نور القمر :

هل تذكرين أنور عزمى مدير الواق واق ؟ .. لقد جاءتنى أنباء نجاحك فى مكان لم تخطر لى من قبل زيارته ، وعند رجل لم أتصور أن أعرفه يوما أو أن يمدنى عنك بخبر ، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز القلم عن وصفها ، سعادة موصولة بتراث قديم من الاعجاب والحب لك فى قلبى . أملى أيتها الفنانة الكبيرة أن تضعى مصر فى مكان من رحلتك الفنية المقبلة ، فهى الأصل ، وفيها أول قلب نبض بحبك .

★ ★ ★

وفى مصر تلقيت الرد على عنوانى باللجنة . الحق أنه لم يكن ردا بالمعنى المفهوم . كان كارت بوستال تتألق فيه صورتها الخالدة ، وعلى ظهره دون بخط اليد :

تحية شكر وتقدير

« نور القمر »

جعلت أقرأ المدون بعناية . كلا لم أسعد به السعادة المتوقعة . ليست رسالة شخصية من أى نوع كان . أنه أكلشيه للرد على المعجبين . لعلها أمرت بإرساله دون الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه ، أنه يدفعنى الى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفى وآلامى المقدسة . ولكن ها هى صورة لنور القمر بين يدى ، بكل بهائها وعذوبتها ، بين يدى رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسى ازاء المعجبين .

سأحتفظ بالصورة ما حييت . ومن يدرى ؟ .. فربما رجعت صاحبتها ذات يوم الى مصر للزيارة أو الاقامة . ماذا يعنى هذا بالنسبة لى ؟ لا أدرى أيضا ، ولا أحب أن أحسم الموضوع بفكرة محددة لن أجنى من ورائها الا العذاب . واذا داخلنى شك ذات يوم فى حقيقة مغامرتى العجيبة فما على إلا أن أستخرج الصورة من حافظتى ، وعند ذاك تنطرح أمامى الحياة بكل الوانها المتضاربة ، وما يند عن مفاتنها من جنون مقدس .

الحب والقناع

- ١ -

أول ليلة فى الفيللا الجديدة عقب العودة من شهر العسل ، شهر العسل - أغسطس - مضى فى رأس البر ثرى البهجة والرياضة والحساسية . بدأ حبا من جانب واحد - جانبه - ثم تسلل إليها الرضا والاقبال مقتلعا ذكريات بالية . استقبلا المساء بالجلوس فى الشرفة على كرسيين هزازين متجاورين فى ضوء خافت مطلين على الحديقة الصغيرة المفعمة بأنفاس الليل الناعمة ، كم يطيب له أن يلحظ عارضها الجميل ورأسها النبيل بشغف ورغبة فى الاستطلاع . وكانت ترسل الطرف إلى شارع الهمذانى الغائص فى قلب المعادى بأشجار الكافور المغروسة على جانبيه . استرخت فى قميص أبيض طويل طارحة شالها على ذراع الكرسى على حين تمدد فى بيجامته الزرقاء الراسمة لطوله الرشيق . فى شعر العسل ثم تعارف حميم ، تولدت ألفة حارة فاطمأن إلى نجاح مغامرته . قال :

- ضعى الشال على كتفك .

فقال بصوت رخيم :

- الجو دافىء .

- سبتمبر لا أمان له .

فقالت بعذوبة :

- أشعر بالأمان الكامل .

وجد فى قلب الجملة معنى خاصا فامتلأ صدره بالامتنان . مالت بالكرسى إلى الأمام فملأ قدحين بعصير الموز له ولها . وردته ذكرى من ذكريات رأس البر حين قدم كأسين من الويسكى قالت وقتذاك بجدية لم يتوقعها :

- مستحيل .

فقال معتذرا :

- أنه شهر العسل .

- ولو .

ثم مستدركة برجاء وحزم معا :

- ولا أنت !

لم تنثن أمام الحرج أو المجاملة . حتى فى أيام التلاقى الأولى وفى غمرة

طوفان العواطف رفضت ما تأباه بقوة وشجاعة . وقد تراجع متلقيا نذيرا من المتاعب . أجل لم يكن الأمر مفاجأة له فهو يعرفها من قديم : خبر صلابتها التى أرهقت قلبه ، وطالما رآها وهى طالبة بكلية العلوم ترفل فى زى المسلمات المحتشمات مطوقة الرأس والوجه بالخمار الأبيض . وألم يقل له صديقه عبد البارى خليل المحامى «انك مقدم على الزواج من كائن له مظهر أنثى ومخبر أمام مسجد» . لكنه الحب أو لعله الحب والعناد .

وسألها :

ـ أعجبتك الفيللا يا فتحية ؟

ـ أنها تفوق الخيال ولكنى لم أقدم لها الا القليل ..

ـ قلامة ظفرك أثمن منها ومما فيها .

فقالت ضاحكة :

ـ أنت رجل غنى تجود بالكلام كما تجود بالأشياء الثمينة ..

ـ أنا رجل عاشق بلا زيادة ..

ـ وأنا سعيدة .

ـ لكن لم يجر الحب على لسانك بعد ..

فضحكت قائلة :

ـ أنت تعرف تماما ما تسأل عنه ..

تجلى لعينيه يسرى أحمد . لا يمكن ان يجيء وحده ولكن فى اطار جامع لعبد البارى خليل ووهدان المتجلى وعدلى جواد وفتحية سليمان وشارع بن خلدون بالسكاكينى . جيران وأصدقاء من الطفولة . أعمار متقاربة حتى فتحية لا تصغرهم الا بعام واحد فهى فى التاسعة والعشرين بينما هو فى الثلاثين . لكن يسرى أحمد تجلى لعينيه وحده فى تلك اللحظة . تجلى له فى موقف لا ينسى حين خلا إليه فى حديقة الظاهر بيبرس . كان أحب الجميع إلى قلبه وكان يسعفه فى العلوم والرياضة المستعصية عليه . تطلع إليه بوجهه الشاحب الجذاب وارتبك فسأله :

ـ مالك يايسرى ؟

ـ لا ادرى كيف أبدأ .

ـ أمر هام ولا شك ؟

ـ فعلا ، لبيب ، نحن أخوان .

ـ طبعا .

ـ وانا باسم الأخوة أحدثك ، المسألة تتعلق بفتحية بنت الشيخ سليمان .

خفق قلبه خفقة رسبت فى حفريات صدره إلى الأبد .

ـ مالها ؟

ـ إنك يا عزيزى تطاردها فى الشوارع .
تساءل بوجوم :
ـ شكتنى اليك ؟
ـ معذرة ، اننا متفقان على الزواج ..
تمتم وهو يتجرع المرارة :
ـ لم أكن ادرى ..
ـ طبعا فأنت اخ كريم .
ها هى تقول له «أنت تعرف تماما ما تسأل عنه» بعد أن تلاشى الماضى تماما . ولكنه تلقى الخبر وقتها بحزن مجنون بها .
ودفعته انفعالاته إلى جحيم الكراهية . انقسمت عاطفته نحو يسرى أحمد فجرى الحب فى نصفها والمقت فى النصف الآخر . يسرى قصير رقيق وهو طويل رشيق ، صاحبه رقيق ضعيف وهو رياضى قوى نسخة طبق الأصل من أبيه داود الناظورجى وتساءل بحقد هل أصابها العمى ؟ وتساءل ايضا هل يسلم بالهزيمة أو ينتظر نجدة من المجهول ، من الموت نفسه ؟ . ها هى تقول له «أنت تعرف تماما ما تسأل عنه» . وقال لنفسه «ان خير ما اهتديت إليه هو أنه لا معنى لشىء» .
ـ أعددت فى الفيللا حجرة خاصة لوالدتك ولكنها عنيدة .
ـ وأنا أيضا ألححت عليها ولكنها كما قلت لك لا تفرط فى بيتنا القديم..
هز رأسه متظاهرا بالاسف . عادا يتبادلان شعورا خفيا بوجودهما معا ويلوذان بصمت هنىء حتى خطرت له خاطرة فضحك فسألته :
ـ ماذا يضحكك ؟
ـ عرفتك دائما جادة فلم أكن أتصور إنك أنثى كاملة .. فضحكت بسرور وقالت :
ـ ولكنك أقدمت رغم ذلك على طلب يدى !
ـ أنه الحب ..
ـ أنت أيضا لا تخلو من تناقض فمظهرك القوى غير متناسب مع رقتك الحقيقية ..
فتملى قولها قليلا ثم تساءل :
ـ لعلك لا تتصورين أنى قاتل مثلا ؟
فقالت ضاحكة :
ـ أني كيميائية لا سيكلوجية وهذا من حسن حظك .
ـ بهذه المناسبة أقول لك إننى شرعت أغازل كتبك العلمية .
فعليك ان تغازلى كتبى الثقافية ، كلانا يكمل صاحبه ..

فقالت باهتمام :
ـ ولكنى أسىء الظن بكتبك ، ولن تجد يقينا حقيقيا الا فى الدين والعلم ..
أنها تتحدث عن اليقين . لعلها تظن أنها تعرفه كما يعرفها وهى صارحته بكل شىء ، صادقة صريحة ومنذرة بالمخاوف ، أما هو فلا يعرف عنه الا السطح فهل تزوجت من رجل آخر ؟ . أنه الحب ولكنه الخوف أيضا فهل تتسع هذه الفيللا لثلاثة ؟ .. وثمة الشعور الحقير بالذنب يطارد العذابات الخفية . هيهات أن ينسى منظر يسرى أحمد قبيل وفاته ، والانقضاضة الوحشية الدنسة فى ظلام الليل .

ـ ٢ ـ

وقفت فى الشرفة عند الضحى فى مهبط الشعاع الذهبى . عقب جولة من المشى السعيد فى شوارع المعادى . يا لها من قامة رشيقة ووجه جذاب . أنه يملك ذلك كله بعد حسرة ألتهمت الصبا والشباب الأول . تمتمت :
ـ غدا أرجع إلى العمل ، لكل شىء نهاية .
كما انتهى شعر العسل . وكما يدب الفناء فى الوليد منذ اللحظة الأولى . قال بأسف :
ـ غاب ذلك عن بالى تماما .
فقالت متهكمة :
ـ هكذا ذاكرة الأعيان .
ـ ترجعين راضية إلى معامل وزارة الصحة ؟ !
ـ كل الرضا .
ـ ذكرياتى عن الكيمياء تتلخص فى أنابيب يتصاعد منها دخان كريه الرائحة ..
ـ ولكنى أراها بعين أخرى .
ـ وكيف يستقبلونك بعد شهر العسل ؟
ـ طبعا لن يخلو الاستقبال من غمزة .
فتنهد قائلا :
ـ كم أحلم باستقرارك فى بيتك .
أقبلت نحوه وقفت أمامه فى ردائها المكون من قميص أزرق وبنطلون رمادى وسألته :
ـ خبرنى متى تشرع أنت فى العمل ؟
الصوت الذى يخشاه يتكلم . الوعد لديها ميثاق دولى تذكر لقاء الخطوبة الثالث عندما بدا انها تميل للموافقة عقب اصرار طويل على الرفض . وقتها سألته :

ـ متى تخرجت ؟

فأجاب ببساطة :

ـ منذ ستة أعوام .

ـ ولماذا بقيت بلا عمل ؟

ـ لست فى حاجة إلى العمل كما تعلمين .

ـ لكنه العمل الذى يخلق الانسان لا دخل خمسمائة جنيه .

ـ لا ينقصنى شىء ، وانى لخبير فى التعامل مع الوقت ، لى مكتبة ضخمة ، لى أصدقاء ، ثم أننى لم اقتنع بعمل ابدا ..

ـ ان كنت تضيق بالوظيفة فافتح مكتبا للمحاماة ، صديقاك عبد البارى خليل وعدلى جواد محاميان ، صديقك وهدان المتجلى قاض ..

ـ انهم فى حاجة إلى العمل ..

ـ الإنسان بلا عمل عرضة للرعب .

ـ الرعب ؟ !

ـ الضجر ، العادات السيئة ، العزلة ..

ـ قد توجد جميعا مع العمل ..

ـ الاستثناء يؤيد القاعدة ولا يهدمها ..

ـ هناك الزواج والأبناء .

ـ العمل أيضا مهم ، أنه لأمر مهين ان يخطر الإنسان فى الحياة بلا عمل ..

ولما كان متلهفا على الظفر بها فقد قال :

ـ سأجرب ذلك ...

ـ فى أقرب فرصة .

فحنى رأسه بالايجاب . تجاوز عن مزاجه الراسخ من أجل الحب . وتأثر بنظرة عينيها وثبات نبرتها تأثرا أشاع فى نفسه الحذر والتوجس . وتذكر موقفها الرافض للزواج حتى شارفت الثلاثين فازداد حذرا وتوجسا . وتساءل هل يعثر تحت ذلك السطح الصخرى على ينبوع من ماء الأنوثة العذب ، تساءل مرتين ولكنه كان يحب حبا عنيدا أيضا . وآلمه شعوره القديم بضعف شخصيته . كان. كان ومازال ناقدا قاسيا للذات فلم تخف عليه علله . أنه الآن يضع أمله فى حياة زوجية متوازنة فى الحب ، حبها المتصاعد له . ستحبه كما أحبها واكثر بل لعلها أحبته بالفعل فهمسات الفؤاد الخفية لا تغيب عن الوجدان اليقظ .

قالت بفخار :

ـ ملف خدمتى يحوى أجمل الشهادات بكفاءتى فى العمل .

ـ طبعا .

ـ طبعا ؟ .. لماذا ؟

ـ أنك تتحرين الكمال فى كل شيء .
ـ ايرضيك ذلك ؟
ـ بلا ادنى ريب ولكنى أحب أيضا الاعتدال !.
ـ يا لك من رجل طيب .
ماذا تعنى يا ترى ؟ أما هى فتساءلت :
ـ كيف كنت تمضى يومك ؟
فقال مستبشرا :
ـ كنت أبدأ يومى بالسباحة طيلة أيام السنة عدا الشتاء فالعب التنس ، فأوى إلى مكتبى حتى الغداء ، أذهب إلى لقاء عبد البارى ووهدان وعدلى بركننا المختار فى الفردوس ، وقد أذهب إلى سينما أو أمضى السهرة أمام التليفزيون .
ـ أنهم يستريحون من العمل اما أنت فتواصل حياة الفراغ ..
فابتسم بلا تعليق فقالت :
ـ قراءاتك متنوعة ، يسرنى أنك تضم إليها العمل اخيرا ، لكن لأى هدف تقرأ ؟ .. هل حلمت يوما بالتأليف ؟
ـ أبدا .
ـ وفى المقهى كنت تشرب الويسكى ؟
ـ بضع كئوس .
هزت رأسها بأسف فقال :
ـ علينا أن نأخذ الأمور بهوادة ورفق ..
ـ أعتقد ان الايمان يتطلب جدية أكثر .
تذكر قول عبد البارى عن إمام المسجد . أنها طراز نسائى غريب حقا . قالت :
ـ أنك بذرة طيبة تعد بشجرة طيبة وسوف تشكرنى ذات يوم من صميم قلبك .
يا للداهية .. ها هو صوت داود الناطورجى ـ أبيه ـ يتردد من جديد . ماذا تظن وماذا تدبر ؟ . تذكر اجتماعا ذا مغزى بركن الفردوس فى الشهر السابق لزواجه . قال وهدان المتجلى القاضى المعروف بميوله الدينية :
ـ فتحية ممتازة ولكن عليك ان تتغير .
فقال عبد البارى خليل :
ـ أو أضمن حبها لك فيجيء التغيير من ناحيتها .
فتساءل هو بقلق :
ـ ألا يمكن ان يستقل كلانا بحياته ؟
فقال عدلى جواد :
ـ كان عليك ان تختار فتاة من نوع آخر .
وهدان أسعد الثلاثة اذ ظفر بزوجة تملك شقة أما عبد البارى خليل وعدلى

جون ميحلمان بالزواج منذ خمسة اعوام دون جدوى يأسا من العثور على شقة . ها هى تهدده قائلة «سوف تشكرنى ذات يوم من صميم قلبك» .. قال مدافعا :
ـ أنى شجرة بالفعل ، لست بذرة ..
فقالت باسمة :
ـ سأعتمد على الحب والعقل ..
قال لنفسه أنه سعيد حقا ولكن ماذا يخبىء المستقبل ؟

ـ ٣ ـ

هذا أول صباح ينفرد فيه بنفسه منذ زواجه . بعد ان اوصلها بالمارسيدس السوداء إلى وزارة الصحة واعدا اياها بانتظارها الساعة الثانية بعد الظهر فى نفس المكان . انه يشعر بوحشة لغيابها ولكنه يجد ايضا نوعا من الراحة . كما الف منذ قديم معايشة المتناقضات جنبا إلى جنب . كثيرا ما يبدو نصفين يناقض أحدهما الآخر فى العواطف والآراء جميعا . ما يكربه حقا فهو الوجه الآخر من حياته الذى أخفاه عن فتحية . منه جانب تافه مثل عش الهرم الذى كان يمارس فيه نزواته . لن تحاسبه على الماضى ، ولن تنسى موقفه من ماضيها أيضا الذى أغدقت عليه بسببه صفة النبل والشهامة . من السخرية بعد ذلك أنه قد ارتكب ما ارتكب من آثام من أجلها هى . ها هو يخلو إلى نفسه فى مكتبته كالأيام الخالية ، وها هى كتب الفلك والطبيعة والأحياء الجديدة ، ولكن نفسه مشتتة . حتى فى شهر العسل كشفت عن جوانب نفسها دون مجاملة . انها تذكره بأبيها الشيخ سليمان مدرس اللغة العربية بخلاف شقيقها المنتدب مهندسا بالكويت الذى شابه فى الدماثة أمه فلم لم يحدث العكس ؟ ! . أنها لا تدرى شيئا عن مقته ليسرى احمد عندما علم بأنه حبيبها . فى تلك الأيام المتوحشة تمنى لصديقه الموت . أطلق على صورته خيالاته المدمرة المشحونة بالفناء . وشد ما سر عندما ألقى القبض على الشاب فى جنازة مصطفى النحاس . لم يعرف يسرى أحمد مصطفى النحاس ولكنه اشترك فى جنازته اكراما لذكرى أبيه الشيخ سليمان . وكان ـ لبيب ـ يسمع عما يجرى فى المعتقلات فناط أمله بأيدى الطغاه تقتلع يسرى من سبيله . رغم ان حبه له لم يتبخر تماما ، ورغم أنه لم ينس أنه كان استاذه فى العلوم والرياضة ومرشده فى أخطر مرحلة من مراحل حياته ، مرحلة الالحاد والثورة على أبيه داود الناطوريجى . صرخت الرغبة السوداء فى قلبه «القتل فى المعتقل اوالسرطان» .
فى غضون أسابيع اطلق سراح يسرى أحمد لمرضه . واذا بالاشعة تكشف فيه عن سرطان فى المثانة . تلقى الخبر بفزع واضطراب وحزن . شعر أيضا

براحة عميقة . وكان فى الحادة يتقزز من الإنسان باعتباره كائنا قذرا ذا افرازات كريهة لا حصر لها فاقتنع بأن فى الإنسان من النوايا والسلوك ما يفوق الافرازات الكريهة فى قذارته . وقد زاره فى رقاده الأخير . رأى الغطاء يشى بانتفاخ غريب فى منطقة البطن ، على حين لم يبق فى الوجه الجميل سوى الجلد والعظم . ولما رآه يسرى ابتسم ابتسامة خفيفة كأنما يلقى عناء حتى من التبسم وقال بصوت ضعيف :

ـ لبيب ، اقترب ، انى فى حاجة إلى قلب محب ..

تفجرت دموعه باخلاص فى تلك اللحظة . تذكر الماضى الحى والعواطف الجياشة والذكريات المشتركة فآمن بأن يسرى كان أصدق الاصدقاء جميعا . كيف هان عليه ان يقتله ؟ .. لقد انطلق الغدر من صميم القلب الاسود إلى المثانة . كم ازدرى نفسه . كم ازدرى البشرية جميعا . وساعده ذلك الاحتقار ، بالاضافة إلى الخيبة فى الحب ، إلى التمادى فى الاستسلام للوحش . وتبدت فتحية فى تلك الأيام تمثالا للجمال والحزن . رثى لها وشمت بها . ألم تكن شريكته فى جريمة القتل ؟ .. وتأمل بقسوة وحنق استقامتها الفريدة فقال انه لها ايضا افرازاتها الكريهة . وبكى فى جنازة يسرى طويلا حتى اقتنع بأنه لا خلاص الا بتحطيم الكون .

هاهو يصمم على القراءة فيقلب صفحات «الكون .. ذلك المجهول» . ويتساءل هل فى وسع الحب والزواج ان ينتشلاه من الجفاف ؟ . ربما ولكن فتحية تتبدى كثيرا كأنها نذير جديد بالمتاعب . وواضح ـ وهو الادهى ـ انها تروم خلقه من جديد .

برجوعها إلى الفيللا حوالى الثالثة مساء دبت فى الفيللا حياة جديدة . ولما دخلت الحمام عاودته خواطره الساخرة ، ثم جلسا يتناولان الغداء . له طاه خبير بصنع الطعام الجيد . وهما فتحية ولبيب ـ يتصفان بشهية جيدة ، ولكن تناول الطعام كان من الخواص التى يتقزز منها ويطالب بسببها بتحطيم الكون . جعل يختلس إليها النظر وهو يرفع الشوكة إلى فيه ويقارن بينها وبين القطط والكلاب . حقا إن الطعام أس التعاسة البشرية . قالت :

ـ يوم مرهق بالقياس الى العطلة .

فابتسم وقال بدوره :

ـ بدأ البحث عن شقة للمكتب .

فهتفت بسرور :

ـ جميل أن اسمع ذلك .

فحنق عليها فى باطنه ولكنه افرغ حنقه فى صدر الدجاجة الرقيق .. قال :

ـ قراءة العلم متعة فريدة حقا ..

فقالت بثقة :
ـ بالدين والعلم تكمل صورة الوجود ويطمئن القلب .
واما هم بتقشير تفاحة سألته :
ـ أليست مغسولة جيدا ؟
ـ بالصابون أيضا .
فقالت بلهجة آمرة :
ـ كلها بقشرتها ..
الظاهر ان الوصايا ستمتد الى التفاح أيضا ! . صدع بالأمر صامتا فسألته :
ـ ما رأيك فى زيارة ماما بعد العصر ؟
فقال بسرور خفى :
ـ ليكن ذلك غدا اذ انى دعوت عبد البارى ووهدان وعدلى إلى فنجان شاى مساء اليوم .

ـ ٤ ـ

سر بوجودهم حوله فى الشرفة سرورا لا مزيد عليه . جالستهم فتحية وحثتهم على تناول الشاى والحلوى . انهم ابناء شارع واحد وذكريات كثيرة مشتركة ، ومطلعون أيضا على دخائل أسرهم لدرجة لا يستهان بها . حتى المرحوم يسرى أحمد فرضت ذكراه نفسها فى سهو الحديث فمر على لسان فتحية مرورا عاديا فارتاح لبيب وايقن ان الماضى قد مات تماما . فى اثناء الحديث قام وهدان المتجلى ليصلى العشاء فى ميعادها كعادته فتوجس لبيب خيفة مجهولة . لقد امتنع عن التردد اليومى على الفردوس كيلا يهجرها وحدها عقب نهار مرهق ولكنه بيت ان يسألها السماح بسهرة اسبوعية . وكالعادة شاع فى المجلس الشكوى من الحياة اليومية ، غلو الاسعار ، المواصلات ـ التليفونات . المجارى ، حتى تساءلت فتحية :
ـ ماذا تتوقعون من دولة كافرة ؟
فتساءل عبد البارى خليل :
ـ هل الايمان يجفف المياه الطافحة ؟
فقالت بابتسامة متحدية :
ـ اسخر كما ينبغى لماركسى ان يسخر .
كره لبيب انعطاف الحديث إلى منعطف متفجر ولكنه لم يدر كيف يسكت عبد البارى الذى قال :
ـ اسعد شعوب الأرض تعيش فى كنف دول ملحدة ..
فقالت فتحية بقوة لم تبلغ الحدة اكراما لآداب الضيافة :

– الإنسان بغير الله أتفه من ذرة غبار ، ماذا نعرف عن هذه الشعوب ؟ . لا شىء فى الواقع ما دامت محرومة من التعبير الصادق عن قلوبها الخاوية ..

فقال عبد البارى :

– للبطولة والنبل ثمن .

– أى بطولة وأى نبل ؟ ، حتى المؤمنون يهبطون أحيانا إلى النفاق فيفقدون الأمل فى البطولة والنبل فما بالك بالضائعين .. ؟

وتساءل وهدان :

– لماذا لا تشترك فى الحديث ياببب ؟

فبادره على الفور :

– زوجتى تتكلم بلسان الأسرة ..

ثمة غيوم كثيرة لم تظهر بعد فى الأفق . لقد بعث أبوه من قبره على غرة منه . ليتها كانت امرأة مستغرقة بالأنوثة والبيت .. إنها رجل ايضا ، تعاليم لا هوادة فيها ، ولا بديل عن الكذب الا بخوض معركة . والح عليه شعوره بضعف الشخصية . ذلك الشعور القديم الذى فطن إليه بفضل نقده القاسى للذات وتضعضع ثقته بنفسه تحت ضغط ارادة أبيه الصارمة . ها هو لا يطيق الحياة بلا فتحية واستقرار الأسرة الزوجية . ولا شك انها تحبه وستحبه اكثر ولكن يبدو انها لا تفرط فيما تؤمن به . ولقد وجد فى معاشرتها معنى على حين أنه لا يجد معنى وراء ذلك . وراء ذلك خواء وعدم ورعب . فبين يديه صخرة نجاة تنتشل من الغرق وان لم يلح شاطىء أمن للنجاة قريبا كان او بعيدا .

عندما ذهب الأصدقاء الثلاثة قالت له :

– عبد البارى شيطان فكيف نتعامل معه ؟

فقال بحذر :

– الصداقة فوق تناقضات الآراء .

– الصداقة يجب ان تقوم على أساس اقوى من ذلك .

– بغير تسامح تصبح الحياة غير محتملة .

فقالت بامتعاض :

– انه التهاون لا التسامح .

– اذا بالغنا فى التدقيق فقدنا الناس أجمعين !

فتمتمت بأسف :

– ياله من مجتمع يكتظ بالقذارة .

أخيرا سمع رأيا يتفق معها فيه بلا حدود فرحب به قائلا :

– انى اتفق معك تماما ، فما الإنسان الا كائن ذو افرازات كريهة ودوافع فظيعة

مرعبة !

فرنت إليه بعينين دهشتين وقالت :

ـ ماذا قلت ؟ ، عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان ، ولكنك تتحدث عن افرازات ودوافع كأنك عدو البشر أنفسهم ؟ !

ـ اعتقد اننى لم اتجاوز الحق .

ـ لا .. لا .. معذرة ان قلت انها نظرة غير عميقة فما تشير إليه يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو الفضاء .

تساءل فى نفسه ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بلا افرازات كريهة ودوافع وحشية وسلوك دنىء ؟ ! . لكنه جفل من التفوه بكلمة زائدة بل هز رأسه كالمقتنع طاويا على أسراره ..

ـ ٥ ـ

يميل الجو إلى شىء من البرودة ليلا فيطيب الجلوس فى حجرة المعيشة الموصولة بالشرفة . وهى مأهولة بطاقم من الاسفنج المدثر بالقطيفة الزرقاء ، يتوسط جوارها الأيسر دولاب من خشب الأرو يقتعد التليفزيون الملون أعلى ويستقر الراديو أسفله . رجعا منذ قليل من زيارة الأم نظيرة هانم مفعمين بذكريات ابن خلدون فتبدت فتحية منتشية على حين كتم هو انفعالاته المتناقضة المراوحة بين الجميل والمرعب . وفى اثناء تناولهما العشاء مع نظيرة هانم أبدت المرأة جزعها من تأخر حمل كريمتها تذاكرا ذلك ياسمين وقالت فتحية :

ـ ماما دقة قديمة .

لكنه فى الحقيقة متلهف على الانجاب تلهف من يروم تحصين ذاته المزعزعة ضد المجهول والخواء فقال :

ـ لها حق ايضا يا عزيزتى ..

فحدجته بنظرة متفحصة فقال :

ـ يوجد الأطباء ، لم لا ؟

لم تعترض مما قطع بتلهفها ايضا . آنس من ذلك آية على حبها له وزوال الماضى تماما . كما وجد فيها آية على أنوثتها التى يتمنى ان تغمر «الامام المتصلب» الكامن فى اعماقها . لعلها كانت قلقة طوال الوقت ولكنها أحسنت اخفاء قلقها . هى أيضا لها اسرارها الباطنة كما أن له اسراره المرعبة . تمثلت له الظلماء وحركات الشبح اليائس والصرخة المكتومة فارتعد للذكرى .

وسألته وهى تلقى نظرة على الصور العائلية المعلقة :

ـ على فكرة أين صورة والدك ؟

توجد صورة أمه الشابة ، صور نظيرة هانم ، صور الشيخ سليمان ، ولكن اين

صورة داود الناطورجى ؟ .. عادت تسأل :

ـ سهو أم أنه لا توجد صورة له ؟

رحب بحديث لن يضطر فيه إلى الكذب فضلاً عن فوائده الأخرى التى فطن إليها من اللحظة الأولى ، لذلك أجاب :

ـ الحق أنى لا أحب ذكراه !

فحدجته باهتمام ودهشة قائلة :

ـ أنه أبوك ..

ـ ولو .

ـ يا للغرابة .

ـ لا غرابة فى الدنيا .

ـ انى اتذكره جيدا . كان اشهر شخصية فى حى السكاكينى ، ظل محترما حتى بعد احالته إلى المعاش بعد الثورة ، اللواء دواد الناطورجى ، بيت اللواء ، سيارة اللواء ، انت ورثت عنه طوله وروعته ، وكنت وحيده مازلت أتذكر منظرك وراء نعشه وأنت تجهش فى البكاء ..

فقال ببرود :

ـ كنت أحبه ، حتى موته ولم اجد نحوه الا حبا خالصا .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لقد ماتت امى وانا دون العاشرة فلم اعرف بعد ذلك اما او ابا سواه . وانقض على موته كالصاعقة ، ولما انفض المأتم واويت الى الدار الخالية وجدتنى لأول مرة وحيدا ، لا أم ولا اب . فلم اصدق انه ذهب حقا الا فى تلك اللحظة ، وعند ذاك اجتاحنى شعور غريب بالراحة والأمان والحرية ، شعور يتناقض تماما مع حزنى ، ذهلت لذلك ولكنى استشعرت بتمهل السرور الخفى المثلج للصدر .

فقالت بوجوم :

ـ انه رد فعل لشدة الحزن ؟

ـ أنه افظع من ذلك ، شعرت لأول مرة بتحررى من قبضة غليظة قاسية ، تخيلت هول الكارثة لو اننى استيقظت فى اليوم التالى فرأيته واقفا فى الصالة يمارس رياضته الصباحية ويحاسبنى على تأخيرى فى الاستيقاظ !

جعلت تتابعه باهتمام وقلق فقال وكأنما يعنيها هى بمغزى حديثه :

ـ مع الأيام جعلت احاسبه على معاملته الصارمة لى فيحتدم الغيظ فى قلبى ويشتعل الحنق ، ويتولد النفور وينتشر حتى انقلب كراهية سافرة ..

ـ لا اصدق .

ـ فتحية ، لقد بلغ بى النفور درجة حملتنى على ان ابنى لنفسى مدفنا خاصا

حتى لا ارقد ذات يوم إلى جانبه !

هتفت :

ـ انه ما لا يتصوره العقل ..

ـ وفاة والدتى فى عز شبابها كانت مصيبة لم أعرف أبعادها الا فيما بعد .

ـ قيل انه لم يتزوج بعدها اكراما لك ..

ـ وهذه كارثة اخرى ، فقد كرس حياته لينشئنى على مثال مرسوم بدقة وصرامة ، وراح يصبنى فى قالبه كأننى طينه لا هوية لها مستعينا بعنف لا مثيل له ، هكذا تلقيت الدين وشعائره كما تلقيت كل شىء ، العجيب انه لم يقرأ كتابا فى حياته ، حتى دينه أخذه عن أسام جاهل اكتراه ليعلمه الإسلام ثم نقله إلىّ نقلا ميكانيكيا فحفظته ومارسته فى جو من الفزع ..

تمتمت بحيرة :

ـ ابى هو أيضا من علمنى دينى ..

ـ كان ابوك من علماء الدين اما ابى فكان جاهلا وارهابيا !

ـ كنت اراك وانت تتبعه إلى صلاة الجمعة ..

ـ وحملنى أيضا على صلاة الفجر فكان يغلبنى النعاس فى الفصل ، وحملنى على ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والعدو وحمل الأثقال بالعنف نفسه ، أما ولعى بالقراءة فلم يخف احتقاره له ولكن جهله بالكتب منحنى فرصة فريدة للسياحة الثقافية بعيدا عن رقابته الصارمة ..

وضحك ضحكة جافة ثم واصل :

ـ لم يكن يفوق عنفه الا تعصبه الأعمى لأفكاره ، من هذه الأفكار ايمانه بالمقاومة الطبيعية واحتقاره للدواء ، ولما اصابتنى نزلة معوية قرر أن يتركنى لمقاومتى الذاتية ، طالبته المربية باحضار طبيب فرفض ، ومضيت اهزل من الأسهال يوما بعد يوم حتى صرت كالخيال وهو لا يبالى ، كان يمكن ان افقد حياتى وأشرفت على ذلك ولكنه لم يكترث ولما نجوت بأعجوبة قال لى بفخار «انك ابنى حقا ولن يهزمك المرض بعد اليوم ، لماذا رحلت المرحومة أمك فى عز شبابها ؟ .. لأنها كانت ضعيفة فلم ينفعها طب ولا دواء» .

انساقت فتحية الى ضحك بلا صوت فابتسم هو ايضا ثم قال :

ـ رغم انفى اجبرنى على الالتحاق بالكلية الحربية ، لم تجد توسلاتى ولا دموعى ، محتجا بأنها كلية الرجال والحكام أيضا . وانها ستنقذنى من داء القراءة الوبيل ، ولولا وفاته الفجائية ..

قاطعته قائلة :

ـ لقد تساءلنا وقتها عما جعلك تترك الكلية ، ولكنك لم تفد شيئا من التحاقك بكلية الحقوق !

ـ كانت أفكارى مختلفة فى ذلك الوقت ، المهم انك انت نفسك تحديت أوامره وانت لا تدرين !

فتساءلت بدهشة :

ـ كيف ؟

ـ رشح لى ذات يوم عروسين هما كريمتا لواء على المعاش من أقرانه تاركا لى حرية اختيار احداهما ومعتبرا ذلك من ناحيته تناولا ديمقراطيا شاذا ، وكنت احبك كما تعلمين فصارحته بذلك معتمدا على صداقته القديمة بالمرحوم والدك ولكنه انفجر غاضبا .

فقطبت لأول مرة متسائلة :

ـ لماذا ؟

ـ بحجة أنه لا ثقة له فى بنات الأرامل .

فقالت باستياء :

ـ كان سيىء الظن بالنساء !

ـ وبالرجال والحيوان والنبات والجماد ، شد ما انتقد اصدقائى بلا سبب وكأنما كان يرغب فى ان ينشئنى بلا صديق سواه ، وفضلا عن ذلك كله كان شديد الحرص فعاش فى حدود معاشه ولم يمس مليما من دخله الوفير من عماراته ، ولعل ذلك ما جعله يتمسك بالبقاء فى البيت القديم بابن خلدون متعللا بأنه راسم ان يعودنى على الحياة البسيطة ، واعترف بأن ذلك لم يضايقنى اذ اننى لم اكن اطيق الحياة بعيدا عنك ..

ساد صمت كئيب تبادلا فيه نظرات باسمة وحزينة حتى قطعت الصمت قائلة :

ـ كان شخصا غريبا ولكنه عرف فى الحى بالقوة والبهاء والتدين وحب العزلة وبالتضحية بمسراته فى سبيل وحيده ، والله يرحمه على أى حال ، أليس عجيبا ان ينحدر من صلبه رجل مثلك آية فى الكرم والاتزان وحسن الخلق ؟ !

ارتجف باطنه برعدة قاسية .غشى خياله الظلام الذى اخفى الوحش والفريسة ، وتجسدت لعينيه نواياه القديمة بأنيابها ومخالبها . وتساءل بفتور :

ـ الا يحق لى بعد ذلك ان اكره ذكراه ؟

فقالت ضاحكة :

ـ كلا ، لا تنس أنه وهبك الحياة والمال ، ولكن ألم يخالط قلبك فى حياته اثارة من عاطفتك الرافضة ؟

ـ كان يرمى به شديدا متواصلا ولكنى احببته دائما ، ولم يكن من الممكن ان تتسلل إلى باطنى عاطفة أخرى لأنه كان يعيش فى باطنى أيضا ، فى تلافيف مخى ونبضات قلبى واحلامى ، كان الخوف يكمن هناك كالديدبان ..

قالت متنهدة :

ـ كان أبى شيخا ولكنه كان ذا عقلية متفتحة ، ربما كان يفضل ان يعدنى للبيت ولكنه حين آنس منى تعلقا بالتعلم سمح لى بالاستمرار فيه ، دخلت الجامعة أيضا دون معارضة تذكر ، وعلمنى دينى أحسن تعليم فكرست حياتى للعلم باعتباره قراءة جديدة لدنيا الله ..

فقال بحذر :

ـ كثيرون الحدوا بسبب العلم ..

ـ لا دخل للعلم فى ذلك ، الالحاد عجز فى النظر .

ـ على اى حال كان ابى رجلا من صنف آخر ، كان جاهلا ومتعجرفا وقد وجد فى الشكل مبتغاه ، وكان يمقت المناقشة ويقاتل التساؤل البرىء ، كان يلاحقنى من الصباح الباكر حتى النوم بالأوامر والتعليمات والمراقبة ..

ـ ألا يشفع له عندك حسن نيته ؟

فقال بامتعاض :

ـ كلا

ـ اكان كذلك فى حياة المرحومة والدتك ؟

ـ ذكرياتى عن أمى قليلة ، أجل كانا يختلفان كثيرا ، وكانت هى عصبية مستعدة دائما للتمرد والتهديد بهجر البيت ، وكان ينبغى ان اتعلم منها ولكنه نجح فى استعبادى . تارة بالعنف ، وتارة باقناعى بأن اى استهانة بأوامره هى خروج عن ارادة الله المتعال ، ولو اننى تمردت عليه حقا لضمنت لنفسى حياة افضل ..

ـ حياتك مقبولة جدا ..

فقال مضمنا كلامه تنبيها لها :

ـ كانت حياتى لعنة ولكنها لم تخل من عبرة ، فقد علمتنى ان اتجنب الاستبداد بالغير ، واحترام الآخرين فكرا وعقيدة ، علمتنى الا اعتبر نفسى مقياس الخير والشر فى الوجود !

وتساءل فى باطنه ترى هل أحسن الدفاع عن نفسه ؟ !

ـ ٦ ـ

مضى من الخريف ثلثاه وتشبع هواء الليل ببرودة مستقرة . من مجلسهما وراء الزجاج المغلق يرى البستانى نهارا وهو يكنس الأوراق المتساقطة ، وتلوح فى السماء سحائب بيضاء وهى تهدهد الشعاع الذهبى . فتحية تملأ الفيلا بحركاتها الرشيقة ما أشد الفارق بين الكيميائية المتدينة من الأنثى الدافئة . انه لتناقض يذكره بالتناقضات التى تمزقه . بوسعه دائما ان يهاجم او ان يدافع عن اى رأى او مذهب او عقيدة ، الحجج السالبة تعادل عنده الحجج الموجبة ، ولكن لا احد

من اصدقائه يأخذ حديثه مأخذ الجد فهم يعرفون تماما ان قلبه ينبض فى خواء .
وهو يرى فى زوجته نساء كثيرات ، ثمة فتحية ذات الرداء الأبيض العاملة فى المعمل ، وفتحية المؤمنة المتطرفة ، وفتحية الفراش الباهرة . أيهن أصدق ؟ فتحية الغريزة ام فتحية المؤسسات ؟ ! .

قالت له ذات مساء وكانت متجهمة :

ـ اختاروا زميلا دونى كفاءة لبعثة صيفية !

تساءل وهو يلحظ حنقها بسرور خفى :

ـ لماذا ؟

ـ أسباب سخيفة طبعا أهمها قرابته لأحد أعضاء مجلس الشعب .

ـ صحتك النفسية أهم عندى من البعثة .

ـ السكوت عن الخطأ أفحش من الخطأ ، أثرت الموضوع عند المدير ، وطلبت تحديد ميعاد لمقابلة وكيل الوزارة .

وعقب صمت قصير قالت مستعملة لغة الشعارات التىَ ينفر منها .

ـ على الحياة أن تكون جهادا متصلا .

ها هو صوت مؤسسة يعلو . الغضب الذى احتقن به وجهها هو صوت الغريزة . لعلها تمتلىء الآن بالرغبات المدمرة . باسم الدين أو العلم يمكن ان ترتكب فظائع . اسعده ان تشاركه ولو بصفة عابرة صدقَ الغريزة الوحشى . شرها يقربها إليه بقدر ما يبعدها تطهرها . اقتحمته ذكرى وفاة يسرى أحمد . عرف وقتها انها عاهدت نفسها على البقاء عذراء احتراما لذكراه ، رفضت ايدى كثيرين . عنيدة وقادرة على الرهبنة . تربص منتظرا من بعيد . تتابعت الأعوام حتى قاربت الثلاثين من عمرها . وهى مصممة وهو صابر متصبر . انها اليوم قلقة لتأخر الحمل كلما جاءها الطمث تجهمت . لعل حبها ليسرى لا يمكن ان يتكرر ولكنه قتل غريمه وفاز اخيرا بامرأته .. فعل الإنسان الأول . لدى ظهور الإنسان انعقدت عليه آمال كبار . ألم يئن الأوان لاعادةُ النظر ؟ رائحته تفسد جو الأرض وفعاله يندى لها جبين الحيوان . ثم قرر أن يجرب حظه فمضى إلى مقابلة نظيرة هانم أمها . لم يتراجع امام الرفض ولكنه طالب بالانفراد بها فى حجرة الاستقبال التقليدية المذهبة الطاقم . أنه ليذكر تماما ما دار من حديث فى اول لقاء :

ـ اتوسل اليك ان تصغى إلىّ .

ـ انى مصغية .

ـ موقفك طال وهو غير معقول .

ـ لا أراه كذلك .

ـ ينتظر من اساتذة الكيمياء حكمة تماثلها .

ـ لا علاقة لذلك بالكيمياء .

ـ كلنا سنموت .
ـ انى متيقنة من ذلك .
ـ لست الأولى
ـ ولا الأخيرة .
ـ انى احبك من قديم .
ـ اشكرك .
ـ انى احب فتاة لا ذكرى .
ـ هل يوجد فرق كبير ؟
ـ أظن ذلك .
ـ لا أظن .
ـ لا يمكن أن تضيع حياتك فى رهبنة .
ـ لا ينقصنى شىء .
ـ لن أطالبك بالحب فلنكل امرنا للمعاشرة .
ـ إنك كريم ولكننى أسفة .
ـ لا تسدى الطريق فى وجهى ، دعينى احاول واحاول .. فى تلك الأيام لم ينتحر بفضل مكر الحياة . ام تكن الخيبة خيبة الحب وحده ولكنها خيبة الحياة نفسها . هام بالحب كصخرة للنجاة فى خواء فقد اى معنى . تعلق بأى شىء من صداقة او دعارة او شراب . شبع كثيرا وغاص فى الكآبة اكثر . بالاصرار نال اخيرا مبتغاه . وكان فاتحة التحول عندما ان راحت تحاسبه على بقائه الطويل بلا عمل . تزوج فطار بها ابن خادون إلى المعادى . رضى بها بلا قلب . سرعان ما تفتح القلب وتغيرت الحياة . لكن مجلسه السعيد معها لا يخلو من توجس . انه يخشى الامام وصوت المؤسسة ..

ـ ٧ ـ

اصبحت عادة جميلة مثل سحائب الخريف . تدثرت بالروب ، كذلك هو ، فالجمال عند اقتراب الشتاء يتوارى كالأزهار . كلا انها مثل الاشجار دائمة الخضرة مازالت تعبق بأنوثة ريانة وجاء وعد الطبيب اخيرا منعشا للآمال . ولكن فى غمرة النعومة ينبثق سؤال مثل :
ـ ما اخبار الشقة ؟
ينقبض صدره ويجيب :
ـ إنى اتصل بالسمسار كل يوم .
ـ هل تنظر فى مراجعك القانونية ؟
ـ طبعا .

الكذب عادة يومية أيضا . كما تطبع به فى عهد أبيه . يقول وهدان المتجلى «العمل قيمة عظيمة لمن كان مثلك وزوجتك على حق» . لمن كان مثلك يعنى لمن لا يربطه معنى بالحياة . لعله صدق . ولكن اى جدوى فى الاشتغال بقضايا المتطاحنين ؟ . وهى لا تصدقه تماما فرجعت تقول :

- أحيانا يخيل إلىّ أنك غير مهتم ..

فيوكد اتصاله بالسمسار . صوت ابيه يتردد من وراء القبر . انها متوثبة دائما لصبه فى القلب المنشود كأنها لم تسمع بمأساته مع ابيه . سيظل دائما وابدا فريسة للمؤسسات . كم سعى إلى الانخراط فى مؤسسة وكم فشل .. طبعه ابوه بطابع الانقياد فقتل قواه الخالقة .

- على فكرة لم لا تصلى ؟

آه . ابتسم ولم يجب .

- كنت قديما تصلى الجمعة والفجر .

هز رأسه صامتا .

قالت برقة تخفى انفعالها :

- ما أكثر المسلمين وما أقلهم .

اشار إلى قلبه وقال :

- هنا كل شىء .

- كلا ، كيف اقلعت عن الصلاة ؟

قال ضاحكا :

- تمردت على أبى عقب وفاته .

فتساءلت بجزع :

- إلى أى مدى ؟

فقال بوضوح :

- انى مؤمن ، حسبى ذلك .

حتى متى يكذب ؟ . اما هى فشرعت تقول :

- ليتنى ...

ولكنه قاطعها قائلا :

- كلا . ارجوك ، الزمن كفيل بكل شىء .

فقالت بحرارة :

- ليت العمر يمتد بى حتى أشهد الله يحكم الدنيا مرة أخرى !

- آمين .

هيهات ان يخطر لها ان يسرى أحمد هو من قادة الالحاد . لم يجد صعوبة فى زعزعة ايمانه فقد صادف فيه متوثبا للتمرد على أبيه ، كما وجده سريع الانقياد كما طبعه ابوه . اجل خاض تجربة مرعبة معذبة ثم سرعان ما وجد نفسه فى كون

بلا اله ولا حدود . وكان يسرى رغم الحاده ذا خلق متين ، وطالما قال له «النبل ان نعيش كما ينبغى لنا دون أمل» . وقد حفظ ذلك القول وردده كثيرا . حتى حيال أقرب الناس إليه ـ عبد البارى ، وهدان ، عدلى ـ أسدل على وجهه القناع أما . الحقيقة فهى انه لم يستطع ان يلتزم بالنبل فقتل ثم ارتكب ما هو أفظع من القتل . ولم يتركه ضميره بلا عقاب . وعجب لتطفل ضميره الذى رسب فى باطنه منذ العهد القديم . آية على ضعفه وجبنه . عندما يتحرر منه تماما يبلغ الصدق المنشود ـ سأله عبد البارى «لماذا تركز على السلبيات ؟ .. هذا ما يقتل أى معنى للوجود» . الحق ان افرازات الإنسان وغرائزه هى عقدته لذلك هان عليه ان يكفر بمؤسساته فيراها هياكل خاوية وهمية . انه يطوى أسراره فى صدره اما فتحية فتتحدث عن الصحابة قائلة :

ـ كانت أغلبيتهم من الشباب ، ما اكثر من استشهد منهم ، كانوا يعشقون الموت !

ويقول لها بعقل شارد :

ـ هكذا المؤمنون ..

الإنسان يفوق الحيوان فى شهوة القتل فيقتل نفسه أيضا . وهذه الزوجة المحبوبة لا تخلو من شعرة جنون . كم تبدو مطمئنة متألقة كما يجدر بخليفة الله فى أرضه . بقدر ما يسخر منها فإنه يوشك ان يحسدها . التناقض دائما وأبدا . كما مزقه أمام كل شىء . حتى الانعدام الكلى للمعنى لم يمحق متناقضاته . أما فتحية فإنها لا تردد الشعارات فحسب ، ولكنها تصدقها وتؤمن بها . كيف يستمر التعامل معها ؟ . إنه حريص جدا على ألا تتبدد سعادته وهما من الأوهام .

ـ ٨ ـ

هلت بشائر الامومة . والأبوة أيضا . صادف ذلك أوائل الشتاء وأياما ممطرة . راحت فتحية تحسب الزمن وقالت :

ـ سألد فى سبتمبر ، شهر مناسب للولادة .

فقال بحبور :

ـ بالسلامة .

لاح فى وجهها ذبول طارىء . أعقب ذلك فتور فى العواطف . وهدان المتجلى أخبره أن ذلك يحدث كثيرا ولا يخلو من فائدة . قال له ساخرا : «إنه تغير له معنى ككل شىء» . اقتنع هو بأن متاعب الذرية تقع حال تخلقها فى الأرحام . رمق الأمومة بأمل أن تشغل بها عن تربيته هو وتربية المجتمع الحديث . انها جديرة بهذا الختام السعيد . هنيئا له انتزاعها من الرهبة والجفاف . لقد فسر رهبنتها

القديمة على أساس خاطىء . تذكر موقفا لا يمكن أن ينسى . ثمة تصرفات تهز النفس بنبلها ، حتى النفس الخاوية . احتسيا القرفة فى حجرة المعيشة وهما يشاهدان مسلسلة تليفزيونية . بات البار خاويا من قوارير الويسكى . عيناها السوداوان هادئتان متعبتان . إنها سعيدة ولا شك ، وتؤمن بأنه نبيل أمين .. ما يزعجه حقا هو أنها تحب «الممثل» لا الشخص الحقيقى . الممثل رجل نبيل أمين مثقف لا عيب فيه الا انه مؤمن سلبى كغالبية المؤمنين فى هذه الأيام . لكنه ممثل ، شخص آخر . ولو عرفت الشخص الحقيقى لولت تقززا . هى ليست من النوع الذى يحب الجسد وحده . ليست من النساء اللاتى يحببن اللصوص والبرمجية والقتلة . انها تحب بروحها وجسدها معا . سلت حب يسرى احمد لتقع فى حب رجل وهمى . أما هو فلم يبرح موقعه القديم . موقع العاشق الخائب . موقع المحب من جانب واحد . مازال يغتصبها ساعة بعد اخرى ويخدعها يوما بعد يوم . لقد فقد معانى الاشياء ولكنه طمح إلى الحب باعتباره معنى مستغنيا بذاته ، وهو حريص على ألا يحلق بالأوهام . ممكن آن نجد فى الحب والزواج والذرية معنى محليا يستغاث به . غاب عن التليفزيون فتذكر الموقف المثير . حين دعته إلى لقاء مفاجىء بحديقة الأمازون . عقب عدولها عن الرهبنة وقبل إعلان الخطوبة . كان سعيدا باللقاء فوق البساط الأخضر . راح يعلن خططه عن الخطوبة والزواج حتى لاحظ أنها ليست موجودة معه . فسألها :

ـ مالك يا فتحية ؟

فقالت بوجوم :

ـ كان يمكن ان تمضى الأمور فى طريقها المرسوم بلا كدر .

ـ وهى ماضية كذلك فأى كدر تقصدين ؟

ـ إنى أرفض الخداع وأمقت الكذب ولست نهازة للفرص بأى ثمن .

فقال بضراعة :

ـ لا تتركينى للحيرة .

فتريثت قليلا مكفهرة الوجه ثم قالت :

ـ يوجد فى حياتى سر لا يجوز أن تجهله .

خفق قلبه وتخايل لعينيه شبح واحد . تساءل :

ـ أى سر ؟

فقالت بحرارة متصاعدة :

ـ إنه مأساة ..

ثم فى شىء من الاندفاع :

ـ وقعت المأساة وأنا طالبة ، كنت راجعة ليلا من بيت زميلة عقب ساعات من المذاكرة ، رحت أقطع حارة حمزة فى طريقى إلى ابن خلدون ، وإذا بأنوار الحى تنقطع فجأة فيغرق كل شىء فى ظلام مخيف ..

رجع الظلام بوحشيته فتجنب ملاقاة عينيها بحذر ولم ينبس فقالت :
ـ لن أطيل فالذكرى معذبة ، هاجمنى شخص فى الظلام كتم فمى ، تصارعنا حتى فقدت الوعى ..
تهدج صوتها حتى سكتت ولكنها تغلبت على ضعفها قائلة :
ـ لعلك أدركت بقية ما حدث !
ـ يا للفظاعة !
فاه بها وهو يرتعد فهتفت غاضبة :
ـ وحش .. حيوان .. قذر .. جبان ..
فردد غائصا فى ظلمة باردة :
ـ وحش .. حيوان .. قذر .. جبان !
صمتا ليستردا أنفاسهما .. ترامقا فى تعاسة ، كلاهما أتعس من صاحبه تمتم :
ـ انت ؟ . يا للفظاعة !
ثم هز رأسه متسائلا :
ـ أكان لذلك علاقة برفضك الزواج ؟
فقالت على الفور :
ـ أبدا ، لقد اعترفت لأمى فلم يهدأ بالها حتى أصلحت كل شىء ، فلم يكن ثمة ما يخيفنى من الزواج .
حنى رأسه مصدقا ولكنها تجلت أمامه فى هالة وضيئة قالت مؤكدة :
ـ كان يمكن ان يمضى كل شىء بلا إثارة من شك !
ـ أدرك ذلك .
فقالت بصوت واضح :
ـ ولكنى أرفض الكذب والخداع فضلا عن أنك شخص جدير بالصدق !
فقال وبنيانه ينهار :
ـ فعلت ما هو جدير بك .
ـ شكرا .
فقال مزدردا ريقه :
ـ لا يمكن للشك ان يرتقى إليك ، وقد ازداد احترامى لك .
فتساءلت :
ـ ألا تخلو إلى نفسك بعض الوقت ؟
ـ لا داعى من ناحيتى لتبديد الوقت .
فهمست باسمه لأول مرة :
ـ لبيب . إنك نبيل كما اعتقدت دائما .

هكذا وهب وسام النبل والأمانة . أما يجدر به ان يعترف لها بدوره ؟ . بدا ذلك مستحيلا ، كان على القاتل المغتصب أن يتوارى . الممثل يتهادى اليوم على المسرح وحده . لولا الحب والعناد ما اقدم على طلب يدها . كان حانقا عليها بقدر حبه لها . وكان يعتبرها الحقيقة الوحيدة المتاحة له . ها هو الممثل يمعن فى التمثيل ويتمادى . على حين يختفى الشخص الحقيقى ويذوب فى الظلام . هو الظلام القديم الذى مكن له من الحب والانتقام . كان مرفوضا معذبا ، رفضته فتحية كما رفضته الحقائق . كان لقيطا ملقى فى الوجود بلا أمل . وكان ينتظر خروجها من بيت صديقتها ليتبعها عن بعد . وانطفأت الأنوار فجأة ، وتمطى الظلام العميق . اعتقد أن الظلمة معجزة يجود بها الدهر . استيقظت شياطينه التى لم يعد يزجرها شىء . انقض على الحلم الجميل مدفوعا بالهوس والرغبة والتحرق على الانتقام . كاد يهلكها لولا أن أنقذها الإغماء . حملها إلى دهليز بيت قديم . انحصر فى ذاته الهائجة فقد الوعى بالوجود . نسى أنه مهدد يقاوم من فوق أو من الخارج أو بعودة النور . ثم مضى لاهثا ذاهلا لا يصدق بالنجاة مضى متشفيا من ذاته ، من أبيه ، من فريسته . من الوجود .

كانت تتابع المسلسلة مسترخية باسمة ..

- ٩ -

جلسا فى مجال المدفأة الكهربائية . الجو فى الخارج يصرخ ويزمجر وايقاع المطر يتتابع فوق الاشجار والنوافذ المغلقة . منظرها يستحق الرثاء . شحب لونها وغارت عيناها وانطفأ سحرها . وكان رمضان يطرق الأبواب فقال مداعبا :

- سأصوم وحدى ياعزيزتى .

قرر إعلان الصيام على أن ينتهكه سرا كلما ألح عليه الجوع ايثارا للسلامة . تمتمت :

- الله رحمن رحيم .

اعتقد انه نال حظوة جديرة بالتقدير ولكنها سرعان ما سألته :

- ما أخبار الشقة ؟

اشتعل غضبه ولكنه انكتم فى أعماقه فقال :

- لم أوفق إلى شىء مناسب بعد .

ابتسمت ابتسامة أحنقته فقال :

- سيجىء كل شىء فى وقته ..

لازمت الصمت ولكن وشى منظرها بقلة الثقة فواصل :

- وعدت وسوف أفى .

- يبدو أنك تفعل ذلك من أجلى .

فنفس عن صدره بالصدق ولو مرة فقال
- هى الحقيقة ..
- مازلت ترفض العمل ؟
فقال ضاحكا :
- الفراغ هو أمل الأحياء المنشود ..
- إنك تعيش فى الواقع لا فى الحلم .
- دخلى يمكننى من أن أعيش الحلم ..
فتساءلت بعتاب :
- تأخذ دون أن تعطى ؟
فهتف محتجا :
- إنى أملك عشر عمارات تخدم المئات من الأسر ، وجريرة العمل أنه يشغل الإنسان عن التأمل ..
- اليوم طويل وفيه متسع لأشياء كثيرة .
- على أى حال لقد وعدت وانا ملتزم بوعدى .
سكتت عنه . لا مفر من فتح المكتب . سيتظاهر بالعمل كما يتظاهر بالصوم . ربما تورط فى العمل أيضا . انها أقوى منه وهذا يثيره . غيرت ظاهره ولا يبعد أن تغير باطنه ذات يوم . ربما أدى الصلوات فى أوقاتها أيضا . ربما ساقته يوما إلى الحج . الممثل يتضخم وتترامى أبعاده والشخص الحقيقى يموت . متاعب متلاحقة يعانيها من أجل الحب والحياة الزوجية . أنه أدرى الناس بضعفه وانقياده . إنه أدرى الناس بما تطبع به على عهد داود الناطورجى . هل يتاح له يوما أن يقتل الممثل ؟ ! .
وسألته ذات ليلة :
- هل يوجد شىء لا تعرفه عنى .
فأجاب متوجسا :
- إنى اعرفك تماما .

- وأعتقد عادة أنى أعرفك كذلك ولكنك تبدو لى أحيانا كاللغز ..
رأى شبح تحقيق يقترب فقال :
- إنى شخص فى غاية البساطة .
- أقول احيانا لنفسى إنه يكره العمل ، انه ينهمك فى القراءة ، انه لا يهتم بشىء مما يهتم به الآخرون !
فرمقها بحيرة فقالت :
- من أنت ؟!، ما أنت ؟ .. فى البلد هموم وتيارات ما موقفك منها ؟

فتساءل وهو يفكر بسرعة وحذر :
ـ الا يعيش الانسان حياة كاملة بغير ما تسألين عنه ؟
ـ إنسان مثلك لابد ان يكون صاحب رأى ولو كان مقاده الكفر بجميع الآراء !
ـ لا حديث لنا مع الاصدقاء الا ذلك ..
ـ الا تعدنى صديقة أيضا ؟
ـ بلى ولكنى أصون حياتنا مما يزعجها ..
ـ اكنت دائما تعيش فى نطاق ذاتك ؟
فضحك عاليا : بوسعه ان يبوح بأسرار صادقة كثيرة دون خطر .. قال
ـ لى تجارب حافلة .
فقالت بلهفة :
ـ هات ما عندك حدثتنى مرة عن رد فعل عنيف عقب وفاة أبيك ؟
ـ أجل ، رد فعل اجتاح ابى وتراثه ، لعلك تدهشين اذا عرفت ان المرحوم يسرى أحمد هو اول من ساعدنى على التمرد . كان وقتها يتمرد على الإيمان فنفخ فى روحه المترددة واشركنى فى قراءة كتبه فتعرضت لأزمة غير يسيرة وتبنيت الحادا شاملا ..
تمتمت بامتعاض :
ـ فقدت ايمانك كله ؟
ـ كله .. وخيل إلىّ أنى اكتشف العالم من جديد ..
ـ أدام ذلك طويلا ؟
ـ على فكرة ، لا شىء يدوم معى طويلا فى عالم الفكر ، ما هو الا طور يعقبه طور جديد ، وفى اقصر وقت يتصوره العقل ..
فقالت بقلق :
ـ وهناك العواقب العملية لذلك !
ـ هو ذلك ، إنى لا أحب الكذب !
ـ وانتهيت إلى إهمال الدنيا !
فتفكر قليلا ثم قال :
ـ لا اظن ، العكس تماما ما حصل ، اندفعت لاكتشاف الدنيا ، وملء الفراغ ، عند ذاك تسلمنى عدلى جواد ففتح لى باب الديمقراطية فى وقت كانت تذكر عادة مصحوبة باللعنات ، فعرفت تاريخ مصر المجهول قبل الثورة ، واستفزنى الحماس فطال لسانى حتى استدعانى رجل الأمن بالكلية وانذرنى ..
ـ لذلك الحد ؟
ـ اجل لم أكن سلبيا كما تتصورين غير ان المرحلة الديمقراطية لم تطل ولم ترسخ فسرعان ما تقدم الصفوف عبد البارى خليل !

ـ أعوذ بالله !

تبوأ مركز الاستاذ منى وراح يعيرنى كتبا عن المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ وصراع الطبقات والجنة الموعودة .

فتمتمت ساخرة :

ـ رغم انك وريث دخل يربو على الخمسمائة جنيه شهريا ؟ !

ـ اقتنعت تماما ، ووجدت فى تجاوزه طبقتى ما يشرفنى أكثر ..

تزايد الاهتمام فى نظرة عينيها الذابلتين فواصل :

ـ اجتاحنى الحماس للماركسية كما اجتاحنى من قبل للالحاد والديمقراطية ، واذن فأنا مريض بالاهتمام لا بعدم الاهتمام .. فقالت بمرارة :

ـ ولكنك تتغير بسرعة مذهلة !

ياله من حكم صادق ! . فطن اليه بنقده المرهف للذات . سرعان ما يقع تحت سيطرة الصديق أو الكتاب . إنه ضعف ملموس محسوس طالما حمل اباه تبعته . هو الذى طبعه بسرعة الانقياد . هو الذى جعل من ذكائه أداة سلبية فى خدمة التلقى وبلا طاقة على التمحيص والنقد . وقال بامتعاض :

ـ إنه الشباب والحماس ورد الفعل لخضوع طويل للأب .. فتساءلت بقلق :

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لقد اعتقلت ، وتلقيت اهانات لا تمحى ولكن ثبت عدم تورطى فى أى عمل غير مشروع فأفرج عنى بخلاف عبد البارى الذى اعتقل طويلا كما تذكرين حتى اشتهر أمره فى الحى ..

ـ ثم ؟

ـ زلزلنى الاعتقال والاهانة . أكان ذلك ما كفرنى بالماركسية ! الذكرى غائمة ، أما ما اذكره بوضوح فهو اننى عثرت على كتب الوجودية بلا مرشد ، ولكن الكتاب كان وحده كافيا للالقاء بى فى عبث الوجود واللامعنى !

فقالت بحزن :

ـ ما أجدر رحلة تبدأ بالالحاد أن تنتهى بالعبث ..

ـ صدقت !

ـ إنك قطعت فى أعوام ما قطعته البشرية الضالة فى عمرها كله !

ـ صدقت ايضا ..

ـ ثم ؟

حسبه ما نفث به عن صدره وعليه الآن أن يرجع إلى التمثيل ، قال :

ـ رجعت إلى الايمان والحمد لله .

ـ أكان وهدان المتجلى وراء ذلك ؟

ـ القراءة أكثر ، والعناية الالهية قبل كل شيء ..
فقالت بجدية ملفتة للنظر :
ـ من حسن الحظ أنك تزوجتنى وانت مؤمن والا لورطتنى فى علاقة غير شرعية !
يا للداهية . انها تعنى ما تقول . وتتصور العلاقات على ضوء واضح صارم حاد النصل . وأزعجه جدا ان تكون علاقته بها فى الحقيقة ـ من وجهة نظرها على الأقل ـ غير شرعية . وما تمالك ان قال :
ـ يوجد ملحدون معروفون وهم فى الوقت نفسه أرباب أسر !
فقالت بقوة :
ـ ما هى الا زيجات باطلة لا يبقى عليها الا داء التهاون المنتشر ..
فحنى رأسه موافقا او متظاهرا بالموافقة وهو يلحق هذا السر بآثامه الخفية . حقا إن زواجه تجربة مثيرة اعترضت حياته لتهزها من الأعماق . واستطاع ان يقول بنبرة المنتصر :
ـ ها انت ترين أننى لست عديم الاهتمام كما تصورت ..
ـ ولكن رحلتك تركت فيك آثارا باقية ..
فتساءل بقلق :
ـ حقا ؟
ـ مثل تهاونك فى شئون دينك وكراهيتك للعمل !
فضحك ليخفف من توتر أعصابه وقال :
ـ أخطاء محتملة ويمكن علاجها ، ولعلك أنت فى حاجة إلى قدر من التسامح ..
فقالت بحرارة :
ـ المسألة إيمان اولا ..
التسامح جميل أيضا .
ـ أجمل منه أن تطابق بين إيمانك وسلوكك ..
فتمادى فى كذبه وخوفه قائلا :
ـ إنى ماض بعزم فى هذا السبيل ..
وتساءل فى باطنه هل تتمخض سعادته عن وهم زائل ؟ !

ـ ١٠ ـ

القلق يلازمه . رغم استهتاره بكافة القيم فالقلق لا يبرحه . مجلسهما الليلى يهبه شعورين متناقضين ، السعادة والقلق . الشتاء يسحب اذياله وعما قليل تفتح النوافذ وتشيع النسمات فى الحديقة . صحتها تبدو الآن أفضل مما كانت أول

عهدها بالحبل . وهى تفضل الراديو على التليفزيون فيجاريها مرحبا بأنه لا يفصل بينهما فصلا كليا . أنه صادق فى حبها ولكن لا يجمعهما الا الكذب . من حسن الحظ أنها تصدق «الممثل» ولا تدرى شيئا عن الأصل . وسوف تجىء النهاية عندما تطلع على الشخص الرابض وراء الممثل . ما زالا يتمشيان عند الاصيل خاصة بعد ان أصبح المشى ضرورة صحية لها ؛ وهى ترتدى اليوم فساتين مرسلة ، وتعد عدتها لاستقبال الوليد . وشوقه إليها يزداد ومخاوفه تزداد أيضا . شخصه الحقيقى لا يكف عن تعذيبه . انه يعيش وحده فى عزلة تامة ، لا يمارس الحب ولا الزواج ولا حق له فى التعبير عن ذاته . انه كامن فى أعماقه فى ذل ، يغلى بالحنق ، ويحلم بالثورة . غارق فى العبث الذى وجد فيه الحل لمتناقضاته الماضية . هو الذى أخرجه من تردده المعذب بين الإيمان والالحاد ، بين الديمقراطية والحكم المطلق ، بين الماركسية والرأسمالية . وهو الذى انقذه من الهياكل الخاوية ولكنه أصابه بمرض جديد ، مرض الفراغ والرعب . وفتحية لم تفصل بين الممثل والأصل فحسب ولكنها تهدد الاثنين أيضا . الا ينقاد لها ذات يوم كما انقاد من قبل ليسرى أحمد وعدلى جواد وعبد البارى خليل ؟ . وأى عواقب تتربص به اذا تحقق ذلك الانقياد المتوقع ؟ !

★★★

سألته باهتمام :

ـ أى مراحل حياتك تراها الأفظع ؟

بعد تأمل أجاب :

ـ لعله العبث .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه فراغ ، والفراغ مرعب .

ـ أوافقك تماما ، أى مذهب وضعى فهو انحراف اما العبث فشلل للعقل ، واذا شل العقل فماذا يبقى من الإنسان العاقل ؟ !

أجاب بلا وعى :

ـ لا شىء .

ـ أى سخرية ان تتصور الانسان لقيطا فى الكون ، تجىء به المصادفة العمياء ثم يندثر بالمصادفة أو العجز !

أنها تذكره بيأسه وهى لا تدرى ولكنه يوافها بحماس قائلا :

ـ أحسنت التصوير .

ـ يسرنى أنك تطالع كتب العلم بشغف ، انها تؤكد المعنى فى كل شىء !

ـ تماما !

ـ حتى المتشكك يسلم بوجود معنى وان عز على ادراكه .

- اجل ، يسلم على الأقل باحتماله .

وتأمل قوله بقلق .. وازدادت مخاوفه .. وغاب عنها وقتا فلم يدر كيف تطرقت إلى موضوع الصلاة ، كانت تقول :

- يستحسن ان تصلى وانت صائم ، ولو شهر رمضان فقط !

أليس لديها اهتمامات أخرى ؟ . الا تحب أحاديث النساء ؟ . لم لا يقاوم ؟ .. هل زاده شعوره بالاثم ضعفا على ضعف ؟ ! تمتم :

- فكرة مقبولة ..

أنها تحكم الحصار حوله . اذا ولى رمضان ستطالبه بالاستمرار فى الصلاة . وستذكره حتما بأن الصلاة لا تتفق وشرب الويسكى فى ركن الفردوس . وسيجىء الحج فى يوم من الأيام . سوف يتضخم الممثل ضاغطا بثقله المتصاعد فوق الشخص الحقيقى السجين . جعل يلحظها فى فترات الصمت فيراها وهى تغمض عينيها اعياء او تنظر من خلال الزجاج إلى رءوس الاشجار المتوهجة بأنوار المصابيح . حنق عليها . وحنق على داود الناطورجى أيضا حنق على ضعفه وجبنه . عز عليه ان يتوارى فى بيته تاركا الممثل الغريب يعاشر زوجته أمام عينيه ويتلقى حبها ويهبها بكل وقاحة بذرة حياة جديدة . كل ذلك يحدث أمام عينيه وهو متوار صامت مستسلم .

- ١١ -

لأول مرة من أكثر من عام تخلو الفيللا من فتحية . انتقلت إلى مستشفى الولادة قبل ميعاد الوضع بأسبوع - لتوعكها المفاجىء - لتكون تحت الملاحظة الدقيقة والرعاية المتاحة . وجد نفسه وحيدا . لم يعد كما كان ، ففى الربيع والصيف تكاملت شخصية الممثل وترامت أبعادها . انه يجيد الآن تمثيل دور المؤمن والمحامى ، بل أنه يسعى إلى تولى القضايا حتى لا يرمى بالخيبة . وشغل التمثيل جل حياته فلم يترك للرجل الحقيقى الا وقتا قصيرا يمضى عادة فى السخرية والمرارة والغضب . على سبيل المزاح قال له عبد البارى خليل :

- وراء كل عظيم امراة !

فاحنقه ذلك جدا . انه يشير إلى تغير أسلوب حياته ولكنه يعلم فى الوقت نفسه إنه تغير ألقى عليه من الخارج قهرا بلا اقتناع ولا ارادة ولكن تحاميا للعواصف وايثارا للسلامة وابقاء على راحته الشخصية . ولم يخف عواطفه فقال لاصحابه :

- إنى غاضب .

فقال له عبد البارى خليل :

- إن تكن صادقا فى عبثك فلتعتبر الأمر كله فكاهة لا بأس بها .

فقال باصرار :

ـ ولكننى صادق للا ريب .

ـ ماذا يغضبك إذن ؟ الضمير لا يوجد إلا فى رحاب إيمان ما ..

فقال بحدة :

ـ رواسب اللاوعى لم تجتث بعد .

ـ الرواسب هى مشكلتك .

فقال وهدان المتجلى :

ـ أنى اضع الامل فى الممثل لا فى الشخص ، فلعله يندمج فى دوره فينقلب تمثيله صادقا مع الزمن !

عند ذاك قال عدلى جواد :

ـ لا بأس مطلقا من أن تعيش الشخصين حفاظا عل أسرتك وحبك !

كرر جملته مرتين ثم واصل حديثه :

ـ من من الناس حولنا يحظى بشخصية واحدة ؟ ، نحن فى مسرح كبير ، الجميع ممثلون ، يقولون كلاما جذابا فوق الخشبة ، ويتهامسون بكلام آخر وراء الكواليس ، هكذا الجميع من القاعدة حتى العلالى ، فليس فى حياتك شذوذ ، احذر اى تصرف جنونى ، دع ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون ، عليك بالسلوك الجدير بعبثى ، ملايين يمثلون بلا فلسفة ولكن بوحى من غريزة البقاء ويواصلون الحياة فى ارتياح واستبشار وسرور !

ها هو ينفرد بنفسه ويزن تلك الأقوال بدقة . إنه الآن متحرر من ظلها . وهى طريحة الفراش بين ايدى الممرضات مشغولة بوعكتها عن المبادىء تتأهب لاستقبال الوليد الذى ستنشئه على مثالها . أجل لقد تلقى النصيحة العملية السديدة التى تصون له حياته وسعادته . سيعيش فوق المسرح زوجا وأبا ومؤمنا ومحاميا ، ويبقى وراء الكواليس ضائعا بلا معنى ، قاتلا ، مغتصبا ، عزبا ، وحيدا ينتظر موتا فى أعقاب حياة سمجة . وكلما ترامق الشخصان ـ الممثل والأصل ـ فعليه ان يبتسم ، وان شاء فليضحك ، بلا هم ولا غم ، وليتذكر انه لا يمارس شذوذا ما ، وأنه يقلد الملايين فى حياتهم اليومية .

ـ ١٢ ـ

بدا فى وقت ما أن الصراع يمضى نحو مستقر . لاح الأمان أيضا فى الأفق مع سحائب الخريف . وقال لنفسه إن آثامه ليست شيئا إذا قيست الى آثام الآخرين من السادة القتلة وقطاع الطريق المتهادين فوق المسرح بين التهليل والتصفيق .

ولكن عادت فتحية فأشرقت الفيللا بنورها . عادت إلى مقعدها وانتفض.الوليد بحياته الجديدة فوق حجرها . لقد سمته سليمان باسم ابيها وسوف ينشأ نشأة جديدة تقيه من وباء الانقسام وتحقق له وحدته . وتبدت سعيدة بوليدها ، سعيدة أيضا بالرجل الذى أعادت خلقه من جديد . ألحق أن استقراره تزعزع بحضورها . أنها نقية صادقة . رغم تزمتها ، بل رغم صرامتها وعنفها ، فهى صادقة . الى جانب نصاعة بياضها لاح لونه أغبر قاتما . حقا أنها ينبوع الحب والعذاب . من القلة النادرة التى لم تحترف التمثيل فرجع مضطرا إلى المقارنة بين ذاتيهما . فى غيبتها ساد العقل والمنطق وسيطرت ذكرى الحب الجميلة الصادقة لايمكن أن تبقى على حب قاتل مغتصب ضائع . ستقضى على العلاقة بعدم الشرعية . لا حب ثمة ولا زواج ولا أبوة فى محضرها . المطاردة تعنف ، واليأس يستفحل . وعجب لشأنه ولحدة انقلابه أيضا . الحب ذو التزام ويجفل من الخداع . هل يدمر الحب باسم الحب ؟ وكأنه أزمع الدفاع عن نفسه فقال لها :

– من يقرأ الصحف يقتنع تماما بأن الصفوة نفسها تعيش وجهين ، وأنها لاتصدق مع ذاتها الا وهى تمارس الشر فى الخفاء !

فقالت على الفور :

– المؤمن وحده من يعيش بوجه واحد .

سرعان ما صمم على ألا يقدم مختارا على طعن سعادته طعنة الموت . سوف يألف هذه الحياة رغم قربها ، وسوف يتحرر مع الزمن من آلامها . ونسمت من الباب المفتوح نفحة خريف عذبة مختلطة بالأصوات الغامضة الصادرة عن سليمان .

ولكن حدث شىء .

أنطلق فجأة وبلا مقدمات من أعماقه المترعة بالقهر والقلق .

أنطلق عملاقا ثملا حرا مزهوا بحقيقته الراسخة وتأثيره المطلق . كأن صدره أنشق عن ثغرة متفجرة بأنفعالات طاغية غامضة لتغزو الفضاء كله . استطار خياله فى نشوة من السكر الأصيل مستمدا من المجهول قدرة شاملة . رأى بنظرة خاطفة الكون ماثلا فى صورة واحدة ملتحمة الأجزاء متعانقة الأبعاد تنبعث من بهائها نغمة ساحرة . فى غمرة السكرة الصافية مرق بكل قواه من قفص الزمن وعلا فوق المخاوف والحذر . انغمس حتى قمة رأسه فى انتصارات اللحظة الراهنة .

وبصوت غريب متهدج قال لها :

– فتحية ، أصغى الىّ ، سأفضى اليك بأسرار مذهلة ...

- ١٣ -

الخريف مستمر فى نفث انفاسه ولكن العذاب انتهى . الحزن يغشى الوجود ولكن العذاب أنتهى . أنه غارق فى هدوء عميق سبق بأعصار مدمر . تقوض المسرح وتلاشى التمثيل ، استرد ذاته ، لا حب ثمة ولا زواج ولا سليمان لا شعائر ولا قضايا . الجدب والوحدة ولكن العذاب انتهى . من خلال جو جنائزى قاتم أطلت عليه وجوه الأصدقاء . لتوهم رجعوا من زيارة واجبة للحى القديم . مسعى تقليدى ولكن بلا ثمرة .

قال عدلى جواد :

- لايمكن فهم تصرفك .

- ما أهمية ذلك ؟ لكنه كان حتما من الحتم وعاصفة لاسبيل لمقاومتها . وقال وهدان :

- حزنها لايوصف .

فقال عبدالبارى :

- وغضبها كذلك .

وقال وهدان :

- لم تغفر لى سكوتى من أول يوم ..

رجع عدلى جواد يردد :

- لا يمكن فهم تصرفك ؟

فقال :

- صعقنى بلا مقدمات . لعله نوع من الجنون ..

ثم تمتم بعد قليل :

- ولكن لا ندم ولا أسف ...

فقال وهدان :

- قياسا على ماحدث يمكن أن يجد جديد لايخطر الآن ببال أحد ..

فقال عبد البارى :

- قول حسن .

من ناحيته فلا ندم ولا أسف . ولا عذاب أيضا . ثمة حزن عميق ولكنه يتنفس فى الزمن .

أهــــل الهـــــوى

من فوهة القبو دائمة الظلمة زحف على أربع . زحف فى بطء وتخاذل المريض المتهالك ، مد ذراعه الى جدار بيت ، يتكىء عليه ، ليقف فى عناء مترنحا ، تاركا تأوهاته المتقطعة تتلاحق فى وهن . وفى صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافى والحياة تدب متدفقة فى الحوانيت على الجانبين وفوق عربات اليد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة والسماء تعلو فوق كل شىء سقفا من الزرقة الرائقة . بدا عاريا تماما . فلفت الأنظار ، خاصة أنظار الأقربين ، نعمة الله الفنجرى تاجرة الخردة ، رياض الدبش الكواء البلدى ، وحلومة الجحش بياع الفول . تفرست نعمة الله فى منظره من مجلسها فوق الكرسى الخشبى امام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن فى جلبابها الرجالى الازرق وتمتمت :

- يافتاح ياعليم !

فقال رياض الدبش الكواء وهو يتابعه بوجهه المغولى :

- وراءه حادثة من حوادث القبو..

فقال حلومة الجحش بجسمه القصير البدين ووجهه الريان :

- يفعلها الذئاب ونتعب نحن بين س و ج ..

واصلت نعمة الله تفرسها حتى وضح فى وجهها ذلك المزيج الغريب المكون من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ثم قالت بنبرة خبير :

- ابن ناس !

تجلى الاهتمام فى عينى الرجلين فتبادلا نظرة معبرة ربطت مابين الدكانين الواقعين فى مواجهة الوكالة فى الجانب المقابل ثم حدجا القادم من المجهول بنظرة جديدة انه شاب فى الحلقة الثالثة ، ناعم البشرة ، مهذب الملامح ، أبعد مايكون عن الوجوه الكالحة المعهودة ، ثم قال رياض الدبش مداريا انفعاله :

- اعتداء وسرقة !

ومضى يتجمع حوله جمهرة من المشاهدين ولكن نعمة الله نهرتهم فتفرقوا سراعا . وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة فى الوسط فتلقى الشاب بين يديه قبل أن يسقط فوق أديم الارض عاجزا عن التماسك . ونادى عبدون فرجلة الشاب العامل فى الوكالة فأذنت له المرأة بتلبية النداء فتعاونا - مخلوف الممرض ،عبدون - على حمله الى العيادة هناك انامه مخلوف فوق كنبة وغطاه بملاءة

منتظرا قدوم الطبيب محسن زيان فى ميعاد من الضحى . انه رجل كهل فقد فى الحرب ابنا فى مثل سنه ولا ينقصه العطف على أى شاب رغم ايلافه مناظر العناء والمرض . ولما فحصه محسن زيان الطبيب اليدين ذو النظرة الخاملة الطبية تمتم :

ـ كدمات فى الرأس والجبين نتيجة ضربات شبه قاتلة ، علينا أن نبلغ الشرطة ..

فقال مخلوف زينهم بامتعاض :

ـ انهم ذئاب القبو ، ويستغضب نعمة الله !

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج ، ثم تمتم الممرض :

ـ انهم تحت حماية المرأة ، وهم جنودها السريون عند الحاجة ، ولا قبل لأحد بتحديها ..

فشرع الطبيب فى العلاج وهو يقول :

ـ ما قيمة حياة تجرى تحت رحمة امرأة كهذه !

ولم ينقطع ذكر الشاب الضحية فى موقع وكالة الخردة . شغل حلومة الجحش بزبائن لفول وراح غلام فى دكان رياض الدبش يسخن المكواة فوق الجمر المتقد على حين انهمك عبدون فرجلة فى ترتيب ماتبعثر من اطارات السيارات القديمة وقطع الغيار المستهلكة والمحركات والمراوح البائدة . وسألت نعمة الله عبدون عن حال الشاب الذى شارك فى حمله الى العيادة فلاح فى وجهه الطويل الشاحب الضيق لاهتمامها به وقال :

ـ سنسمع قريبا عن موته !

فحولت رأسها المكلل بشعر أسود مفروق مسترسل فى ضفيرة غليظة ملتفة حول صفحة العنق ونافذة فى طوق الجلباب الى رياض الدبش قائلة :

ـ سمعت مايقول ابن التربى عن الأفندى ؟!

فتساءل رياض الدبش مستنكرا :

ـ الأفندى ؟!

ـ أفندى وحياتك ، أفندى وابن ناس !

فدارى رياض غيظه بابتسامة ميتة وان جارى عبدون فرجلة فى حنقه أما نعمة الله فتساءلت :

ـ ولكن ماذا جاء به الى القبو ؟

فقال رياض منفسا عن صدره :

ـ وراء بنت من حريم الذئاب !

فقالت بحدة بصوتها الجامع بين الأنوثة والذكورة :

ـ مثله لايجرى وراء خنفساء !

ـ المؤكد أن الذئاب هجموا عليه فضربوه ثم جردوه من كل شيء ..
ولما رجع الى الظهور فى الحارة تبدى فى صورة أخرى . رفل حافيا فى جلباب قديم اهداه اليه مخلوف زينهم . لم يبق من آثار الحادث الا ضمادة التفت حول رأسه كالعمامة . وبدلا من أن يذهب الى حال سبيله هام على وجهه فى الحارة مثل كلب ضال بنظرة خائفة مستطلعة تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تعرف لنفسها هدفا . ووقف أخيرا فى مجال الرائحة الحريفة الدسمة البدائية المنتشرة من الطعمية فى ابتهال ذليل . حامت حوله اعين كثيرة لرجال ونساء سرعان ماهجرته فى لا مبالاة الا عينين سوداوين ثبتتا عليه فى اصرار وتماد . ولمست عذابه فأمرت حلومة الجحش بان يهدى اليه رغيفا وطعمية على حسابها . ورغم اشرافها على شحن ثلاث عربات بالخردة ومراقبة عبدون فرجلة والمشترين فقد تابعت التهامه للطعام بسرور وحشى . يكاد الشعر النابت فى عارضيه ولغده ان يلتهم وسامة وجهه كما يلتهم هو الطعام . ترى لم لم يذهب الى حال سبيله ؟ . وماذا يبقيه فى هذه الحال الزرية البائسة ؟ وبدافع من شعور فطرى بالامتنان تربع على الأرض غير بعيد من موقفها مسندا ظهره الى جدار الوكالة الذى لاح لأوفها كمخزن لنفايات الحديد . وسألته باهتمام :
ـ اسمك ياجدع ؟
فرفع اليها عينيه العسليتين فى حيرة واضحة ولم ينبس فتساءلت كالمحتجة :
ـ أهو سر لايذاع ؟!
فتحولت الحيرة الى صورة ناطقة للعجز فقال لها رياض الدبش الكواء :
ـ الصبر ، الا ترين انه لم يشف بعد مما به ؟
ـ لحد نسيان اسمه ؟
ـ مازال غير موجود !
فرجعت الى الشاب قائله :
ـ اسمك ؟ .. تذكر وأجب ، من انت ، من اين جئت ؟
فانقلب العجز عذابا وتوجس خيفة فقالت بحدة :
ـ قل أى شيء ..
فغمغم مقهورا :
ـ لاأدرى ..
فرددت عينيها بين رياض وحلومة قائلة :
ـ انه يهزأ بنا ..
فقال عبدون فرجلة وهو لايكف عن العمل :
ـ دعينى أطرده بعيدا ..
فصاحت به :

- طردت العافية من بدنك !
ونادت مخلوف زينهم فلما حضر الكهل سألته عن الشاب فقال :
- انه بلا ذاكرة !
فقالت بضيق :
- لم اسمع عن هذا المرض من قبل ، هل يطول غيابه ؟
فقال الكهل بعطف :
- لا أحد يدرى ، من ناحيتى فانى اسعى لدى الطيبين للتبرع بما يكفى لنشر صورة له فى الجرائد كى يهتدى أهله اليه ..
فقالت المرأة بغلظة :
- كف عن ذلك ودع الأمر لى !
فرمقها الكهل بيأس ثم قال :
- لك الجزاء الحسن عند الله ..
ومضى نحو العيادة .
وأفسحت المرأة للشاب مجالا للعمل فى الوكالة معلنة بذلك اهتمامها به فأقلع الجميع عن التفكير فيه ايثارا للسلامة . وراح يؤدى ما يطلب منه نظير طعامه وكسائه ، وتجاهله عبدون فرجلة طاويا حقده فى قلبه خوفا من المعلمة ، ولكن الحقد عليه تفشى فى قلوب كثيرة ، فى مقدمتها قلبا رياض الدبش وحلومة الجحش . وتوقع كلاهما دهرا أن عبدون فرجلة هو المرشح للنعيم حتى زحف الفتى المجهول من القبو كالقدر وتجلى رونق وجهه بعد الحلاقة ، وشعر رأسه الممشط بعد ازالة الضمادة كما ارتسمت قامته فى البنطلون القصير الكاكى والقميص الرمادى نصف الكم والحذاء الأسود الموكاسان . اما هويته المفقودة فلم تسترد ، ومضت هوية جديدة بدائية تستكشف الوجود من حوله بدهشة ثابتة ، مستهترة بالتقاليد والحياء والنفاق ، لائذة بغرائزها المتحفزة . وتمنى له الحاقدون الشفاء لعله يختفى فجأة كما ظهر فجأة ، اما نعمة الله الفنجرى ، المرأة الرائعة المخيفة فكانت تحلم بمسيرة اخرى . سرتها نظراته النهمة البهيمية ، ولغته الصامتة المكشوفة معا ، وحومانه الحار الجنونى حولها بلا حياء ، حتى قالت لنفسها « لابد من تهذيبه » . قوتها الراسخة نفسها اهتزت حيال هوج انفعالاته الجامحة ، فخافت أن يصيبها سوء مجهول بين يديه بعنف البراءة العمياء . وقالت لنفسها أيضا « انى أخيف الرجال ولكن لا أدرى كيف اتعامل مع الزوابع » . بدا غريزة مجسدة تهيم فى غابة من نفايات الحديد . وسمعت عبدون فرجلة يدعوه بالمجنون فنهرته قائلة بنبرة آمرة :
- انه يدعى عبد الله !
فتساءل عبدون :

ـ الا ترين انه لا يعرف دينا ولا ربا ؟!

فشكمته بضربة فى صدره اوشكت ان تطرحه ارضا ، وسرعان ماعرف بعبد الله ، ولكنها قلقت من حريته المطلقة المنذرة دائما بعواقب مجهولة ، انه لا يتورع عن مد يده الى اى موضع خصب من جسمها فترجعه جادة حذرة ، رغم ظهورها بمظهر الرجال فى الوكالة طيلة النهار ، فكيف لو لمحها فى منظرها الانثوى الطاغى فى مسكنها الناعم الخيالى فوق الوكالة ؟ وخطر لها خاطر حكيم ادخرته لزيارة الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية الذى يتلقى منها المعونة له وللزاوية فى ايام محددة . انها تغطى طغيانها المخيف بنفحات كرم تسكت بها ذوى الألسنة القادرة ، وتمارس فى الدين طقوسا وثنية فلا تأبى ـ رغم جبروتها ـ ان تؤنس وحدتها الداخلية بالاحجبة والتعاويذ . جالست الشيخ على اريكة قائمة فى الجانب الايمن من الوكالة بين تلين من قطع الحديد . وتراءى عبد الله وهو يعاون عبدون فرجلة فى شحن عربة بالاطارات الملساء ، ولمحت المرأة الشيخ وهو ينظر نحوه فقالت :

ـ اعطيته عملا ورزقا ..

فقال الشيخ وهو فى اعماقه يخافها ولايحبها :

ـ الله لايضيع اجر من احسن عملا ..

ـ ولكنه نسى الدين فيما نسى ..

ـ اعوذ بالله ..

فقالت باغراء :

ـ هذه هى مهمتك ياشيخ جابر ..

ـ يا لها من مهمة شاقة !..

ـ لا تكن طماعا . وحظك محفوظ ، المهم ان تعلمه كيف يخاف ، يكفى هذا ..

أدرك لتوه انها تريده على ان « يعده » لها . لعنها فى سره وأستغفر ربه ، وقال لنفسه انه ليس من حقه ان يسىء بها الظن استنباطا من نية لايعلمها الا الله ، وان مهمته فى ذاتها خير يستحق عليه المثوبة . ودهش كثيرون عندما رأوا الفتى يساق كل عصر على الزاوية لتلقى دروس فى الدين . وقال السذج انها امرأة شريرة طاغية ما فى ذلك شك ولكنها لاتخلو من جانب خير . أما أمثال رياض الدبش وحلومة الجحش فقد فطنوا الى اللعبة . وتساءل حلومة بحرقة :

ـ متى أراها فريسة الزمن ؟!

كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها فى قلوبهم اظافر المرأة . حظى من حظى منهم بالعشق حين جادت به وتجرعوا الهجر حين هجرت . وعند ظهور فتى جديد يختال فى أبهة النصر يتعزون عن الأسى بتربص النهاية المحتومة . انها دائما تتربص هناك لا دافع لها ولا مهرب منها . ولكن متى تخمد نيران تلك

الشهوة المتأججة ؟ وراحت تكافىء الشيخ جابر على دروسه بكرم ثم تراقب الفتى وتنتظر . ودخل فى مقام من مقامات الحيرة ، وتجلى التساؤل فى عينيه . ولم تشأ ان تسأله حتى يبادرها بالسؤال ، وقد سألها :

- أهو صادق فيما يقول ؟ .. أعنى الشيخ جابر عبد المعين ؟

فقالت بحرارة :

- الصدق أعز مايملك فى هذه الحياة ..

فاشتدت حيرته ومضى يعرف الحياء ، ويدارى انفعالاته ، ويأسف بعد ارتكاب الخطأ . وحثت هى الشيخ على ان يعفى الفتى من التعمق أو يكلفه بما لا يطيق . انها تكره العارفين الذين يستشهدون عند كل موقف بما يناسبه من الايات . انها ترغب فى امتلاك الشاب وتخاف تمرده ، وعلمتها حياتها أن القليل من الدين مفيد أما الكبير منه فينذر بالخطورة والغم . وهى مرتاحة الى نمو رغبته فيها وعذابه الدفين بالتردد والحياء والخوف بعد ان وسع قلبه الرغبة والعبادة فى آن . وتمتم أمام شيخه :

- الله والجنة والنار .

فقال له الشيخ جابر :

- تدبر ذلك بعقل ناضج تجاوز الطفولة والصبا ..

فتساءل فى حيرة :

- والرغبات الجامحة من خلقها ؟

- هذا هو امتحان الانسان ؟..

وعلم فيما علم بما ضاع من ماضيه . اى فرد يجهل مستقبله اما انا فاجهل ماضى ومستقبلى معا . ماض ليس بالقصير وحفل ولاشك باشياء واشياء . ولم يفطن الى جو الحقد الذى يلفحه الا قليلا ، فعدا عبدون فرجلة لم يشعر بعداوة مجسدة . ولم يفطن كذلك الى ان نعمة الله ترصد اللحظة المناسبة لانتزاعه نهائيا من يدى الشيخ عبد المعين . ولكن قلبا واحدا ظل يخفق بالعطف عليه هو قلب الممرض مخلوف زينهم . تسلل مساء الى الزاوية فصلى المغرب ثم انتحى بالشاب ناحية عقب انتهاء الدرس . لمس التجهم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب وقال له :

- اخش ربك وحده !

فتساءل الشيخ بحدة :

- وانت الا تخشى المرأة ايضا ؟

- يمكن ان تستمد من العمامة قوة وليس لى ذلك .

فقال الشيخ :

- لولا المرأة ما كانت الزاوية !

فقال له بأسى .
- انك تعلم انها ترعاها من أجل الشيطان ..
وأقبل على الفتى معرضا عن الشيخ وقال :
- سوف تسترد ماضيك يوما ما ، مظهرك يدل على انك منحدر من أصل طيب ولعلك كنت ماضيا فى مهمة نافعة ، لست من حيِّنا فماذا جاء بك اليه ؟ والعمل المتاح لك اليوم لايناسبك فماذا كان عملك ؟
فتمتم عبد الله :
- لا حيلة لى الان ..
- هذا واضح ، المهم الا تتورط فى مأزق يتعذر الخروج منه اذا انقشعت الظلمات ..
- نعمة الله هيأت لى عملا ومأوى ..
- هى فى الحقيقة لا نعمة !
- لولاها ..
فقاطعه :
- انها صاحبة خطة قديمة متجددة ، سوف تهبك نفسها فتظن نفسك سيد العالمين ..
فتورد وجه الفتى وخانه السرور فأضاء به وجهه فقال الرجل بحزن :
- لست الاول ولن تكون الاخير ، وسوف تلفظك حتما وبلا رحمة فتتلاشى ساعات السعادة الزائفة فى حمأة الهجر الدائم وتنضم الى ركب التعساء الكثيرين ..
قلقت فى عينيه العسليتين نظرة حائرة ولكن موجة الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نذر المصير المخيف المجهول ، فقال الرجل وهو يصارع الهزيمة
- انها قوية بلا حدود ، حتى ذئاب القبو الذين اعتدوا عليك يخضعون لها وعند الضرورة تزهق روح من يعاندها ، هى السحر وكفى ..
فتساءل الشاب احتراما لعطف الرجل :
- ماذا تريد منى ؟
- ان تهجر الحارة فى الحال ..
- الى اين ؟
- ستجد لك رزقا فى مكان ما حتى تستعيد ذلك ..
صمت دون حماس فتساءل الرجل بقلق :
- اوقعت فى قبضة قدرك ؟
فأجابه بصمت ناطق واستخفته الفتنة ، وشعر مخلوف زينهم انه يجرى بعيد عنه ، وانه ينطلق نحو تجربته المهلكة بحماس دافق ، تنهد الرجل ، قام وهـ

يتبادل مع الشيخ نظرة حنق ثم مضى وهو يقول للشاب :
- الله معك !
وهل الصيف بشخصيته الواضحة المتحدية ، وتحت شمسه المحرقة سرى العنف فى الحناجر واحتدم الخصام لأتفه الاسباب . واتهم عبدون فرجلة الفتى بسرقة قروش افتقدها فانقض عليه يصارعه لولا نعمة الله فى اللحظة المناسبة وانذارها عبدون بالطرد اذا عاود العدوان . وقررت المرأة كف الفتى عن دروسه الدينية اكتفاء بما حصل من قشور فكثر الفراغ فى حياته كما كثرت الهموم . بات يخاف الله ، ويخاف عبدون ، ويخلف تحذيرات عم مخلوف زينهم ، ويتساءل عن ماضيه الطيب والمهمة التى جاءت به الى هذه الحارة العصبية ، ويتساءل متى يبدأ العشق قصته ، وماذا يمكن ان يقال عن المصير المحتوم ، والا يكون خسرانه اكبر ان تجنب التجربة المغرية ليتفادى من المصير المحزن ؟! خاض فترة قلق ، وتطلع الى معلمته بنفاد صبر ، وجزع لانهماكها فى العمل ولما يبدو من تجاهلها لحاله . غير انها كانت قريبة منه اكثر مما يتصور ، ومتغلغلة فى تلافيف ذاته بقوة امرأة آسرة وأسيرة فى آن . انها رغم قوتها المعترف بها . وقدرتها الادارية ، وسطوتها الاسطورية ، فريسة لخيالها المنطلق وعواطفها الجامحة ، انها تعشق حتى الموت ، وعشقها داء لا دواء له ، وعندما يرشح لها قلبه فتى من الفتيان فتهيم به وتجن ، ولكن الخبرة ترسم لها وسيلة ظاهرها القوة واللامبالاة ، توكد لديها انها تعانى حال عشق جنونى لانزوة طارئة فتأهب للتجربة . لاذت بخلوتها الصغيرة بمسكنها الوثير المفروشة اركانه بالشلت الدسمة المكسوة بالاغطية الخضراء ، يتوسطها وعاء نحاسى مجوف ملىء نصفه بالبخور ونصفه الاخر بقصاصات منقوشة بالتعاويذ والادعية والنداءات الخفية . ذرت قبضة من البخور فى مجمرة لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذى غادر الدنيا على عهد شبابها الاول ، وشملت الظلمة المكان الا لآلىء تتألق فى الجمرات وانتشرت رائحة البخور العميقة مفعمة بالابتهال والنداء ، وحل بالظلمة وجود جديد ، ثمرة للرغبة الحارة المستميتة ، كحضور ذى وزن ملأ فراغ الخلوة بثقله غير المرئى ، وسرعان ما انقشعت الوحدة وتلاشى الالم . تشجعت وهمست دون ان تجفف عرقها :
- أهلا بك يابرجوان ..
فنفذ الى اعماقها صوته المغلف بالموت :
- القبو يطيعك ، الرجال يخافونك ، شبابك حى
فهمست باشفاق .
- حل بى الجنون من جديد .
- صاحبك ايضا مجنون

ـ قد يرجع الى ذاته قبل ان ابرأ من عشقه !
ـ اذا رجع نسى الماضى ولا حيلة فى ذلك .
فقالت بتوسل :
ـ سحرك قادر على كل شىء
فقال بضجر :
ـ اولى بك ان تحذرى مخلوف زينهم
فهمست بقلق :
ـ اعلم نواياه ولكنى اخاف ان اؤدبه بنفسى فأرعب الفتى ..

فتنهد الظلام فى استجابة ، وتلاشى الحضور فى الحال فعادت الى وحدتها ولكن بقلب مترع بالثقة . واقعد المرض الممرض مخلوف زينهم عن عمله فى عيادة الطبيب محسن زيان . وعرف فى الحارة انه اصيب بروماتزم مفصلى شديد غير ان الشيخ جابر عبد المعين قال لزوجته :

ـ انه من عمل نعمة الله !

فقالت المرأة مذعورة :

ـ ليتك لم تش به .

غضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمة شديدة .

واراد عبد الله ان يعود الرجل الذى كان اول من كساه بعد عرى ولكن نعمة الله قالت له :

ـ لا احب هذا ..

ثم خففت من وقع امرها فقالت له :

ـ مسكنى فى حاجة الى الخدمة ، وقد اخترتك لذلك

ونسى صاحبه وتساءل فى سرور طاغ « ترى هل انتهى العذاب ؟» . وثمة باب فى الوكالة يفتح على سلم للمسكن تسلل منه ليلا . استقبلته رائحة البخور وضوء مصباح كهربائى مثبت فى اعلى الجدار . صعد فى الدرج ووجدانه يسبقه يطمس بحمياه معالم المكان . فى نهاية دهليز رأى بابا مواربا يشع منه نور ، مضى اليه وتنحنح . جاءه صوتها الليلى الرخيم داعيا فدخل . لم ير من الحجرة سواها وهى مستوية على كنبة مسندها مطعم بالصدف فى جلباب حريرى ابيض يخفى قسمات الجسد ولكنه ينبىء عن عملقته بطريقة انسيابية تثير الخيال . وليس فى الوجه المتسلطن اثر من زواق ولكنه ينضح بانوثة فوارة بعد ان خلعت قناع الذكورة الصارم الذى تتعامل به فى الوكالة والحارة . والشعر الاسود ذو لون طبيعى لا يشى بأى تكلف كيماوى ، دافىء بشباب راسخ ، وتركته واقفا فى جلبابه ، لم تخفف من ارتباكه بكلمة كأنما لتمتحن اثرها فيه ، ولترى لاى تكون الغلبة : الخوف أم الرغبة ؟ ومن شدة حرجه انتزع عينيه منها ليلقى نظرة عما

حوله ولكنه لم ير سوى النظافة وكأنها تقوم بذاتها . وتنفس رائحة طيبة . قال
- لعله وقت مناسب لتنظيف المسكن ولكنه ليس فى حاجة الى تنظيف ..
فصبت من ابريق مفضض فى قدحين فوق خوان مطعم بالاصداف سائلا فاحت منه رائحة القرفة الممزوجة بالزنجبيل ، وعادت تنظر نحوه ، وبسريان الخمر غير المنظورة فى دمه التصق بصره بها فى جراة السكران . وتمادى فى انفعاله حتى اكتسح العواقب واستسلم لتيار قوى دفع به نحوها كالقذيفة . وكالقذيفة راح يتنقل بين ابعادها وهى تتلقفه بحنان حار ، ورضا آسر ، واستجابة مستكينة وحماسية معا . ومالبث ان توج فوق عرش النشوة والسيادة ، وامتلأ واقعه بعذوبة الاحلام . وتمنى لو استمر ذلك دون توقف ، لوكان الحب ذا سياسة اخرى ، لو ان السعادة لايجرفها تيار الذكريات . لكنه وجد نفسه راقدا فى حضن الفتور الجليل يرى الاشياء لاول مرة . انها حجرة انيقة حقا . متوسطة الحجم ، مزينة الجدران بسجاد صغير وبسملة مذهبة تتوسط اضلعها كنبات وثيرة ذوات اغطية مختلفة الالوان ومساند مطعمة مموهة بالامثال ، ومغطاة أرضها بسجادة حمراء فى وسطها مجمرة كبيرة تحت مصباح كهربائى فى قنديل ، وسرعان ما انتقل من الفتور الى القلق حتى قالت له :
- نظرة عينيك لا تعترف بجميل .
فلثم خدها وهو يقول ببراءة :
- أخاف النار !
فابتسمت قائلة بحنان :
- عندما تهب المرأة نفسها فالعلاقة شرعية مباركة !
فمال الى تصديقها بكل قواه ورآها جديرة بالانقياد ، اما هى فواصلت :
- منذ الساعة فانت شريكى فى البيت ووكيلى فى الوكالة !
وتبدى فى صورة جديدة ، صورة المعلم الشاب بجلبابه الابيض ولاثته المزركشة ، وزهوه المتورد ، وعمل عبدون فرجله فى ظله ، مكرها على طاعة مرة كالسم منطويا عن مقت وحسد كالنار ، وشاركه فى عواطفه الدفينة رياض الدبش الكواء وحلومة الجحش القوال وآخرون ، ولكن عبد الله تجاهل فى نشواته العواطف الدفينة . وأقبلت السعادة كالشمس تنتشر اشعتها فى جميع الارجاء فجذبت مسمعيه ضحكات السكارى والمساطيل وأطربتها أنغام المزامير الراقصة واغانى الراديو وتصام عما عدا ذلك حتى آمن بان مهجره الجديد ما هو الا موطن للسرور والرحمة فشكر الحظ الذى ساقه من المجول الى القبو واستخلصه من ماض لايجوز ان يأسف عليه ، وانغمس فى الحب فى الليالى المذابة فى اقداح القرفة والزنجبيل الحاوية لنفثات السحر ، الداعية لعوالم الخيال والذهول ، وتكشف نعمة الله عن معجزة لا نهاية لابداعها وفنونها وانغامها ، ولا نهاية

لقدرتها الخارقة فى اشعال الحيوية وتفجير الطاقة ، وخلق المسرات ، واشباع الكرامة وارضاء الغرور ، انغمس فى الحب حتى قمة رأسه ، وتعلق بها حتى الجنون . والهمته سعادته الاحساس بالدوام والخلو ، فاقتنع بكل قواه بصدقها واخلاصها ووفائها ، وتطايرت أصداء ماقيل له عنها فأنسيه وكأنه لم يكن . ونسى تماما القلق والتساؤل والحيرة والاساءات العابرة فبدت جميعها كالأشباح الوهمية التى تفنى فى ضوء الشمس الساطع . وقالت له ليلة فى دعابة :

ـ اراك لا تتكلم الا نادرا ..

فتحير قليلا ثم قال :

ـ السعيد لا يجد مايقوله الا نادرا ..

فابتسمت قائلة :

ـ كتب علينا الا نسمع الا مايسوء !

فقال ضاحكا :

ـ انى أثرثر ولكن بغير لسان !

ـ ألا توجد فى قلبك رغبة ؟

فقال بحماس :

ـ ان يدوم الحال ..

فقالت بنبرة صدق :

ـ هو ما أوده ايضا ..

ـ اذن فلن يهدد دوامه شىء ..

وصمتت قليلا وهى تتفحصه ثم سألته :

ـ ألم يعد يهمك ان تعرف المجهول من حياتك ؟

فهتف ضاحكا :

ـ أبدا ، الحق انى اخشاه على حاضرى ..

ـ وانا ايضا مثلك .

وبعفوية تبادلا قبلة ثم قال :

ـ الا توجد وسيلة لحماية حبنا اذا انكشف المجهول ؟

ـ هذا ما لا أدريه ..

فتساءل بحرارة :

ـ الا ترينه اقوى من ان يؤثر فيه شىء ؟

فقالت بحماس :

ـ هو كذلك ..

فاستوى حصنا منيعا من اليقين والطمأنينة خليقا بان يصمد لأجن العواصف والترهات . وثمل بسعادته فلم ينتبه لجريان الزمن . فى تلك الغفلة العذبة تلاحقت

ايام الصيف لاهثة وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة ، ينفث فى الجو أنفاسه الرقيقة ويخضب السماء بفرشاته البيضاء ويغزو القلوب بانغامه الشجية . ومضت نيران العواطف المتأججة تخبو قليلا قليلا ، ويحل محلها حب هادىء ، موسوم بالاعتدال . متحرر من جنون الافراط ، مالك لوقت ينفقه فى التعامل مع سائر اركان الحياة . وزحف ذلك التطور على الطرفين معا ، الفتى والمرأة فخلطا احاديث الهيام بهموم الوكالة والحارة ، واستأثر الجد بالحوار حينا فخلا من أية مداعبة ، فانبثق التلاقى الحميم ثمرة للرغبة مرة ، وثمرة للعادة او دفعا للشكوك مرات حتى تساءل عبد الله ماهذا الذى يحدث ؟! بدا كل شىء بالقياس اليه ـ بخلاف المرأة ـ كأنما يحدث هكذا لاول مرة فى تاريخ البشر .. واسترق النظرات الى المرأة الهادئة فساورته الشكوك وازدحم افقه بالفكر . ولمح يوما عم مخلوف زينهم وهو ماض نحو العيادة فاستعاد تاريخه معه فى لحظة . ادرك بكل سرور ان الرجل برىء من مرضه فاندفع نحوه بتلقائية . ولكن الكهل صدمه بنظرة باردة رافضة وابتعد عنه فى تجاهل تام ، وتوقف متعثرا فى ارتباكه متذكرا ذنبه فى اهماله حين مرضه ، وتراجع الى موقفه وهو يتلقى من أعين كثيرة نظرات لاذعة . شعر بانه خسر صديقه الوحيد فى الحارة . وانتبهت حواسه لما حوله من جديد فقرأ الحسد والشماتة فى اعين عبدون ورياض وحلومة !. الجو مشحون بالكراهية والحسد . وتذكر تحذيرات زينهم فاوشك ان يفقد الثقة . وبدافع من تحد راح يقطع الحارة ذهابا وايابا ويختلف الى المقهى بعض الوقت . وتتلقى اذناه كلمة من هنا وكلمة من هنا . لم يتصور ان تكون امرأته الشغل الشاغل للناس بهذه القوة . هل عشقتهم ونبذتهم جميعا ؟! انهم يخافونها بقدر مايمقتونها وكأنها لا حيلة لهم قبالتها . وهى فى نظرهم قوية ، بل اقوى من جملة رجال اشداء ، ولكن لا أهمية لقوتها اذا قيست بتمرسها بالسحر وتعاملها مع العفاريت أو بتسلطها على ذئاب القبو الذين لايتورعون عن القتل خدمة لها . ولا يكاد ينخدع احد برعايتها للزاوية وشيخها او برها ببعض الفقراء ، ويرون فى ذلك ستارا كاذبا تسدله على آثامها ورغبتها الشرهة فى التحكم فى الناس والارزاق . واذن فجميع مظاهر السرور فى الحارة ماهى الا قشور اما الحقيقة فهى انها تعيش فى جو يموج بالخوف والحقد ، تهدده فى كل حين الذئاب والعفاريت ، وتنحسر فى الوقت ذاته عن ساعات لذة عابرة جادت بها المرأة المحترفة فى غفلة من الزمن . اهذه هى نعمة الله حقا ام انه خيال يشعله الحسد والحقد ؟ الم يجد حبها صادقا وعطفها شاملا واخلاصها راسخا ؟ وحتى الهدوء الذى ال اليه الم يقع له نفس الشىء ؟ هل يمكن ان يتهم هو بسبب من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحب او انقلاب العاطفة ؟ ولكن من ناحية اخرى لم يتقرر له مصير غير مصير الاخرين ؟ لم ينج من الكأس التى تجرعها الجميع حتى الثمالة ؟ وتلتقى عيناه بعينيها وهى

منهكة فى العمل فتبتسم اليه ابتسامة حلوة تمحق وساوسه فيشرق الامل بنفسه من جديد . وتشجع فى ليل ذلك اليوم الخريفى وقال لها وهما يرشفان من قدحى القرفة بالزنجبيل ويهيمان فى ملكوت الاوهام الحانية :

ـ اتدرين مايقال عنك فى الحارة يانعمة الله ؟

فداعبت وجنته باناملها وقالت :

ـ لست غافلة عن شىء يهمنى ابدا .

فقال بامتعاض :

ـ ما اظلمهم يا نعمة الله ..!

فتساءلت فى دعابة :

ـ أتراني ملاكا ؟

ـ انك عظيمة وطيبة ..

فقالت بهدوء :

ـ ولكى اكون عظيمة وطيبة يجب ان اكون احيانا حازمة وقاسية

فتساءل وهو يكتم وساوسه :

ـ لك تاريخ عجيب ولاشك ؟

ـ طبعا ، انى سليلة فتوات كما كان اول زوج لى فتوة فنشأت قوية ولكنى كنت يوما ومازلت ذكية فسلمت بانتهاء عصر الفتونة ، غير انه لاغنى عن القوة والذكاء .

ـ احقا تسيطرين على الذئاب ؟

ـ نعم ، ان لم اسيطر عليهم سيطر عليهم الاخرون وحلت الفوضى ..

فسأل بعد تردد :

ـ وهل تجيدين السحر ايضا ؟

ففكرت قليلا ثم قالت :

ـ هذا هو الاسم الذى يطلقه العجزة على الذكاء .

فقال بقلق :

ـ التعامل مع العفاريت أمر مخيف ..

فتساءلت ساخرة :

ـ هل عثرت على عفريت فى هذا البيت الجميل ؟

فتنفس بارتيّاح وتساءل :

ـ لم لا تعيشين مثل الناس العاديين ؟

فقالت بكبرياء :

ـ لاننى لست عادية !

وساد الصمت حتى تجلت للسمع أصوات رقيقة للخريف فى الخارج وجعلت تلحظه باهتمام فلما لاذ بالصمت قالت مستلهمة نظراتها النافذة فى الاعماق

ـ قل ماعندك ، مازال عندك مايقال ..
فضحك ضحكة قصيرة وتساءل :
ـ أحقا تزوجت من كثيرين ؟
فقالت باستهانة :
ـ نعم .
ـ وهجرتهم أو أجبرتهم على الهجران ؟
ـ نعم .
فتساءل وقلبه يخفق :
ـ ولكن لماذا ؟
فقالت ببرود :
ـ لم اجد بينهم صالحا ..
وراقبت وجومه قليلا ثم همست فى أذنه
ـ انت أول من أجد !
فرنا اليها غير مصدق فقرأ الصدق فى عينيها الجميلتين المتسلطتين وهمس
ى أذنها :
ـ لا حياة لى بدونك يانعمة الله ..
ـ ولا حياة لى بدونك
فقال بحماس وحرارة :
ـ أخاف عليك حقدهم المنتشر ..
فقالت ساخرة :
ـ لا خوف من حقد مصدره العجز ..
ـ كراهيتهم لى ايضا تلفحنى فى كل خطوة
فقالت بوضوح :
ـ احذر ان تظهر خوفا او قلقا .
مضى يسترد الثقة والسكينة بين يديها ، ولكى يتبدد أمنه فى الوكالة والحارة ، استعاد حديثها كثيرا فلم يعرف الاستقرار قلبه . امرأة تثير عواطف شتى متناقضة . تلهم الحب والطمأنينة والخوف والشك ، يراها فى الوكالة شخص آخر ، يرى رجلا قويا ومثالا للحزم والعنف ايضا . لا تقارب بينه وبين الانثى التى تبهر الليالى فى المسكن الناعم . وخطر له ان يسأل نفسه « ترى هل وجد مثل هذه الحيرة فى حياته المجهولة ؟» وكان يتذكر حياته الاخرى لاول مرة منذ امد غير قصير . أكان أسعد حالا أم أتعس ؟! أكان أرفع منزلة أم ادنى ؟ . كان يحترق بغضب الاخرين أم نعم بسلام دائم ؟ من أى جهة جاء واى جهة قصد ؟ لكنه عبر ذلك بسرعة وكاد ينسى كل شىء لولا ان سألته فى مجلس الليل :

ـ فيم تفكر ياعبد الله ؟
فأجاب بسرعة :
ـ لا شيء ..
ـ كنت فى النهار كالمسافر .
وذابت ارادته تحت نظرة عينيها فاعترف لها بتساؤلاته . فنظرت الى السقف المنقوش بزخارف متداخلة لايعرف لها اول ولا آخر ، وقالت :
ـ إنها اول اهانة اتلقاها منك ..
فهتف بجزع :
ـ خواطر فارغة ولكن لى عذر .
ـ لا عذر لك ..
ـ تقبلى أسفى ..
فتساءلت فى عتاب :
ـ ماذا تريد اكثر مما اعطيتك ؟
ـ لا شيء .
ـ ولكنك تحوم حول تساؤلات عقيمة ، وهذا هو الحمق ..
ـ نطقت بالحق .
ـ لاتكن منافقا كالاخرين .
ـ بل نطقت بالحق وما اطمح الا الى دوام ما أنا فيه ..
فقالت بحدة :
ـ ستعرف مجهول حياتك ذات يوم وسوف تندم ..
ـ شعر بانها امرأة محبة وغيور ، ونعم ليلتها بسعادة صافية ، وعندما ساد الظلام خطر بباله سؤال « ترى هل الندم هو الجزاء الاوحد لمعرفة المجهول من حياته ؟» ولكنه رغم الظلام ، وهبوط النوم ، خاف ان تفضحه نظرتها النافذة ، وانغمس فى حياته باصرار ، وركز على سماع الاغانى والنكات ، وتجنب ما استطاع نثار شواظ الغضب الهادر تمنى ان تمضى حياته هكذا أبدا . على أن الحياة مضت فى طريقها على اى حال . وانتهى الخريف كما انتهى الصيف من قبل وان لم ينته فى غفلة كاملة . ولا بنفس السرعة . ولكن الليل طال وتلفعت بواكير الصباح بالظلمة وزفرت الابدان قشعريرة . وتأخر شروق الشمس حتى انقشاع الغمام وجادت السماء بمطرة واحدة . وغير ملابسه الداخلية والخارجية وتواصل التغيير فشمل اشياء كثيرة تسلل التغيير فى خطوات غير مسموعة ولولا حساسيته ومخاوفه الدفينة لأفلت منه تماما . وزاد من قلقه ان التغيير ينبثق منه ، من اعماقه ففتر حماسه لمجلس الليل الذى لايعد بجديد وغدا الاستسلام للنوم الذ من السهر ، وتمنى لو كان له اصحاب يسامرهم فى المقهى حتى منتصف

الليل . وانطفأت بروق كثيرة تحت عباءة العادة الثقيلة ، فاستيقظ الفكر وخبت شعلة العواطف والغرائز ، وخاف ان يقف كالمتهم بين يديها ، ان يتلقى من عينيها السوداوين نظرة ساخرة ولكنه وجدها تسايره بارتياح وعفوية . وتشغل عن اللهو والزينة بالتفكير فى العمل او باستقبال بعض العملاء ثم يأويان الى النوم اخر الليل مثقلين بالتعب . توقع منها مطاردة محرجة فوجدها تغوص فى العقل والهدوء واللامبالاة . وفجر ذلك قلقه ولم يطمئنه ، ورأى فيه نذير شر . وصمم على افتعال العاطفة وبعث الرغبة المرهقة مهما كلفه ذلك من جهد جنونى ولم يحظ ذلك من الطرف الاخر بعطف فاعرضت عنه مرات فى استياء لم تحاول اخفاءه ، حتى قالت له مرة :

ـ دع الامور تجرى على سجيتها ..

عند ذلك أضناه الحياء والالم ، وندم على مافرط منه من اندفاع جنونى أحمق ، وكأنما كانت كل ليلة هى ليلة الوداع . وبات ذلك الفتور شغله الشاغل فنسى كل مأساة الا مأساة الحب . هل يفقد هذه القوة العجيبة كما فقد الذاكرة ؟ وهل يجرى عليه ماجرى على أزواج نعمة الله السابقين ؟ . وجعل يقوم بعمله فى الوكالة بعقل غائب ووجه نضب فيه معين السرور والمرح . ولحظ أن عبدون فرجلة يتابعه بشماتة ، وان نظرات رياض الدبش وحلومة الجحش تبرق باضواء فرح شرير . ما اكثر الذين ينتظرون على لهف نهايته . ولكنه سيخيب الظنون ويبدع فى مجرى الحوادث مالم يبدعه أحد ممن سبقه . سيظل الفتى المرموق فى هذه الحارة التى يحترف أهلها الشكوى والعويل وتردد اغانيها انات الهجر والحرمان . وشعر بحاجته الى صديق يشاوره . ولكن لا صديق له فمن يشاور ؟ . وخطر له الطبيب محسن زيان فذهب الى العيادة فكان أول زائر فى الصباح . قابله مخلوف زينهم كغريب فقال له عبد الله :

ـ السماح من شيم الكرام ياعم مخلوف .

فقال له الكهل باستياء :

ـ إنى اعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون .

وغادره الى حجرة الطبيب ثم عاد ليدعوه للدخول فى جفاء . نظر اليه الطبيب متفحصا ملابسه البلدية الصوفية الفاخرة وابتسم ، ثم سأله :

ـ جئت من أجل ذاكرتك ؟

فأجابه بصوت مهموس عما جاء من أجله . وطرح الرجل عليه أسئلة بخصوص عمره وعمله والأسلوب الذى اتبعه فى حياته « الزوجية » . ثم قال له :

ـ انه الافراط البعيد عن العقل .. والقلق النفسى .. تلزمك راحة جسدية ونفسية ..

فهمس عبد الله :

ـ والدواء ؟

هز رأسه نفيا وقال :

ـ سيضرك اكثر مما يفيدك ..

رجع الى الوكالة مغتما وهو يلعن الطبيب وازدادت حاله سوءا فحصر فى ركن مظلم وغمغم لنفسه « كأنه مصير لا مفر منه » . واذا بعبدون فرجلة يسأله :

ـ سلامتك . لماذا ذهبت الى العيادة ؟

فقال له بحنق :

ـ انتبه لعملك ، متى كانت صحتي تهمك ؟

فقال الشاب متظاهرا بالجدية :

ـ سمعت الشيخ كافور يقول يوما « لا يملك انسان مايستحق ان يحسد عليه حقا »

فصاح به :

ـ انت كاذب ولم يخل قلبك من الحسد ساعة واحدة ..

وخيل اليه ان حكاية الاستشارة الطبية تلوكها ألسنة لاحصر لها فازداد انحصارا فى الغم واليأس وغمغم لنفسه مرة أخرى « كأنه مصير لا مفر منه » وفى هذه الدوامة المظلمة المنذرة بسوء المصير انساق بقوة الى التفكير فى المجهول من حياته . فقد يجد فيه المأوى اذا افتقد مأواه ، وقد يجد فيه العزاء اذا عز العزاء . هذه الحياة المتاحة تتسرب من يديه كالماء ، لم تعد حقيقة ثابتة ولكنها حلم تحدق به يقظة الصباح القريب ، وسوف يجد نفسه وحيداً منبوذا ضائعا ان لم يهتد الى حقيقته الغائبة . انه صاحب حياة ماضية ، تمثلت فى أهل وعلاقات وأناس ، تجسدت فى حى من الاحياء القريبة او البعيدة ، وثمة عمل ارتزق منه ، وربما زوجة وابناء ، وثمة هدف دعاه الى المجيء الى هذا الحى ، وحدث مادفع به الى القبو حيث وقع له ما وقع ففقد كل شيء . ترى ما السبيل الى الكشف عن تلك الحقائق الغارقة فى الظلام ؟ وقد سمع مايقال عن نشر صور المفقودين فى الصحف فلم لم يجدّ أحد فى البحث عنه ؟ وهل ينشر هو صورته باعتباره فاقد الذاكرة ؟ تردد طويلا أمام هذه الفكرة لخطورة عواقبها . أجل قد دار الحديث يوما فى المقهى عن هارب تبحث عنه الدولة لتشنقه ، كما سمع آخر يقرأ اعلانا لأسرة موجها لابن هارب تقول له : « يافلان .. عد الى أهلك ، جميع طلباتك مجابة !» فالى اى الفرعين ينتمى ؟ وهل اذا نشر صورته انقضت عليه الشرطة أو تحققت امنياته جميعا ؟ ماذا يكمن وراء الباب المغلق ؟ تراجع عن الفكرة وهو يزداد مرارة : وشعر ـ كما لم يشعر من قبل ـ بحاجته الى الصديق أو فى الاقل المشير . لم يفكر فى نعمة الله التى مضت توغل فى الغربة والبعد حتى كاد ينكر المسكن تواجدهما معا تحت سقفه ، ومضى الى العيادة ، ولما رآه

الطبيب محسن زيان تساءل باسما

ـ من أجل الحب أيضا ؟

فأجاب بضيق وهو يشير الى رأسه

ـ من أجل الذاكرة ..

ففكر الرجل قليلا ثم قال :

ـ لو كنت تعيش فى بيئتك القديمة بين أهلك لساعدك ذلك على الشفاء ، ولوجدت فى معلم ما او شخص مايوقظك من نومتك الطويلة ، ولكنك مارست حياة تشجع على النسيان وتخاف اليقظة ..

فسأله يائسا :

ـ والعمل ؟

ـ لعل اصابتك عضوية ، ولعلها اكثر مما قدرت ، وفى هذه الحال يستحسن ان تستشير اخصائيا ، وربما احالك الى طبيب نفسى .

فقال بضيق :

ـ انه مشوار طويل .

ـ ويحتاج الى ارادتك فى جميع الاحوال ، وواضح ان صحتك ليست على مايرام وسأكتب لك بعض المقويات كخطوة اولى ..

ولبث فى العيادة حتى غادرها الطبيب للغداء فوقف قبالة مخلوف زينهم قائلا :

ـ انى مصمم على نيل عفوك ..

فقال الرجل ممتعضا :

ـ لا ثقة لى فيك ولا فى غيرك ..

ـ لا أحد يستحق الثقة كما قلت ولكن كثيرين يستحقون العطف ..

ـ أنكرتنى والشمس تشرق ورجعت الىّ وهى تؤذن بالغروب ..

ـ اغفر لى ذنبى ومد الى يدك ..

فهبطت حدته درجات وهو يسأله :

ـ ماذا تريد ؟

ذهبا معا الى المقهى ، فأرسلا الصبى لاحضار غداء من شوربة العدس ولحمة الرأس ، وجعل يحكى له ما استجد فى حياته من شقاء ، وختم حكايته بنصيحة الطبيب محسن زيان وكان يحدجه طيلة الوقت بنظرة كأنما تقول له « أرأيت عاقبة اهمالك لنصيحتى » . ثم قال .

ـ نهاية ابنى الشهيد معقولة اكثر من نهاية امثالك ولكن لافائدة من الرأى او المشورة ، الجميع مصممون على تكرار الاخطاء حتى ولو لم يداخلهم ادنى شك فى النهاية يستوى فى ذلك من فقد ذاكرته ومن لم يفقدها ، والان خبرنى علام عولت ؟

فقال عبد الله بضيق :
- طريق الطب طويل وباهظ التكاليف .
- وغير مجد فى هذه الحال بالذات ..
- والعمل ياعم مخلوف ؟ .. هل أزور الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية ؟
فقال بغضب :
- لا هو امام ولا الزاوية زاوية ، انه رجل جاهل عينته نعمة الله لخداع السذج ، وهى التى شيدت الزاوية من مال حرام للخداع ايضا ، انها لعبة مكشوفة ولن تجد عنده رأيا ولاشفاء عدا بعض السور الصغيرة التى كان يرتلها فى المقابر كلما جاء موسم دون ان يفقه لها معنى ..
فقال عبد الله بقلق :
- ولكنى اخشى عاقبة الاعلان عن نفسى فى الصحف ..
- معك حق ، فقد تكون أخطر مما تصورنا ، ولكن عندنا الشيخ كافور فهو من رجال الله ..
- أهو يستعين بالسحر والعفاريت ؟
فقال مخلوف زينهم بازدراء :
- إنى أتحدث عن كافور لا عن نعمة الله الفنجرى .
وكان كافور يقيم فى بدروم البيت الذى يقيم فيه رياض الدبش الكواء البلدى ، فبدا جو حجرته فى لون الغروب أو الفجر ، وعبق بشذا بخور طيب . وجلس الرجل فى الصدر على اريكة قصيرة الارجل على حين غطى سطح الحجرة بحصيرة مطموسة اللون . تربع مخلوف وعبد الله على الحصيرة امام الاريكة بلا استئذان ولا تحية ، وتفرس عبد الله فى وجه الرجل فلم يميز ملمحا من ملامحه ولا حتى لون وجهه . وقال مخلوف :
- هذا ابن ضال من ابنائنا يدعى عبد الله ..
فسأل صوت عميق هادىء رغم خفوته :
- ما اسم أمه ؟
- لا يعرف أما ولا أبا ..
فمد الشيخ يده فهمس مخلوف فى أذن عبد الله :
- ضع يدك فى يده .
فصدع بالأمر وهو يتلقى قشعريرة هيبة أو خوف . وسرعان ما سرت من راحة الشيخ اليه برودة لطيفة أنعشته فتركز فى اذنيه ، ومضت دقائق نسى فيها كل شىء حتى ماجاء من أجله كأنما امتص الرجل وعيه كله ثم تردد الصوت العميق الخافت قائلا :
- ستعرف ما تسأل عنه فى حينه بالتمام والكمال .

وسحب يده قائلا :

ـ اذهبا بسلام .

وغادرا المكان وعبد الله يراوح بين الأمل والخيبة . قال لصاحبه فى الخارج :

ـ ظننت اننى سأسمع أكثر مما سمعت ..

فقال مخلوف زينهم :

ـ كلامه بالقطارة ، ثم انك غير مؤهل لفهمه ..

ولما رجع الى الوكالة وجد نعمة الله تجالس شابا لم يره من قبل . شاب فى عز ابهة الشباب جميل الوجه رشيق القامة . فهم من مجرى الحديث أن الشاب يقترح فتح فرع للخردة فى الطرف الاخر من الحارة وانها تقترح عليه ان يكونا شريكين . ولفت انتباهه الحيوية التى تألقت فى نظرات المرأة وهى ترنو الى الشاب مما ذكره بالماضى السعيد الذى ذهب . وحانت منه التفاتة الى عبدون فرجلة فقرأ فى عينيه الحادتين فرحة شماتة صارخة فاشتعل قلبه بنار الغيرة . ومن موقفه الذليل مد بصره الى رياض الدبش وحلومه الجحش فطالع السخرية مجسدة فلم يشك فى وساوسه . واقترحت عليه شياطينه حلا داميا ولكن ضعفه المتصاعد أخجله . ولم يتبادلا فى نهار العمل كلمة . ولما أويا الى مسكنهما دعاها الى المجلس واعد بنفسه القرفة والزنجبيل والمخدر . توقع ان تتعلل بعذر ما ولكنها استجابت له فى برود وفيما يشبه التحدى . اضطرب لذلك اكثر مما سر . وزحف عليه خوف مجهول غاب عن الحاضر المتاح تماما . واكتشف ان ضعفه بات عجزا كاملا . سحب نفسه الى طرف كنبة واسترق اليها نظرة منكسرة وتمتم :

ـ انه الحزن وانت السبب ..

فقالت ببرود :

ـ انى بريئة والحزن برىء !

فقال بصوت متهدج :

ـ حديثك مع الشاب قتلنى ..

ـ ما مر يوم الا استقبلت فيه أشكالا وألوانا من الشباب

ادهشه صدق قولها وقال معتذرا :

ـ لعلى مريض .

فقالت بثقة :

ـ ألحق انك انتهيت !

سرت الحقيقة فى ذاته كالسم فلم يشك فى انه انتهى :

وان حياته فى جوارها توشك ان تنتهى ايضا . ولكن كيف يمكن ان تتنكر له بعد ذاك العهد الطويل من المعاشرة الحميمة والعواطف المتأججة والحب العميق المتبادل ؟! . ماذا تقول وماذا تفعل ، وألا يخونها القول او الفعل !. اى كلمات لم

تسمع من قبل سيشيعه بها هذا الفم الملىء بالرغبات والحزم ! وتسلل اليها بنظرة خجلى مشفقة فبوغت بالتغير كأنه زلزال منقض بلا نذير . ها هو وجه جديد يطالعه بلا تردد ولا حرج ولا مبالاة . يتجسد فيه الرفض والانكار والقسوة . كأنما لا ماضى له ولا ذكريات . ولا وجدان ولا ضمير . ولا ذوق ولا حياء . ذهل وفزع فتمتم :

ـ شد ماتغيرت يانعمة الله !

فقالت ببرود :

ـ لقد تغيرت أكثر يا عبد الله ..

فتساءل بأسى :

ـ وكل شىء كأن لم يكن ؟

فهتف حانقا :

ـ إنكْ اقسى مما يظن أعدى أعدائك .

فقالت ساخرة :

ـ بل إنكم لا تفكرون الا فى أنفسكم ..

ـ أليس للحب حق ؟

فقالت بنبرة ختامية :

ـ اذا مات فلاحق له ..

ونهضت متبرمة فمضت الى الخلوة واغلقت الباب بقوة ..

لبث وحيدا مع برودة اخر الليل واليأس . احتدمت الخواطر برأسه كفقاعات الماء المغلى فازداد يأسا وتسليما بالواقع . وبدت له أحلام سعادته كذبة فاجرة قاسية . ومن شدة العناء والارهاق هرب فى النوم ساعة واحدة . وفى الصباح الباكر هجر البيت متلفعا فى عباءته ، حاملا بيسراه حقيبة متوسطة الحجم . كانت الشمس ترسل اول طلقة من أشعتها الدافئة . والحركة تدب فى الجنبات . فتحت نوافذ وابواب وتتابعت افواج الخلق . سار بخطوات وئيدة تغشاه مخايل الرجل رآه اول من رآه عبدون فرجلة فرماه بنظرة دهشة خلت من الحقد لاول مرة وسأله

ـ أأنت راحل ؟

فأجاب باقتضاب :

ـ استودعك الله ..

وترامت عبارته الى اقرب الجيران فقال رياض الدبش دون مبالاة :

ـ مع السلامة !

وتمتم حلومة الجحش :

ـ ياخسارة !

واثار رحيله اهتماما مؤقتا وشاملا . ورغم ارهاقه كان يرى ماتقع عليه عيناه بوضوح شديد فكأنه يراه لاول مرة فمازج نفوره خنين غامض . واعترضه عم مخلوف زينهم أمام الزاوية فتوقف دون أن يبتسم . سأله الكهل برقة :

ـ أأنت ذاهب حقا ؟

فحنى رأسه بالايجاب فسأله :

ـ إلى أين ؟

فأجاب دون مبالاة :

ـ لا علم لى بشيء ..

ـ بوسعك ان تبقى حتى تسترد ذاكرتك .

فقال بمرارة :

ـ لا أستطيع ، وقلبى يحدثنى باننى لن أعرف شيئا مادمت هنا .

فربت الرجل منكبه بحنان وقال مسلما :

ـ فى رعاية الله ..

ووصل المسير تتابعه الاعين من النوافذ والدكاكين والطريق . شيعته نظرات متضاربة من الحياد والشماته والكراهية والسرور والحزن . واصل المسير حتى غيبه المنعطف الاخير عن الحارة الى الابد .

فى أثر السيدة الجميلة

ذات صباح مبكر دافىء صادفتها عند منعطف البرج وليس فى الطريق غيرنا سوى الكناس . كنت قادما نحو المنعطف من ناحية وهى قادمة من الناحية المقابلة ويبننا أشعة الشمس المشرقة تحبو فوق الأرض الخضراء .

ألقيت نظرة عابرة فشدت بقوة باهرة لتستقر فوق صفحة وجه ذات مواصفات خاصة لا جدوى من وصفها . الجميلات كثيرات ولكن احداهن تخص بميزة سرية يتسلل منها إلى قلب ما نداء مبهم لا يقاوم . قوته الحقيقية فى الأمر الصادر منه ، وقوته الحقيقية ايضا فى الاستجابة الحارة إليه التى لا تفسير لها . من أجل ذلك وقعت أسيرا بلا معركة أو من خلال معركة لم أشعر بها قط . انشرح صدرى بقوة عجيبة ، واستسلم قلبى بلا قيد أو شرط ، كأنها غاية الدنيا وثمرتها النهائية ، هى ما أريد ، وما تعلو على جميع ما تعد به الدنيا من جاه ومال وسعادة . ونسيت شواغلى جملة ، وهموم اليوم والغد ، وما كنت ماضيا لأؤديه مما يمت بصلة لأسرتى أو عملى . تلاشى كل شىء ، ولم يبق الا هذه الصورة العذبة المتوجة لجسم رشيق يمضى بها فى مشية معتدلة هادفة على ميعدة أمتار وانا فى أثرها مركز الوعى فى حركتها اللدنة المتتابعة . وهالنى وأثقل مهمتى هالة الجدية التى تكسوها ، ورصانة الخطو التى تحملها بعيدا عن ألفة المرح وأمل القرب . ترى ماذا أبغى ؟ .

ولكننى أبغى شيئا محددا ولا أملك خطة واضحة . المسألة بكل بساطة اننى عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب .

انه أمر خطير فى الواقع . ليس لهوا أو عبثا ولكنه فقدان كامل للذات ، واندفاع اهوج فى سبيل جديد لم يلج من قبل فى جدول أعمالى ، ضعت بالطول والعرض واصبح الماضى كله فى خبر كان . وبعد مسيرة دقائق مالت الفتاة – أو المرأة – إلى المستشفى ودخلت فواصلت سيرى أمتارا ثم توقفت تحت شجرة . أتعمل فى المستشفى أو تعود مريضا ؟

لم أفكر فى الذهاب على أى حال ولا فى التخلى عن أن أكون ظلا لها .

وتذكرت فى فترة الانتظار حريتى وبأنه لايمكن ارجاع الزمن خطوة والافاقة من هذه السكرة الغامرة ؟ !

ومن شدة شعورى بالأسر دعوت ارادتى أن تمدنى بالرعاية الواجبة ، ووردت

على ذاكرتى تجربة سابقة متشابهة ولكنها بعيدة عن التطابق .
ثمة سحر كاش ، نفثته نظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة جنون طال وفعل بى مالا يقال ، ولكن التجربة الجديدة ، رغم ذلك ، جديدة تماما وغير مسبوقة بنوعها ، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها الا «بروفة» باهتة . ومر وقت ثقيل قبل أن تغادر المستشفى مقبلة نحو موقفى ماضية فى طريقها . ولدى مرورها بى تلقيت نظرة عابرة فلم أدر ان كانت تذكرتنى أم لا ، وذهبت مجللة بجديتها ومناعتها وفتنتها الغامضة ، ساحبة اياى وراءها .
وانقضت حوالى نصف ساعة قبل أن يتراءى لنا ميدان التحرير . وصاحبنى تساؤل دائم عن جدوى اصرارى أو معناه أو الهدف منه ، ولكنه لم يقلل من حدة نشاطى المندفع . وساورتنى احتمالات ممكنة كأن تستقل سيارة فتغيب عن أفقى ولكننى لم انثن عن السير . وأظنها على وعى ما بمتابعتها ولكنها لم تبد عن أى ردة فعل ، فضلا عن أنها لا يعتريها تعب أو ضجر . وقلت لنفسى ان محاولة التعارف خطوة لا بأس بها ، وربما تمخضت عن جديد ، وهى على أى حال خير من السير الأخرس . وأسرعت لألحق بها ، وهممت بالكلام عندما أقبل نحوها رجل قوى البنيان فخم المنظر وهو يهتف متهللا :
ـ أشرقت الأنوار .
تصافحا بحرارة فواصلت السير حتى وجدت مأوى قريبا وراء حجرة تفتيش كهربائية . وراقبت انهماكهما فى حديث غير مسموع . وأشار الرجل إلى محل « باباز » فمضت برفقته إليه ثم اختفيا داخله .
أنتظر أم أدخل ؟ .
لبثت فترة تمزق وحيرة ، ثم اقتحمت المحل كأنما أبحث عن شخص ما . وجعلت أجول فى الأركان ببصرى ، فرأيتهما جالسين حول مائدة ، أمامها زجاجة ببيسى وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية وتبادلا حديثا حول التلاوة ، فى الغالب ، فدون الرجل بعض الملاحظات ، ثم صفق داعيا الجرسون فأسرعت إلى الانتظار فى الخارج وخرجا فى أعقابى ، فتصافحا أمام المحل ، أما الرجل فرجع إلى الداخل وأما المرأة فسارت نحو شارع خيرى . وفى الحال تحركت فى خطى المرسوم .
وبعد مسيرة دقائق انحرفت نحو دكان ساعاتى فوقفت تحت شجرة مستقبلا حرارة متصاعدة وأصواتا متضاربة وزحمة تنقض ما بين مركبات وآدميين وكأنما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال .
وغادرت المحل بعد ربع ساعة فتواصلت المطاردة المحمومة الخفية .
كيف يتأتى لى أن أهمس فى أذنها بما أريد وسط هذا الانفجار الآدمى الآلى الذى يتعاظم بين دقيقة وأخرى تلهبه أشعة الشمس والانفاس الحارة ؟ رأيتها

تتجه نحو « البنك الأهلى » وتغوص داخله فتوقفت فى ضيق شديد ثم دخلت وراءها متعللا بفك ورقة مالية . لمحتها تقف أمام شباك لعاه لصرف الشيكات ثم تقف جنب أريكة مكتظة تنتظر . ولبثت واقفا ، ولكننى خفت آن أثير ريبة فذهبت خارجا وانتظرت أمام بياع جرائد ومطبوعات رحت أتفحصها وأراقب باب البنك فى الوقت ذاته . حتى متى أستطيع اتقاء الشعور بالتعب ؟ .

ها هو الوقت يمضى فى توتر أعصاب وتصلب عضلات . ثم تلوح فى باب البنك بشموخها الفطرى فيخفق فؤادى بارتياح عابر عميق . اتبعها متجدد النشاط متحين الفرصة للالتحام بها ومهما كلفنى ذلك من مخاطرة . ولكنها مالت إلى السنترال . هذا مكان لايثير الوجود فيه تساؤلا آو ريبة . دخلت بجرأة وانتظرت قريبا من المدخل أتابع سعيها لطلب رقم ما . وسمعت العاملة وهى تقول لها « رقم ١١ » ، رأيتها وهى تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها . ترى ألم يفتن بها سواى ؟ أى قضاء قضى به علىّ هذا الصباح ؟ ثمة تعب خفيف بدأ دبيبه فى ساقى وهناك شبح الاحباط أيضا . وظل الشك المؤرق . ويوجد أيضا شعور قائم بتفاهة كل شىء خارج نطاق المغامرة المجنونة . ها هى خارجة من المقصورة بوجه مورد بالرضا . تحرك .. تحرك ..لا لايجوز التراجع بعد ما كان .

لعلها نسيتنى تماما ولكن لا محيد عن السير . بلغ ركابنا شارع طلعت حرب فبلغ الزحام والحر أشده . لا فرصة ألبتة للمناورة . أسبقها مرة وأتأخر عنها أكثر الوقت لعلها تتذكر رجل البرج . لم أتمكن من قراءة أصابعها أهى متزوجة ؟ مخطوبة ؟ حرة ؟ . وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيا جانبا ، وتوقفت مائلا نحو باب عمارة . ما أجمل ابتسامتها وأرشق اشارتها . وانتهى اللقاء فواصلت سيرها مارة أمامى لمحتنى مافى ذلك شك . وكرد على ذلك زادت من سرعتها ومن جديتها . وأعود للتساؤل عن معنى ذلك . لكن لا حيلة للعقل فى الموضوع كله . أو لعله يقرنى على سلوكى طالما أجد فيه أملا أو سعادة . يقول لى استمر اذا شئت ولكن لا تتورط فى خطأ . وأصبح الشعور بالتعب واضحا . وعرجت إلى شارع البورصة المكتظ بالسيارات الواقفة على جانبيه . ويقل الزحام هنا لدرجة تغرى بالجرأة . دون تردد أحث الخطى حتى أحاذيها فوق الطوار .

أنظر نحوها فتتلقى نظرتى بعين متحفزة . أقول :

ـ هل ..

ولكنها تقاطعنى بصرامة :

ـ احترم نفسك ..

ـ أود أن أتشرف ..

ولكنها لم تسمعنى غالبا لاندفاعها إلى الأمام . انه رفض صادق . تكاثف الاحباط والشعور بالتعب .

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة . لكننى لم أستطع . انه حكم مؤبد فيما بدا . ورأيتها تدخل مكتبة الفجر الجديد . دخلت وراءها مطمئنا كما دخلت السنترال . ورحت أقلب عينى فى الكتب وأسترق النظر .

امتدت يدها البضة القمحية إلى كتاب « القوى الخفية » . ابتسمت رغم القهر ، وتناولت نسخة تحية لها . ثم تبعتها إلى الخارج كالمنوم . ودخلنا أيضا صيدلية واضطررت إلى ابتياع حق اسبرين . بدأت قدماى تشكوان . توسطت الشمس السماء . عجبت لطول ما انقضى من النهار . ولم أجد أمامى إلا الحظ فلعنته وتساءلت على وجه من أصبحت اليوم ؟

وعبرتنى عتمة الهواجس فلم أدر كيف وصلنا إلى شارع التحرير . ورأيتها ماضية نحو مطعم « الشامى » فسرعان . ما نهشنى الجوع . وبجرأة اخترت مائدة مقابلة لها . ودون مبالاة غادرت مائدتها إلى أخرى فى أعماق المحل . صفعة متوقعة على أى حال . وأمرت بطبق شاورمة مع السلطة الخضراء . وختمت بفنجان قهوة وانا أرقب مدخل المحل بعناية وغزتنى رغبة فى الاستلقاء وعلى عكس ما قدرت استفحل احساسى بالتعب . ولما رأيتها تتهادى خارجة قمت من فورى فتبعتها . وتريثت أمام محل أثاث لترى فى مرآة معروضة الطريق وراءها . ورأتنى بلاشك ، وواصلت سيرها فى حالة تنطق بالغضب والاحتجاج . وصدرت إليها اشارات من سيارات عابرة تدعوها للركوب فتجاهلتها ومضت فى شموخ منيع . المصيبة أنها لا تكل ولا تمل ولا توحى بقصد هدف محدد . على الأقل هى تعلم أما أنا فلا أعلم بحتى اليأس القاطع تمنيته . وعثرت بشىء فوق الطوار فكدت أفقد توازنى وارتطمت برجل قذفنى بجملة كالطعنة « فتح عينك » .

وانضاف إلى الارهاق العام احساس بالظمأ ورغبة فى افراغ المثانة وبألم نصفى فى الرأس . وثمة تساؤل مقلق هبها استجابت فماذا عندى لأقدمه ؟ . لماذا يتمادى فى الجنون بلا طائل ؟ ورأيتها تتجه نحو حديقة « ليتون » فتجدد أمل مبهم . ووجدتها تمضى إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء ، وتستقبل بمناورة بالغة . آثرت فى الحال أن أنتظر فى الخارج لشدة الزحام ، ولكن حتى متى أنتظر ؟ ما بى قوة والصبر يتلاشى بسرعة . وتذكرت العمل الذى كان على أداؤه والمواعيد التى أخلفتها ، والرسائل التى كان علىّ تحريرها . ولكن ماجدوى الندم . واشتد ضغط المثانة جلت بنظرة زائغة . اقتربت من سيارة واقفة . انهارت قوى المقاومة . استسلمت وأنا أتلفت . وعندما أخذت أزرر البنطلون غمرنى ظل رجل طويل ، مكفهر الوجه ، صاح :

- على السيارة ياوقح !

رمقته بعين خجول معتذرة ولكنه دفعنى بغضب فترنحت فاقدا صوابى ، وبغير تقدير للأمر لطمته ، فما كان منه إلا أن انهال علىّ ضربا حتى تركنى على أسوأ

حال . جعلت أمسح وجهى بمنديل وآجفف به دما سال من أنفى ثم أسوى رباط الرقبة والسترة . أصبح منظرى زريا ، وتضاعف تعبى وضعفى . علىّ الآن أن أذهب بلا تردد . غير أننى لم أتحرك . حملت تعاستى ووقفت على ساقين تئنان من التوجع . مازلت أنتظر وأناجى جنونى البين . وتهادت إلى سمعى أغنية « الزهر فى الروض ابتسم » فتابعتها بأسى لايناسب معانيها بحال . وخطر ببالى بيت أبى العلاء :

فسلم إلى الله ربك   فكل ما جاءك من عنده

غير اننى فكرت فى اغتيال الرجل الذى انهال علىّ ضربا ، ولعلها أنسب نهاية لرحلة سخيفة عقيمة لامعنى لها . وانتبهت منزعجا إلى ما حولى وأنا أرى نذر المغيب تحدث بالوجود وتطوق جسدى الذى أنهكه السير وهاضته اللكمات . ولأول مرة أفكر جادا فى الاقلاع عن جنونى والرجوع من خيبتى القوية .

وهممت بالتحرك عندما رأيتها تغادر مدخل الحديقة وحدها وتتجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ريحان . توهج الأمل من جديد فى قلبى الذابل وتناسيت هواجسى وتبعتها وأنا أجر نفسى جرا ، وأحد من بصرى المنجذب إلى ظهرها لتكاثف العتمة . وقبيل نهاية الشارع بقليل فقدت ذاتى بغتة . لم أدرك قبل مرور ثوان اننى سقطت فى حفرة . زلزلت مفاصلى وفغمت خياشيمى رائحة ترابية عميقة لم أعهدها من قبل . ولم يبق منى على السطح الا عنقى ورأسى . حاولت الخروج ولكن خذلتنى قواى الخائرة .

وأرسل عينى صوب المرأة بآخر ما أملك من طاقة على اللهفة فلا أعثر لها على أثر . افلتت ارادتى وأشواقى وهيهات أن ألحق بها . الأمر يقتضى معجزة ان يكن ثمة مجال للمعجزات .

وانتظرت أن يقترب منى عابر سبيل لأستنجد به . وبلغ منى الاعياء غايته فأسندت رأسى إلى حافة الحفرة مستسلما إلى قدرى .

أم أحمد

لو رجعت إلى الذاكرة ما وجدت إلا صورا متناثرة لا تعنى شيئا . قمرا يطل من نافذة عالية ، أقمارا ثلاثة يخرجن من تحت القبو صفا واحدا ، حنطورا يتهادى فى الميدان بامرأة كالمحمل . الزمن القديم فى الحى العتيق ، لم يبق من حياته الحافلة إلا ما تعيه الطفولة . مناظر غائمة وأصوات غائبة وحنين دائم وقلب يخفق كلما حركته روائح الذكريات . ما كان أجدر ذلك كله أن يتلاشى فى ظلمة الماضى ، فلا يستطيع الحب أن يستنقذه من الموت ، لولا خالدة الذكر أم أحمد . قوية ، سمراء ، متحدية ، فى ملاءتها اللف ووجهها السافر وشبشبها الرنان وصوتها الغليظ النافذ ولسانها الذى لا يهمد ولا يعرف الحرج . بيتها كان يقع ملاصقا للشرفة التاريخية لبيت القاضى ، يصل إليه الزائر من ممر ضيق متصاعد متربٌ، فى جانبه كارو قديمة مركونة مهملة ، وأحيانا يرى حمارا واقفا يقتات التبن من مخلاة تطوق علاقتها عنقه ، كان يشدنى إلى مأواها العربة المهملة والأمل المثابر العنيد فى الالتقاء بالحمار الهادىء العذب ، وهناك أراها وهى تطهو أو تطعم الدجاج أو تتسلى بمشاجرة شفهية عابرة . فى شبابها اليافع ـ الذى لم أشهده ـ كانت زوجة لمعلم كارو .

أنجبت منه بكريها أحمد وزينب وسيدة وسنية . ولعلى لمحت الرجل وابنه مرة أو مرات كشيئين من الأشياء التى يموج بها الميدان التاريخى ، ميدان بيت القاضى ، ولكنى علمت مع الأيام ان المعلم قتل فى معركة بأرض المماليك وأن ابنه أحمد مات فى السجن . ولم أشهد أم أحمد فى حزنها ، حتى حين لحقت زينب بأبيها وأخيها لمرض فتك بها فى زمن متأخر نسبيا . كلا ، لا أذكر أنى رايتها باكية أو مولولة أو شبه يائسة ، ما عهدتها إلا متماسكة قوية ضاحكة أو محدثة . غارقة حتى قمة رأسها فى أعمالها . ومشروعاتها ، تعيش يومها وتبنى للغد . وأذكر قول أمى عنها "لولا قوتها الخارقة لأهلكتها الأحزان " ! وهو قول لم أع معناه تماما إلا فيما بعد ، فعلمت أن أم أحمد التى عرفتها ما هى إلا الثمرة الأخيرة لصراع طويل مع الألم كتب لها فيه النصر . فمنذ وجدت نفسها وحيدة توثبت بهمة صلبة للكفاح فى الحياة المتاحة حتى ظفرت بوظيفتها المرموقة فى الميدان والحارات المتفرعة عنه فباتت أشهر شخصية دون منازع . هى الخاطبة والماشطة وأخصائية التجميل والسعادة الزوجية ، وشقت طريقها إلى سرايات

الحى جميعا وبيوت الطبقة الوسطى ، إلى قيامها بمهام الصحافة والإذاعة والمخابرات ، وتحسنت أحوالها ، ثم توجت كفاحها بتشييد بيت لها من طابقين على كثب من قسم الجمالية . والحقت سيدة بالمدارس فصارت معلمة أما بنتها الصغرى وكانت أجمل إنتاجها كله فقد أحبها ابن الأسرة الساكنة فى الطابق الأول من بيتها وتزوج منها وأصبح فيما بعد من رجال التربية الكبار فى مصر . المهم أن أم أحمد جذبتنى بسحر حكاياتها عن الجيران ، وخاصة أهل الطبقة العليا ، وهى حكايات لا يعرف مدى الصدق فيها إلا الله ولكنها تحرك الشهية دائما لدورانها حول أولئك السادة الممتازين . ولم تنقطع أم أحمد عن زيارتنا عقب انتقالنا إلى العباسية ، فقد سبقنا أهل السرايات إلى العباسية الشرقية ، فانتقل المجال الحيوى لأم أحمد من حى الحسين إلى العباسية تبعا لذلك مؤصلة ممارسة وظائفها الساحرة . ولم تتوقف عن نشاطها حتى بعد أن تقدم بها العمر ، أو بعد أن ادت فريضة الحج وأمست الحاجة أم أحمد ، ولكنها اضطرت إلى لزوم دارها بعد أن زحف عليها العجز وضعف بصرها وقلت حركتها قبل رحيلها عن الدنيا فى ختام الثمانينات . ولا أزعم أنها أحسنت تعريفى بأفراد السادة والسيدات من أهل سرايات حارتنا ، ولعلها هى نفسها لم يتح لها أن تعرف حقيقتهم ولكنها اهتمت بعموميات لا بأس بها وبشئون مما يتصل بعملها ، وعلى أى حال فقد عرفت حقائق عن الأسر ككل كما عرفت أشياء عن مصائرها . وهى فى جملتها تعد ثروة هامشية تضاف إلى التجارب التى حصلها الإنسان بنفسه وحواسه وقلبه . ورغم ما عرفت به أم أحمد من صفات الغجر فقد حظيت بإعجابى لقوتها الذاتية وصلابتها وشجاعتها وذكائها وانتزاعها من الصخر الأصم مكانة مرموقة بين أرقى سيدات ذلك الزمان ، ولن انسى أيضا منظرها وهى واقفة فوق الكارو بين جارات لها فى إحدى المظاهرات الوطنية تهتف بصوتها المدوى لسعد ومصر .

وحارة قرمز ذات جدران حجرية عالية ، تغلق أبوابها على أسرارها ، ولا تبوح بسر إلا لمن ينظر فى داخلها ، هناك يرى ربعا آهلا بالفقراء والمتسولين يجمعهم الفناء للعمل المنزلى وقضاء الحاجات ، أو يرى جنة تغنى بالحديقة والسلاملك والحراملك . من نافذة صغيرة عالية قبيل القبو يلوح أحيانا وجه أبيض كالقمر ، أراه من موقعى فى نافذة بيتنا الصغير المطلة على الحارة فأهيم رغم طفولتى فى سحر جماله ، وقد أسمع صوته الرخيم وهو يبادل أمى التحية إذا خلت الحارة من المارة فلعله بث فى روحى حب الغناء ، فاطمة العمرى ، حلم الطفولة المجهول ، وموعد اللقاء النافذة ، وإذا توارت يوما فإنما لتلقننى الألم قبل أوانه . وكلما غابت حدجت أمى بنظرة عتاب كأنما هى المسئولة عن غيابها فتضحك طويلا وتحكى لأم أحمد عن العاشق الصغير فتتلقف الخبر لتزفه إلى فاطمة ثم ترجع إلينا برسالة

سعيدة أن أشد حيلى وأنها ستنتظر عريس الهنا مهما يطول الانتظار . ثم تقول
ـ ولكنك تعشق أمها أيضا فما حكايتك ؟

أمها ؟!. أراها أحيانا فى الحنطور وهو يتهادى بها فى الميدان ، وعيناها الجميلتان تطلان على فوق حافة البرقع الأبيض ، وجسمها المتمادى فى العظمة يملأ المقعد بتمامه . وتضحك أم أحمد ثم تقول لأمى :

ـ زينب هانم قالت لى إنها رأته (مشيرة إلىّ) وهو يتطلع إلى ما بين ساقيها المنفرجتين حتى اضطرت إلى ضمهما .. أيعجبك هذا ؟!

من هؤلاء الناس الذين ليسوا كبقية الناس ؟. العمرى ـ والعهدة دائما على أم أحمد ـ رجل قد الدنيا ، صاحب فابريكة النحاس ومحل بيع النحاس بالصالحية ، أصلهم من القدس ، والجد الكبير هاجر إلى مصر ليستثمر أمواله ، أنشأ فابريكة فى الخلاء قبالة الجبل ، ويوم حملت الآلات من محطة مصر إلى الفابريكة محمولة على الكارو تجمع الأهالى ينظرون ويسبحون لله القادر على كل شىء ، ومن يومها ما من عروس تزف إلا وتقتنى نحاسيا من محل العمرى . وآل الخير كله حسين بك العمرى زوج زينب هانم ، رشيد الرجل سراياه فى درب قرمز ، وأنجب فاطمة الجميلة وثلاثة ذكور .

وكانت زينب هانم وأمى يتبادلان الزيارة فتجىء الهانم وحدها دون فاطمة وتذهب أمى وحدها بدونى رغم توسلاتى الباكية . وبقدر ما كانت تعجبنى عينا زينب هانم إلا أن جسمها الضخم كان يخيفنى . ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة واحدة لا تعترف بالفوارق الطبقية . أجل لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراى ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع فى رمضان والأعياد ، يجلسون فى الحديقة ، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين . وكشفت أم أحمد عن جانب من دورها فى سراى آل العمرى فقالت إنه بفضلها استقرت الحياة الزوجية بين حسين بك وزينب هانم ، وبفضل وصفاتها النادرة تمادت المرأة فى العظمة حتى حاكت المحمل السلطانى . وقالت وهى تقهقه :

ـ وهى اليوم تضرب زوجها باليد والعصا !

وذهلت أمى فقالت أم أحمد مستدركة :

ـ بالدلال والحب !..

ليس كالضرب الذى نستعمله ! أى نوع من الضرب ذاك ؟!.

ـ وهذا اللحم الأبيض الذى تغوص اليد بين طياته الطرية من صنع يدى !

مرة أمرت الحنطور أن يتوقف حيالى وأنا ألعب فى الميدان ، ومدت لى يدا بضة بذراع مطوقة بالأساور الذهبية لتهبنى قطعة من الملبن بالقشدة فتناولتها فرحا متلقيا فى ذات الوقت مما ذقته من عبير جميل نافذ كأنه عصير مركز لحديقة

ورد . وكم شغفتنى زيارات الهوانم بهداياها اللطيفة اللذيذة .

ـ وودت أن أسرع فى تسمين فاطمة ولكن أمها أجلت إلى مابعد الزواج .

وتساءلت أمى عما يؤخر زواج الجميلة رغم بلوغها الخامسة عشرة فقالت أم أحمد :

ـ حسين بك مصمم على ألا يزوجها قبل الثامنة عشرة ..

ـ ولكنها سن متأخرة ياأم أحمد ..

ـ لحسين بك رأيه أيضا ولكن الاختيار ينحصر فى اثنين أحدهما وكيل نيابة والآخر طبيب ..

وأحسست على نحو ما بأن فاطمة ستمضى ذات يوم إلى بعيد مثل أخوتى وإخواتى ولن يبقى منها فى أحلامى إلا الشذا . حتى الطفولة المبكرة لم تخل من حسرات على أشياء جميلة ومحبوبة يترصدها الضياع والفناء . ودهمتنا ثورة ١٩١٩ ونحن ننعم بالهدوء النعسان . استيقظت بغتة على دوى الهتاف وفرقعة الرصاص ورأيت الألوف الغامضة . حتى أم أحمد رأيتها فوق الكارو تهتف . وزارتنا بعد أيام لتسأل إن كنا رأيناها . كانت تتيه دلالا بالعزة والنصر .

ـ سينصرنا الله على الإنجليز ويتم لنا الإفراج عن سعد .. وهى التى أبلغتنا بعد ذلك باعتقال حسين بك العمرى تمهيدا لتقديمه للمحكمة العسكرية الإنجليزية . ولكنه أفرج عنه فيمن أفرج عنهم عقب الإفراج عن سعد ، فرجع إلى حارة قرمز رجوع الأبطال . فرشت أرضها بالأكمة وتناوحت فى سمائها الثريات والأعلام ، وزغردت النساء من وراء المشربيات وتعالى هتاف الفقراء رغم ما فقدوا من أبناء . ووفت أم أحمد بنذرها فرقصت أمام باب السراى وهى تنشد "سلمى ياسلامة" . وحتى مأمور قسم الجمالية جاءه مهنئا بعد أن اعتقد الجميع أن الإفراج عن سعد ما هو إلا مقدمة للاستقلال التام ، وبعد فترة قصيرة حملت المرأة إلينا خبرا مزعجا وهو أن آل العمرى قر رأيهم على الانتقال إلى العباسية حيث اشتروا أرضا فضاء لإقامة سراى كبرى . وتساءلت أمى هل هان عليهم حقا أن يهجروا الحارة التى هى أصل الخير والبركة . فقالت أم أحمد بيقين :

ـ بعد عام أو عامين لن تجدى أسرة واحدة من أسر الأعيان فى الحارة ..

ياله من خبر !.. وكيف تكون الحارة إذا انطفأت أنوارهم ؟!

الدنيا تتغير بسرعة ، الأحياء الأفرنجية هى الموضة اليوم ، والعباسية مترامية الأطراف ، وفيها متسع للمستورين أمثالكم ..

ـ وتبعد عن الحسين ؟!

ـ سوارس تنقلك إليه فى نصف ساعة ..

وتحقق مع الزمن ما خطر لأم أحمد فانتقل الأعيان إلى العباسية الشرقية وشيدوا قلاعهم العملاقة ، كما انتقلت الطبقة الوسطى "المستورون" إلى

العباسية الغربية فسكن البعض بيوتا صغيرة واشترى البعض ما يناسبه . ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فسرعان ما تعرضت للوهن والتمزق . لأمر ما شغل كل فريق ببيئته الجديدة وكأن شارع العباسية الذى يفصل بين الجانبين أصبح سدا لا يعبر إلا فى الملمات وقد لا يعبر أبدا . عدنا غرباء أو كالغرباء ، بل صرنا مع الزمن أعداء أو شبه أعداء . وحمل إلينا الزمن أفكارا جديدة تكرس العداوة والانفصام ، وحتى الانتماء للحزب الواحد لم ينجح فى محو تلك الغربة الزاحفة . واعتدت أن أجعل من العباسية الشرقية مرتادى ونزهتى خاصة فى أصائل الصيف ، أتمشى فى شوارعها الواسعة وميادينها الأنيقة ، أقلب النظر فى القصور الشامخة والحدائق الغناء . وأتذكر أحيانا الجيرة القديمة الحميمة الصادقة التى تلاشت فى الفضاء ، وأتذكر الوجوه المليحة التى علمت القلب الحب قبل الأوان ، أتساءل ترى أين الآن أنت يا فاطمة ؟.. وهل خلق منك الزمن زينب هانم جديدة ؟. وجاءتنا بالأنباء فى حينها أم أحمد التى ظلت الرابطة الباقية بين الطبقتين المتباعدتين . حدثتنا طويلا عن تضخم ثروة حسين بك خاصة بعد الحرب ، وعن إشراك أبنائه الثلاثة معه فى المصنع والمحل ، وإصهارهم الموفق إلى أسر من طبقة الباشوات ، أما فاطمة فقد تزوجت من وكيل النيابة . ووجدتنى قد نسيت صورتها تماما فلم يبق فى خيالى إلا نفحة من جمال مجرد وصدى صوت رخيم شديد التأبى والتمنع على الذاكرة . وعلمنا أيضا بإصابة زينب هانم بمرض السكر وكيف استفحل معها المرض لعجزها عن الانضباط أمام إغراء الحلوى ، أجل فقدت الهانم بصرها فى الخمسينات ، ثم ماتت فى الأسبوع الأول لقيام ثورة يوليو . والحق أن الثورة لم تمس آل العمرى بسوء ، ولعله كان من حسن حظ حسين بك أن هجر الاشتغال بالسياسة عقب انشقاق السعديين عن الوفد ، غير أنه شارك أبناء طبقته فى خوفهم الثابت وقلقهم الدائم وشعورهم بإدبار الدنيا عنهم . وحديث أم أحمد عن السادة لم يخل أبدا من عطف رغم تعلقها بثورة يوليو وزعيمها . أحبت ثورة يوليو كما أحبت ثورة ١٩١٩ ولكن حبها لزبائنها القدامى لم يفتر أبدا ، وهى التى قالت لنا يوما بجزع واضح :

ـ أما سمعتم عما حدث لزوج فاطمة هانم العمرى ؟

آه .. فاطمة الجميلة ، ماذا حدث لزوجها ؟

سافر المستشار فى رحلة قصيرة إلى سويسرا ، وهناك قابل أحد رفاق صباه وكان هاربا من عبد الناصر ولا يكف عن مهاجمته ، ولما رجع المستشار إلى مصر دعى لسؤاله عن مقابلاته لصديقه القديم ، ثم لم يظهر له أثر بعد ذلك .

لعله مازال معتقلا ؟

ـ أبدا .. قيل لهم إن سؤاله لم يستغرق إلا ساعة أطلق بعدها سراحه ..

ـ لعله وقعت له حادثة فى الطريق ؟

ـ وهل يصعب الاستدلال على شخصية مستشار قد الدنيا ؟!
ويسود صمت ثم تواصل أم أحمد :
ـ فاطمة هانم تؤكد أنهم قتلوه ودفنوه فى أى خلاء وانتهى الأمر .. اليوم ـ وبعد رحيل أم أحمد عن الدنيا فى الثمانينات ـ لا أعرف شيئا عن آل العمرى ، ولعله لا يهمنى أن أعرف شيئا . ولكنى قرأت هذا العام نعى فاطمة الجميلة فى الأهرام لم يمض الخبر بلا حزن ولكنه حزن من نوع خاص ، لا كالحزن على الأقارب أو المعارف أو الأصدقاء . إنه حزن يتأدى كأنه شعيرة تتلى فى محراب الوجود على لا شىء أو على كل شىء . ثم قرأت عنها رثاء جميلا فى إحدى المجلات النسائية بوصفها من رائدات رعاية الطفولة ، تلك الرعاية التى بدأتها بتلقائية معى فحفرت أثرها الطيب فى أعماق قلبى .
وآل سعادة بعد آل العمرى يومضون فى غياهب الماضى . تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثرى العتيق . هناك يطالعك جدار عال مركب من أحجار كبيرة تاريخية ، أما مدخله فيفتح على عطفة جانبية . ورؤيتى لآل سعادة تتم عادة وأنا فى الحارة عندما يخرجون من جوف القبو فى طريقهم إلى ميدان بيت القاضى ، تنطق وجوههم المشعة بأصولهم الشركسية . هذا عبدالحميد بك سعادة رب الأسرة بقامته العالية وعوده النحيل ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وعينيه الزرقاوين وأنفه الحاد الطويل المقوس ، يرفل فى بدلة أفرنجية وعمامة بيضاء ، متوكئا على عصا سوداء ذات مقبض ذهبى . صارم النظرة ، متعالى الهيئة ، ينظر أمامه ، لا يعنى بما حوله . يبث حيث يسير الخوف فيستقبله الاحترام وتتبعه الكراهية . وهذا بكريه الشاب فاضل سعادة ينور المكان بلمعانه وبسحره بأناقته وحسنه وثيابه الفاخرة . وهؤلاء بنات سعادة الثلاث ، بين الطفولة والصبا ، جميلات فاتنات ساحرات ، يسرن صفا إلى الميدان لشراء الشيكولاته والدندورمة ، يذهبن بلا مرافق ويعدن بلا مرافق غير مباليات بتقاليد الأسر الكبيرة والمتوسطة ، وجمالهن يشفع لهن عند الرأى العام الرافض لتعالى الأسرة وعزلتها ، أما ربة الأسرة فلا ترى أبدا راكبة أو راجلة ، دائما معتصمة بالقلعة وراء الجدران والستائر . كم ولعت عيناى بالجميلات الثلاث وخصوصا الصغرى ، وكم حلمت بأن ألعب معهم تحت القبو أو فوق السطح ولكنهن كن يذهبن بسرعة الأحلام ويبقين فى النفس بقوة الخيال . وآل سعادة يمثلون البطالة المستغنية عن العمل ، المعتمدة فى معيشتها على الأوقاف ، يقضى الأب وقته بين الكلوب المصرى والمقاهى الكبرى فى وسط المدينة . ويقنع فاضل بالحصول على الابتدائية ، ولا يشك أحد فى ثرائهم الكبير إلا أم أحمد التى تقول وتعيد :
ـ إنهم أصحاب أصل ولكن ثراءهم دون ما يظن الناس بكثير ..

وعزلة ربة البيت ليست نتيجة للتقاليد أو الكبرياء وحدها ولكنها ردة فعل لحزن عميق ..

ـ الحزن ؟!

تتساءل أمى فتقول أم أحمد :

ـ الرجل طول عمره عينه زائغة !.. وذوقه قذر لا كمظهره .. يجرى وراء الخادمات والساقطات ، وزوجته والحق يقال بنت ناس وآية فى الجمال !.

ـ وطبك المجرب ياأم أحمد ؟

ـ منع الطلاق ولكنه لم ينج من القدر ، وقد جربت سلطانة هانم الرشاقة ثم نفختها حتى فاقت زينب هانم فى الحجم ولكن المكتوب مكتوب .

وتتفكر قليلا ثم تواصل :

ـ ولكنها انتقمت من الرجل وهو لا يدرى ، فخانته كما يخونها ..

ـ ولكنها لا تغادر القلعة أبدا !

فتقول أم أحمد مقهقهة :

ـ لا يتعذر على اللبان أن يتنكر فى زى امرأة ويندس إلى الحريم .

وفاخرت أم أحمد بأنها الوحيدة فى الحى التى تصافح عبدالحميد بك سعادة والتى يقول لها دون تأفف : كيف حالك ياأم أحمد .

ولعلها الأسرة الوحيدة التى شهدت ثورة ١٩١٩ من بعيد دون اشتراك من أى نوع كان .

وبعد أشهر من قيام الثورة توفى عبدالحميد بك ، ولم يشيع جنازته سوى نفر من ذوى القربى وشيخ الحارة ولم يشترك رجل أو امرأة من حارتنا فى العزاء . ولمحت البنات الثلاث وهن يبكين فى نافذة ففاضت دموعى . وسرت وراء المشيعين القلائل حتى جامع الحسين . ولم يكن شىء يثير خيالى وأفكارى مثل الجنازات ، وشهدت جنازات معدودة لشبان الحارة الذين استشهدوا فى أوائل الثورة ، وصدقت حرفيا الهتاف المعروف "فلان حى لم يمت" وكنت أتوقع أن أراه يعجل ويسير كما كان يفعل من قبل ، وتساءلت عن ذلك دون جدوى . وعلى أى حال حل فاضل مكان أبيه ، وما لبث أن هاجر إلى العباسية ، ولكنا سمعنا أن الأسرة اشترت بيتا فوق المتوسط بغمرة ولم تشيد قلعة جديدة فى العباسية الشرقية ، فتبين لنا صدق رأى أم أحمد فى درجة ثرائهم . انتقلت الحارة إلى العباسية ولكن لتعيش فى دويلات مستقلة . ولولا أم أحمد ما عرفنا بزواج فاضل من كريمة وكيل الداخلية .

رضى به زوجا لابنته بعد أن رفض يد طبيب فلاح !

وتزوجت كبرى البنات من صائغ غنى بالصاغة ، والوسطى من وكيل نيابة ، أما

الصغرى وهى أحبهن إلى قلبى فقد عشقت موظفا بسيطا وأصرت على الزواج منه رغم معارضة الأم والأخ وبقية الأسرة ، وقد أقامت معه فى بين الجنائن لا يفصلهما عن بيتنا إلا خطوات ، وهى الوحيدة التى كنت أصادفها فى الطريق فنتبادل نظرة عابرة ولكن مترعة بذكريات الماضى .. وقدر لى أن أرى بكريها الجميل وهو يلعب فى الشارع أو فى الحدائق التى تكتنف الحى وتسكب عليه عبيرها ، وطبعا لم أتصور المستقبل المثير الذى كان ينتظره بمنحنى التاريخ . ولما قامت ثورة يوليو مرت بآل سعادة بسلام ، بل حل الوقف وأصبحوا أحرارا فى التصرف فى أملاكهم . وعلمت أن الصبى الصغير ابن البنت الجميلة الصغرى من الضباط الأحرار ، بل والمقربين . واختير لوظيفة فى المخابرات وسرعان ما جرى اسمه على كل لسان ، واكتسب سمعة مخيفة لا تكون إلا لشيطان !. وجعلت أقارن بين ما يقال عنه من حقائق وأساطير وبين صورة صباه الجميلة الوديعة وأتساءل وأتعجب . ورحت أسأل أم أحمد عن رأيها فى ذلك فأرسلت قهقهتها العظيمة وقالت :

– صدق من قال إن الأتراك فيهم عرق جنون ..

وكانت أسرته قد انتقلت بعد الثورة من بين الجنائن إلى المعادى ولم أعد أرى من أفرادها أحدا ، ولكن أم أحمد حدثتنا عن استقالة الأب من الحكومة ليشغل وظيفة فى شركة وأنهم يتوغلون فى العز والجاه بسرعة الإكسبريس . وعلى أى حال فقد اندمج آل سعادة أخيرا فى الوطنية المصرية ، بل الوطنية الثورية .

★ ★ ★

إلى يسار قلعة آل سعادة ، وعلى مبعدة خمسين مترا تقوم سراى آل البنان . أرى على بك البنان كل يوم فى دوكاره وابنه الصغير محمد صديقى وزميلى وربة السراى فردوس هانم حبيبة أمى وأقرب الجميع إلى قلبها . وعلى بك طويل القامة غامق السمرة ذو مظهر جذاب فى جبته وعمامته البيضاء ، يمضى به الدوكار كل صباح من السراى إلى الطاحونة فى مرجوش . هو أتقى الأغنياء بالحارة وأبرهم بالفقراء وأجودهم بالابتسامة ، وفى سراياه يقام ذكر كل أسبوع يؤمه جمع من أهل الطريقة الشاذلية وتقول عنه أم أحمد .

– على بك غنى وما غنى إلا الله ..

ثم ترجع إلى التاريخ بصوت منخفض قائلة :

– كان أبوه يسرح باللبن على باب الكريم ، وفتح دكانا صغيرا فى الخرنفش ، وقامت الحرب فأمر الله بالثراء ولا راد لأمره .. ومات الأب فأنشأ سى على الطبونة ، وشيد السراى ، وتزوج من فردوس هانم بنت أكبر حلوانى فى الحى وأنجب البنات كالأقمار ، ثم جبر الله بخاطره فأنجب محمد على كبر .

أهل حارتنا لا فرق فيهم بين غنى وفقير وهم يعترفون بفضل الله عليهم ولا

يتنكرون لأصلهم ودعك من آل سعادة فهم مجانين من ذرية مجانين ..

محمد الصغير كان قرينى فى اللعب فى الميدان وفى قطف ذقن الباشا من أشجار البلح . ودخلنا الكتاب معا فمكث فيه عامين أكثر منى لينقطع بعد ذلك عن التعليم ويمارس العمل فى الطاحونة والمحل تحت رعاية أبيه ، بدأ العمل مباشرة فى العاشرة ، وقرر على بك أن يشعره بالرجولة قبل مجيئها فألبسه الجبة والعمامة وعامله بجدية تفوق ما يحتمل عمره . وأذهب إلى مرجوش كلما سنحت فرصة لأشاهد صديقى من بعيد وهو يعمل فتتبادل البسمات الخفية بعيدا عن أنظار أبيه . وعند فراغه من عمله يرتدى جلبابه ويهرع إلىّ فى الميدان لنلهو بألعاب الصبيان . ولما قامت ثورة ١٩١٩ شارك على بك فيها بماله وقلبه ولسانه ، واعتقل فى يوم واحد مع حسين بك العمرى ، ولكنه واصل نشاطه السياسى بعد ذلك حتى انتخب عضوا فى أول مجلس نواب بعد الثورة . وحافظ على عضويته فى جميع البرلمانات الوفدية حتى آخر برلمان قبل ثورة يوليو . وعقب الثورة انتقلت الأسرة إلى سراى جديدة بالعباسية الشرقية ، وزوج الرجل ابنه محمد وهو ابن خمسة عشر عاما ، وأحيا فرحه صالح عبد الحى وبمبه كشر .

ولم ينقطع ما بيننا وبين آل البنان بالسرعة التى انقطع بها ما بيننا وبين الآخرين ، ولكنه انقطع على أى حال . والظاهر أن روح الألفة والتضامن المنبثة فى الحارة تتلاشى فى الأحياء المترامية . إلا تراث أم أحمد من الخدمات والأساطير فهو باق لا يقتلع من صدور الناس على اختلاف طبقاتهم . ويكتسب أهميته المتجددة من ينابيع الحب والجنس والأحلام الخالدة . وهى أم أحمد التى أخبرتنا على المدى بزيجات بنات البنان ، واحدة من محام ، والثانية من مهندس رى ، والثالثة من وكيل وزارة ، وأن الأولى شهد زفافها سعد زغلول كما شهد زفاف الأخريين خليفته مصطفى النحاس . ولكن المجتمع تغير فى علاقاته وتياراته وأفكاره ، واحتدم الجدل والخصام بين أجياله ، حتى قامت ثورة يوليو لتواجه التناقضات الجديدة قبل أن تجتاحها ثورة شعبية جائحة . ووجد على بك البنان نفسه فى مرمى مدافع التغيير الثورى ، وحمل من سراياه إلى أعماق السجون وهو لا يدرى لذلك سببا ، ثم وضع تحت الحراسة ، فران على الأسرة ستار أسود من الحزن والغم ، وانفجر شريان فى رأس الرجل فرحل عن الدنيا مستعيذا بالله من الناس وشر الناس ، على حين انزوى ابنه محمد فى ذعر مقيم . وتصورت أم أحمد أن تلك الأحداث يدبرها رجال عبد الناصر من وراء ظهره وتمتمت متنهدة :

ـ عينى عليك ياعلى بك ياأمير وعلى أيامك الحلوة .

ولحقت فردوس هانم بزوجها بعد رحيله بعام ، ولكن محمد البنان استرد نشاطه فى عهد الرئيس السادات ، وعاونه الانفتاح فعوض خسائره وضاعف

ثروته ، بل وتردد اسمه فى صحف المعارضة باعتباره من وحوش الانفتاح ، فأى حياة وأى سخرية من عجائبها !

* * *

آل المردانى يشكلون الأسرة الرابعة من أعيان الحارة . وتقع سراياهم عند طرف الحارة الآخر المتصل ببين القصرين . وتقسم أم أحمد أنها رأت أباه المردانى الكبير يتجول فى الحارة حافيا .

- ولكنه الحظ والشطارة والحرب ..

على أى حال نشأ عباس بك المردانى من كبار تجار الجملة فى العطارة ، وهو الذى شيد السراى التى تعتبرها أم أحمد أجمل وأفخم سرايات قرمز ..

- أما زوجته فرحة هانم فهى من أصل مملوكى ، جميلة وما جميل ألا سيدنا محمد ..

فتقول أمى :

- جميلة نعم ولكنها لا تخلو من عنطزة !

- المال كثير ياحبيبتى ..

- أهم أغنى من البنان ؟

- عباس بك المردانى أغنى رجل فى الحارة .

وتسكت مليا ثم تواصل :

- لم ينجب إلا ولدين وانقطعت الهانم عن الحبل لداء احتار الأطباء فيه !

- وماذا فعلت أنت ياأم أحمد ؟

- فعلت الكثير ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ..

وكان عباس بك ضخم الرأس والوجه ، غليظ القسمات ، بدينا لحد الإفراط ولكنه كان كريما محسنا وابن نكتة ، وكان سلاملك سراياه صالونا للظرفاء وذوى الحناجر الطيبة من الهواة وصغار المحترفين . ولما قامت ثورة ١٩١٩ أيدها بماله ولكنه لم يكن ذا استعداد للاشتراك فى الشئون العامة مثل حسين بك العمرى وعلى بك البنان . واقتحمت الثورة سراياه وهو لا يدرى فانتزعت منه بكريه محمود الطالب بالزراعة العليا حيث قتل فى إحدى المظاهرات . وقالت أم أحمد :

- لم يبق له إلا شاكر ، وكثيرون ينصحونه بالزواج من أخرى ..

- مسكينة فرحة هانم !

- وحزنها فاق كل حد ربنا يصبرها ..

- وانتقل عباس بك المردانى إلى العباسية الشرقية كآخر الأعيان المهاجرين ، ولولعه الشديد بالهانم زوجته نبذ فكرة الزواج من أخرى ، وكان أول من اقتنى سيارة .. "فيات" من الأعيان ، وكانت تثير الخواطر إذا مرقت فى شارع العباسية فى ذلك الزمان بسحرها الخاص وأزيزها الذى يكدر الهدوء الشامل .

وانتهت حياة عباس بك نهاية درامية مأساوية فى الثلاثينات وهو فى غاية الصحة والعافية والحيوية . وكان يهم بدخول شيكوريل فأصابته رصاصة طائشة فى معركة بين يونانيين فجرت مأساته على أوسع نطاق . وكان شاكر بك ابنه قد أصبح محاميا فصفى تجارة والده . وأخبرتنا أم أحمد أنه تزوج من فتاة بارعة الجمال تمت بصلة القربى للسلطان عبد الحميد .

وقد انضم شاكر بك إلى الوفد ، وتجلى نشاطه فى الصحافة والبرلمان ، ولكنه انضم إلى السعديين عند انشقاقهم وتقلد الوزارة مرتين ولما قامت ثورة يوليو اعتقل أكثر من مرة وفى مناسبات مختلفة ، ثم وضع تحت الحراسة فهام على وجهه كالمجنون . وكانت أم أحمد ترثى لحاله وحال أسرته وأمه ولكنى عرفت عنه أشياء .. من بعض الصحفيين ، لم يكن من المستطاع أن تبلغ علم أم أحمد . قيل - والله أعلم - أنه عمل مرشدا للمخابرات ، وقيل إنه وضع نفسه فى خدمة بعض من العرب كقواد دون لبس أو إبهام ، وأنه بهذا وذاك أمن المزيد من العسف وكون ثروة كبيرة . وكانت تلك الثروة دعامته فى عهد الانفتاح ليقفز إلى درجات خيالية من الثراء . اليوم الظاهرة الغالبة عليه هى التدين ، وكأنما يكفر عن تناقضات حياته الحافلة بالألم والذكريات الأسيفة .

خطر لى ذات يوم أن أزور أم أحمد بعد انقطاع طويل . وجدتها فى بيتها مع ابنتها المحالة إلى المعاش بعد خدمة كاملة فى التعليم .كان بصرها قد كف وقدرتها على الحركة قد ولت . ولما عرفتنى فتحت لى ذراعيها بحرارة وشوق ، ثم جلست على كرسى جنب فراشها . لعل لسانها هو العضو الوحيد الذى بقى محافظا على حيويته . ورحنا نتذكر ونتذكر ونقلب صفحات الماضى البعيد والقريب . جلنا معا فى جنبات عالم حافل بالأموات ، ألا ما أكثر الراحلين ، كأن الوجوه لم تشرق بالسناء والسنى فى ظلمات الوجود وكأن الثغور لم ترقص بالضحك ، هاهى رواية الحكايات وطبيبة الحب والجنس والسعادة ملقاة على الفراش القديم تشكل عبئا يوميا على أقرب الناس إلى قلبها . وما قيمة الحكايات ياأم أحمد وهى تتكرر بصورة أو بأخرى قبل أن تلقى نفس المصير . وقد عبرت الحارة من أولها لآخرها وانغمست فى العطر القديم . رأيت قلعة آل سعادة مغلقة مهجورة كالبيت المسكون ، أما السرايات الأخر فقد صارت إحداها مدرسة والثانية مستشفى والثالثة مقرا للحزب الوطنى . وتنبثق من الماضى أصوات وألوان ونبضات قلب فأقول لها لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ثم فرقت بيننا الأيام ، فإلى اللقاء فى المقر الأخير .

فهـــرس

ص

رقم الايداع : ٧٥٤٩/ ٨٨
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٣٩١ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

روايات الهلال تقدم

ثلاثة رجال فى قارب

تاليف

جيروم ك . جيروم

ترجمة

د . احمد مستجير

تصدر : ١٥ ديسمبر ١٩٨٨

هـــــذه الـروايـــة

« يسعدنى أن أكون تلميذا فى مدرسة الهلال العريقة »
بهذه العبارة استهل الكاتب الكبير نجيب محفوظ حديثه عن عطاء الهلال ورواياتها وهى تنقل له تهنئة قرائها بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للأدب هذا العام .

وفى لحظة النشوة بالخبر السعيد راح الكاتب الكبير يختار هذه الاقاصيص الاثنتى عشرة من عطائه الطويل فى القصص القصيرة لتنشر فى روايات الهلال ضمن باقة عطاء جميلة تفوح منها روائح العبقرية والموهبة والحياة .

وروايات الهلال التى قدمت دوما الابداعات الادبية الفائزة بجائزة نوبل من ويليام جولدنج وكلود سيمون ، ووول سوينكا ، تفخر أن تقدم ايضا نجيب محفوظ الذى وقف بأدبه شامخا مع عظماء القرن العشرين الذين صنعوا الكلمة الجميلة من اجل الناس .

أهل الهوى ..

هى أول عمل ادبى يختاره نجيب محفوظ عقب حصوله على الجائزة ..

وهى كلمة حلوة من نجيب محفوظ الى قرائه .. وايضا من روايات الهلال الى نجيب محفوظ وادبه ..



REWAYATALHILAL
) . 479 November 1988